ليوتولستوى

القوزاق

ترجمة : إبراهيم زكى خورشيد



القــوزاق



القــوزاق

تأليف

ليو تولستوى

ترجمة

إبراهيم زكى خورشيد



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

مقدمة

رجل عجيب بجميع المقاييس ! خالد بجميع المقاييس أيضاً ! جمع فى شخصيته الشاسعة الأبعاد النافذة البصيرة الرحبة الآفاق – كل المتناقضات ! كان أرستقراطياً فى ذاته . حاول فى أواخر أيامه أن يعيش حياة فلاح فقير . فأخفق فى سعيه . وكان شهوانيًّا انتهى إلى رجل متطهر صارم لا يلين ! وكان عارم الحيوية يخشى الموت فى كل خطوة من خطواته ، وهذه الثنائية الغريبة فى شخصيته أدت به فى منتصف حياته إلى هجر الكتابة فى الرواية . وانقلب مسيحيًّا متطرفا يدعو بحرارة إلى عقيدته فى الحب والإيمان وإنكار الملكية . ورفض المؤسسات التى صنعها الإنسان كالحكومات والكنائس وبث هذه الدعوة فى فيض من المقالات والرسائل والقصص والمسرحيات القائمة على التهذيب والموعظة الحسنة .

ولا شك فى أن « تولستوى » بإجماع النقاد من أئمة كتاب الرواية فى العالم ، وحسبه أنه كتب أعظم ملحمة فى تاريخ الأدب العالمى . ألا وهى رواية « الحرب والسلام » .

ولد ليو تولستوى فى ٩ من سبتمبر ١٨٢٨ فى ضيعة والديه « ياسنايا بوليانا » بولاية كولا بروسيا . وكانت أسرة تولستوى من أعيان الريف يُردّ نسبها إلى القرن السادس عشر، فقد أنعم القيصر بطرس الأكبر على جده بلقب كونت . وتزوج أبو تولستوى الكونتُ نيقولاس إيلتش الأميرة مارى فولكونسكى ، فزودته بثروة لا يستهان بها . ورزق منها خمسة أبناء من أصغرهم ليو . ونشأ ليو فى بيئة من أعيان الطبقة الوسطى العليا فى أواخر عهد رقيق الأرض ، وأكسبته هذه البيئة نظرة النبلاء ونظرة الفلاحين !

وتوفى عنه والداه وهو بعد طفل ، فكفله أقرباؤه . فوفروا له مدرسين تولوا تعليمه الأول ، فلما بلغ السادسة عشرة التحق بجامعة قازان . وربما كانت هذه الجامعة أكبر مؤسسة جامعية إلى الشرق من برلين فى ذلك الوقت . ولكنه لم يجتهد فى التعليم ، بل أحس بشىء من الاحتقار للدراسة الأكاديمية . وقضى معظم وقته يغشى دوائر المجتمع ؛ فقد كانت قازان حين ذاك أهم مركز اجتماعى لأعيان الروس بعد سانت بطرسبرغ وموسكو ، وكان تولستوى فى علو سنّه يذكر بالخير هذه السنوات التى قضاها فى سعادة لاهية لا يعكر صفوها شىء . على أن عقله الطّلعة كان ينمو ويؤكد وجوده ، وإلى هذه السنين يردّ تولستوى تأثره الكبير بمؤلفات جان جاك روسو .

وفى سنة ١٨٤٧ تخلى عن دراسته الجامعية ، وأقام فى ضيعته ياسنايا ؛ ليعيش حياة الفلاحين ويباشر شئونها ! ولكنه ضاق بهذه الحياة . وقضى معظم السنوات التالية فى موسكو ، وهناك أسلم نفسه لحياة الصعاليك والمنحلين شأن الشباب فى زمانه ومن هم فى طبقته ! ومع ذلك فقد ملّ بعد حين حياة الخليين ؛ كما يتبين من يومياته التى بدأ يكتبها سنة ١٨٤٧ . وأخذ يعلم نفسه . وينقد ذاته !

وفى سنة ١٨٥١ قرر أن يبدأ صفحة جديدة فى حياته . فتطوع فى وحدة من وحدات المدفعية ، وراح يقضى وقته فى حياة الحامية الهادئة بقرى القوزاق . يصطاد حيناً ، ويشترك فى الحملات العارضة التى كانت تُشن على أهل الجبال . وفى سنة ١٨٥٢ أتم أول قصصه « الطفولة » وتلقى سنة ١٨٥٤ براءة تعيينه ضابطاً ، وألحق بالجيش الذى كان يحارب الأتراك على نهر الدانوب ، ثم نقل بعد أشهر قليلة إلى سفاستبول ، وظل فيها حتى انتهاء حصارها . ولما سقطت هذه القلعة أرسل إلى سانت بطرسبرغ ، وظل فيها يغشى المجتمعات والدوائر الأدبية وآثر الأولى على الأخرى ، وخاب ظنه فى رجال الأدب ، ولم يستطع أن يتمشى معهم ؛ فقد صدمته غطرستهم المأثورة عن السادة ، واحتقر فيهم إيمانهم بمثل الأوربيين فى التقدم ! ولعل تشاحنه مع تور جنيف يبين ذلك بأجلى بيان . وفى سنة ١٨٥٧ اعتزل تولستوى الجيش .

وفى السنة نفسها ثم فى سنة ١٨٦٠ رحل تولستوى خارج البلاد ، ولم يأت معه فى عودته إلا بالحقد والكراهية لحضارة الغرب المادية التى تَدين بحكم الأثرياء ! وبعد رحلته الأخرى التى قام بها سنة ١٨٦٠ استقر به المقام فى ياسنايا بوليانا ، وقبِلَ منصب قاضٍ أنشئ بعد صدور قانون التحرر سنة ١٨٦١ للفصل فى المنازعات على الأرض بين الملاك والرقيق الذين كان الملاك يملكونهم من قبل ، وأنشأ مدرسة يتعلم فيها أولاد الفلاحين على مناهج مبتكرة تقوم على مواهبهم الطبيعية التى كان يؤمن بأنها أسمى شأناً من قيم الحضارة المصنوعة ، ونشر صحيفة خصصها للارتفاع بالآراء الخاصة بالتربية ، ولكنه لم يلبث أن ملّ منصب القاضى ، وسئم المدرسة ، وأصبح على مشارف الأزمة الوجدانية التى انتابته من بعد !

على أن هذه الأزمة لم تنضج ، وتستغل إلا بعد ذلك بخمس عشرة سنة ، فقد

أجّل زواجه وقوعها ! أجَلْ كان يفكر فى الزواج ، واستمر يفكر فيه مدة طويلة ، وانتهت قصته الغرامية بفاليريا أرسنيف إلى لا شىء وانتابته الوساوس ، وساورته الشكوك قبل أن يخطب صوفى بهرس ، وهى شابة تصغره بستة عشر عاماً ، وقع فى حبها سنة ١٨٦١ ، وتغلب على هذه الشكوك والوساوس ، وتزوجها فى السنة التالية .

وعاش تولستوى بعد زواجه فى ياسنايا ، يقضى بعض الوقت من السنة فى موسكو ، والبعض الآخر فى ضيعته وراء الفولجا ، وكانت حياته الزوجية موفقة سعيدة ، وقد زاد دخله من زراعة أراضيه وبيع كتبه ، وأخلصت له زوجته إخلاصاً عميقاً وأنجبت له تسعة أطفال .

وهدأ الصراع الذى كان يدور فى أعماقه عدة سنين ، هدأ واستنام بفضل هذه الحياة الهنيئة تمضى ميسرة لا يعكر صفوها عقله الكثير التساؤل ! وكانت فلسفته وقت ذاك هى أن المرء يجب عليه أن ينعم بخير ما فيه وخير ما فى أسرته ، ولا يحاول أن يكون أحكم من الحياة وأعقل من الطبيعة !

وبدأ تولستوى حوالى سنة ١٨٧٦ يحس بالقلق من هذه العيشة الرخية التى لا تأمّل فيها ولا تفكر ، وأصبح شعوره بدنوّ الأجل عقدة تتملكه ، وتنغص عليه حياته ، فراح يبحث بجميع وجدانه عن مبرر دينى لحياته ، فجنح إلى الأرثوذكسية التى يدين بها الشعب راجياً أن يلتمس النجاة فى دين يُسعد ملايين من الناس بالرغم من فقرهم وبؤسهم ، ولكن منطق العزة والكبرياء الذى غلب على عقله أبى عليه أن يتقبل طقوس هذا الدين وشعائره ، فأنكر الكنيسة ، وخرج من قراءته الشخصية للأناجيل بمسيحية جديدة استبعد فيها جميع الغيبيات والعناصر المخالفة للأخلاق ، وكانت المرحلة الحاسمة فى هذا التحول هى اللحظة التى أدرك فيها أن

رسالة المسيح كلها تنحصر فى هذه العبارة التى وردت فى سِفْر متّى : « لا تقاوم الشر » وأصبح هذا المبدأ الذى يقضى بالامتناع عن المقاومة – هو أساس العقيدة التى لم تلبث أن عرفت بمذهب « التولستوية » .

وقد وصف تولستوى وصفاً مفصلاً تحوله العقيدى هذا فى كتابه « اعتراف » الذى كُتب عام ١٨٧٩ ، ونشر سنة ١٨٨٤ ، وهو كتاب صادق فى خياله المتوقد ، وبلاغته العارمة ؛ مما يرفعه إلى مرتبة اعترافات القديس أوغسطين !

ولم يتخذ تولستوى أول الأمر أية خطوة لنشر عقيدته ؛ وإنما فعل ذلك حين شهد البؤس الاجتماعى الفادح فى زيارته أحياء موسكو البائسة القذرة ، فكانت هذه الحالة فى نظره شرًّا مستطيراً يجب استئصاله ، وزاد إيمانه بقضيته أيضا بعد صداقته الحميمة بشِرْ تكوف فغدت هذه العقيدة فرقة دينية لها قواعدها وأصولها ، وبدأت سنة ١٨٨٤ تكتسب الأتباع والأنصار !

وقد غيّر تحول تولستوى العقيدى من نظرته إلى الآثار التى يبدعها ، ولكن إبداعه الأدبى لم يتوقف ، ولم يهبط مستواه ، غير أنه أصبح مختلفاً عما كان ؛ كما اختلفت آراؤه فى وظيفة هذا الإبداع الاجتماعية والخلقية . وقد عبّر عن هذا كله فى كتابه « ما الفن ؟ » سنة ١٨٩٦ وهو من أعظم الكتب المشهورة التى كتبت فى هذا الموضوع على الإطلاق .

ـ وكذلك غيّر هذا التحولُ من طريقته فى الحياة ؛ فغدا يلبس ملابس الفلاحين ، ويكثر من العمل اليدوى ، وتعلم صنع الأحذية ! وأصبح نباتيًّا لا يأكل اللحم ، وأنكرت زوجته وأولاده – ما عدا ابنته ألكسندرا – تعاليمه . وأبت الكونتيسة تولستوى أن تستمع إلى تخليه عن ممتلكاته الدنيوية ، واستمسكت بحق أولادها فى هذه الممتلكات ، وكان من المفارقات العجيبة أن يعيش هذا

الحكيم الداعية إلى الفقر وسط عائلة تكفر بآرائه ، ولكنها تحبه حب العبادة ! وزادت الوحشة بين الزوجة وزوجها بوفاة الابن السادس الذى قربّت ولادته من قبل بينها وبينه ! وتملكتها الهواجس والوساوس ، وفقدت كياستها ، وزادت مرارتها ، وأصبحت الحياة فى ياسنايا جحيماً لا يطاق ! ونشبت المعارك المتصلة بين أتباع تولستوى أو قل بين الكونتيسة تولستوى وشرتكوف ، وضاق تولستوى بهذا كله ، فترك بيته ليلاً فى السرّ مع ابنته ألكسندرا فى ٢٨ من أكتوبر سنة ١٩١٠ ، خرج هائماً على وجهه بلا قصد ولا غاية ، وانهارت صحته فى محطة أستا بوفو ، فرقد فى غرفة ناظر المحطة ، وأسلم الروح فى ٧ من نوفمبر سنة ١٩١٠ ، ودفن فى ياسنايا دون أن تقام لدفنه الشعائر المسيحية !

هذه هى حياة تولستوى الحافلة بالعجائب والمتناقضات !

أما من حيث فنه الأدبى فلا جدال فى أن تولستوى من أعظم كتّاب الرواية فى العالم ، ورائعتاه (الحرب والسلام) خاصة ، وأنّا كارنينا عامة – هما عماد شهرته وتفوقه ؛ وقد استغرقت رواية (الحرب والسلام) من تولستوى سبع سنوات أو نحوها لكتابتها ، واقتضت منه مجهوداً خارقاً فاق فى مداه ومعالجته سائر ما كتب ؛ فقد أودعها كل ما تزخر به الحياة الإنسانية فى نسيج مترامى الأطراف شاسع الأبعاد ! وتناول فى موضوعية لا تبارى وواقعية صادقة العديد من الشخصيات التى أبدعها ، وما من رواية فى العالم حفلت بهذه التفصيلات المنتزعة من الحياة ، واتصفت بهذه الدقة فى التحليل النفسى ؛ حتى لَيخيل إليك أن الحياة بجميع ألوانها تتمثل أمامك ، تسير فى مجراها المتشابك سيراً طبيعيًّا لا إسراف فيه ولا شذوذ !

ولعل (أنّا كارنينا) تشبه (الحرب والسلام) فى طريقتها وسرد أحداثها على

الأقل ، ولكنها أقرب من (الحرب والسلام) فى الوحدة الفنية . وكانت فلسفة تولستوى فيما بين الروايتين فى سبيلها إلى التغيّر ، (فالحرب والسلام) فيها تفاؤل وإقبال على الحياة وحب لها ، وشخصياتها عملاقة فى خلائقها ، تتحكم فى الصراعات التى تدور فى أعماقها ، أما(أنّا كارنينا) فتتناول المجتمع الروسى فى الستينيات من القرن التاسع عشر ، وهى رواية يغلب عليها التشاؤم ؛ كما أن الصراعات التى تدور فى أعماق أبطالها لا يغلب عليها الحسم ؛ وإنما هى تنذر فى بعض الأحيان بالويلات والمصائب ! بل إن هناك ضرباً من الحتمية يجثم فوق المصير المحزن الذى يتهدد الحب الآثم بين أنّا وفرونسكى !

والحق أن الحديث عن فن تولستوى يطول ويطول ؛ حتى لا يتسع له المقام هنا . ومن رواياته المشهورة أيضاً (البعث) وله كذلك كتب ومقالات وقصص قصيرة رائعة ، وأساطير تغلب عليها النزعة الصوفية .

ولم يقف تولستوى عند هذا الحد ؛ فقد كتب أيضاً مسرحيات ناجحة أشهرها (سلطان الظلام) ، وهى مسرحية قوية عن حياة الفلاحين ؛ كما كتب عدداً آخر من المسرحيات دون هذه مكانة .

وثمة ناحية أخرى يجب ألا نغفلها فى الحديث عن تولستوى ، وهى آراؤه الاجتماعية ، والحق أنه لا يمكن أن يُعَد مصلحاً اجتماعيًّا : ذلك أنه لم يقدّم آراء عملية فى النهوض بالأحوال الاجتماعية ؛ فهو لم يكن يؤمن بإمكان الإصلاح بالمعنى المتعارف عليه لهذه الكلمة ؛ لقد كان يرى أن الواجب الأول للمسيحى الصادق هو أن ينأى عن العيش من عمل الآخرين ، وألا يشارك فى العنف المنظم الذى كانت تمارسه الدولة ! وكان إنكاره يشمل الديمقراطية الرأسمالية المعهودة فى الغرب ، وحكم الفرد الماثل فى روسيا ! ونستطيع أن نقول : إن تأثير تعاليم تولستوى فى هذا

الصدد لم يكن قويًّا فى روسيا ؛ كما أن أتباعه كانوا قليلين !

أما تعاليمه من حيث العقيدة فكانت تقوم على أن فى ضمير الإنسان نوراً طبيعيًّا متأصلاً يكشف له أن الله هو الخير المطلق والحق المطلق ؛ فالله ومملكته فى أعماقنا ، وغاية الإنسان هى أن ينال السعادة . والسعادة لا تتحقق إلا بأن يفعل الإنسان الخير ، ويحب الناس جميعاً ، وأن يتخلص من شهوات الطمع والجسد والغضب . . وتستوى عنده كل ألوان العنف والقهر ؛ فهى من الخبائث ؛ والحب والرحمة يجب أن يعمًّا البشر جميعاً . وكان تولستوى نباتيًّا ، يمتنع عن الحمر والتدخين وما هو على غرارهما من عقاقير ؛ فكل ذلك صنعته حضارة فاسدة تغشى ضمير الإنسان السليم الفطرى . وتغرقه فى مهاوى الظلمة !

* * *

وبعد فإن رواية « القوزاق » التى نقدمها اليوم إلى القارئ العربى تصور الأيام التى عاشها تولستوى بين هؤلاء القوم ؛ كما تصور الصراع الذى ظل يلازمه طول حياته بين الفطرة التى لا تتفكر والحياة الطبيعية التى لا تعمّل فيها . وبين مقتضيات العقل وقواعد الأخلاق . وكان الفيصل هو انتصار الحياة ، حياة الإنسان الطبيعى الذى لا يفكر فى الخير والشر ، ولا يخضع لمنطق الخلق ، وهو ما يمجده القوزاق الذين وصَموا بالخزى والعار بطلَ الرواية العاجز المتدبر أولينين !

وخير ما نختم به هذه المقدمة هو قول الأديب الفرنسى الكبير (رومان رولان) فى هذه الرواية :

« القوزاق خير روايات تولستوى الغنائية ، وأغنية شبابه ، والقصيدة التى نظمها فى بلاد القوزاق ؛ فقد حفلت هذه الرواية كلها بالجمال المترفع الذى اتسمت به الجبال يكلل هاماتها الجليد تزهو فى سماء مشرقة تبهر الأبصار ! وهى أثر يفوق كل

الآثار ، بل هى أول ثمرة تفتقت عنها أكمام عبقرية تولستوى !

وقد قدم بطل الرواية – مثله مثل تولستوى – القوقاز يبحث عن انطباعات نضيرة فى خضم ما تأتى به الأقدار من خطوب ، ووقع فى حب امرأة قوقازية ، وأسلم نفسه لأتون من الرغبات المتصارعة ، وظن يوماً أن السعادة تكمن فى حب (الغير) ، أجل فى الحب وإنكار الذات ! وإذا بأفكار جديدة تطرأ عليه :

« إن كل ما كنت أفكر فيه هباء فى هباء ! الحب وإنكار الذات . . . ما الذى يدعونى إلى التفكير؟ حسبى أن أعيش ، أجَلْ أعيش . . . وهذا حسبى . . ! »

وقد أظهر تولستوى فى هذه القصيدة الرائعة كل ملكاته فى الوصف ، كما تجلت فيها واقعيته تجلياً لا يقل عن ذلك فى تصوير شخصية الإنسان .

إبراهيم زكى خورشيد

الفصل الأول

كان السكون قد خيم على موسكو . فلا تسمع فرقعة العجلات تمر فى الشوارع التى بللها المطر إلا نادراً أو أقل من النادر . وانقطعت الأضواء كلها من النوافذ . وأطفئت مصابيح الشوارع . وانبعث صوت الأجراس من أبراج الكنائس . وأخذ ينساب فوق المدينة الهاجعة ، فيذكر الناس بالصبح ، وأقفرت الشوارع إلا من زلاقة تشق طريقها من حين إلى حين فى الجليد والرمل . وما إن يصل سائقها إلى ركن الشارع التالى حتى يستسلم للنوم فى انتظار راكب آخر . وتمر امرأة عجوز فى طريقها إلى الكنيسة حيث كانت بعض الشموع التى وضعت فى غير نظام لا تزال تشتعل وانعكس ضَوْءُها الأحمر على الإطارات المذهبة التى احتوت الأيقونات . وشرع العمال يستيقظون بعد ليل الشتاء الطويل ويتأهبون للمضى إلى أعمالهم .

أما السادة فكان الوقت فى نظرهم لا يزال مساء !

وكانت الأنوار لا تزال تبص من ثقوب فى مصاريع النوافذ بمطعم شيفالييه منتهكة حرمة الليل فى مثل هذه الساعة ، وقد وقفت بباب المطعم عربة وعدد من

الزلاقات اصطفت الواحدة منها فى إثر الأخرى ، وكان ثمة أيضاً زلاقة من زلاقات المسافرين تجرها ثلاثة جياد ، وبدا بواب الفناء وقد عضه البرد بنابه ، وتدثر من قمة رأسه إلى أخمص قدميه كمن يريد أن يحتمى من البرد خلف ركن الدار .

وشرع الساقى يحدث نفسه قائلاً : « وما جدوى كل هذا القول المقذع ؟ » وكان يجلس فى الردهة تعلو وجهه نظرة من الحيرة وأردف يقول : « هذا هو ما يحدث دائماً عندما تكون نوبتى فى العمل قائمة ! » .

وكنت تسمع من الغرفة الصغيرة المجاورة الباهرة الضوء أصوات شبان ثلاثة ، وتجد على المائدة التى فى الغرفة بقايا عشاء وخمر . وكان أحد هؤلاء الشبان رجلاً قصير القامة نحيلاً أنيق اللباس عاطلاً من الحسن ، جلس ينظر بعينين رقيقتين كليلتين إلى الصديق الذى على وشك الرحيل ، وكان الشاب الآخر طويل القامة يعبث بمفتاح ساعته ويضطجع على أريكة بالقرب من المائدة التى قامت فوقها الزجاجات الفارغة . أما الثالث فكان يرتدى سترة جديدة من جلد الماعز ، وأخذ يذرع الغرفة روحة وجيئة ، ويتوقف من حين إلى حين ليكسر لوزة بين أصابعه القوية الغليظة التى عنى بنظافة أظفارها ويبسم دائماً لشىء ما ، وقد توقدت عيناه ، وتوهج وجهه جميعاً ، وراح يتكلم بغيرة وحماسة ويومئ بيده أو جسمه معبراً عما يقول ، على أنه كان ظاهر العى لا يستطيع أن يجد من الكلمات ما يسعفه ، فإذا أسعفه منها شىء وانطلق إلى لسانه كان أعجز فيما يبدو عن تبيان ما يفيض به قلبه من مشاعر .

وقال المسافر : « الآن أستطيع أن أفصح لكما عما يكنه صدرى ، ولست أدافع عن نفسى ، ولكنى أريد منكما – على أقـل تقدير – أن تفهمانى كما أفهم نفسى ، فلا تنظرا إلى الأمر من ناحيته المألوفة المبتذلة » . ثم استطرد يقول موجهاً الحديث

إلى الرجل الذى كان ينظر إليه نظرة رقيقة : « أتقول : إننى عاملتها معاملة سيئة ؟ » .

ويجيب الرجل قائلاً : « أجل ، إنك لخليق باللوم » . وبدا أن نظرته قد شابها مزيد من الرقة والكلال .

واستأنف المسافر حديثه قائلاً : « إنى لأعلم السبب الذى يدعوك إلى هذا القول ؛ فأنت تعتقد أن حظ المحبوب من السعادة عظيم كحظ المحب ، فإن هو أدرك ذلك كفاه طول حياته ! » .

ويلح الرجل القصير القامة فى القول وهو يقطب ما بين عينيه :

« أجل يا صديقى العزيز ، إن فى ذلك الكفاية كل الكفاية ، بل أكثر من الكفاية » .

ويقول المسافر مستغرقاً فى تأملاته ، ناظراً إلى صديقه كأنما يرثى لحاله : « ولكن لماذا لا يحب المرء أيضاً ؟ لماذا لا يحب ؟ إن الحب لا يُقبل . . . كلا إن من الشقاء أن يكون المرء محبوبا ! وشقاء أن يحملك ذلك على الإحساس بالإثم ، لأنك لا تعطى ، أو لا تستطيع أن تعطى لقاء ما تأخذه » ثم يلوح بذراعه ويقول : « آه ! يا إلهى ، تمنيت أن تقع هذه الأمور على مقتضى المنطق والعقل ! ولكنها تسير جميعاً خبط عشواء غير عابئة بنا ولا ملقية بالاً إلينا ، فهى تحل على هواها ، وتقبل وفق مشيئتها . عجبا ! كأنى اختلست هذا الحب اختلاساً ! وأنت أيضاً تظن بى هذا الظن ، وأنت تعتقد هذا ، لا تنكر ، فلا شك أن ذلك هو عقيدتك فىّ ! ولكن هلا علمت أن هذا الفعل من دون الأفعال الحمقاء القبيحة جميعاً التى وجدتُ فسحة من العمر تبيح لى ارتكابها — هو الفعل الوحيد الذى لا أندم عليه ، بل لا أستطيع أن أندم عليه ! ذلك أننى لم أخدع نفسى أو أخدعها عن قصد

لا فى بداية الأمر ولا فيما بعد ، لقد دار فى وهمى أننى وقعت أخيراً فى شراك الحب ، ولكنى تبينت من بعد أنى كنت أخدع نفسى على غير وعى منى ! إن من المستحيل أن يحب المرء على هذا النحو ، ولم أستطع أن أمضى فى طريقى ، أما هى فقد مضت فى طريقها ، أيكون الذنب ذنبى ، لأننى لم أستطع ؟ وما الذى كان فى مقدورى أن أفعله ؟

ويقول صديقه وهو يشعل سيجاراً يرد عنه سلطان النوم : « لقد انتهى الأمر الآن على كل حال ! وكل ما هنالك أنك لم تحب بعد قط ، ولا تعرف معنى الحب ! »

وكان الرجل الذى يرتدى جلد الماعز على وشك الكلام مرة أخرى واعتمد رأسه بين يديه ، إلا أنه لم يستطع التعبير عما يريد .

« لم أحب قط ! . . أجل ، هذا هو الحق بعينه ، فإنى لم أكابد الحب قط ! على أننى مع ذلك أحس فى أعماقى برغبة فى الحب ، وما من شىء يمكن أن يكون أشد من هذه الرغبة ! إلا أننى أعود فأتساءل : ألمثل هذا الحب وجود ؟ إن ثمة شيئاً يظل دائماً ناقصاً غير مكتمل ، ولكن ما جدوى الكلام ؟ لقد أوقعت نفسى فى مأزق مخيف ! ومع ذلك فقد انتهى كل شىء الآن ، إنك محق كل الحق ، وأنا أشعر بأننى فى الطريق إلى حياة جديدة » .

وقال الرجل المضطجع على الأريكة يعبث بمفتاح ساعته : « ولتوقعها فى مأزق مرة أخرى ! » ، إلا أن المسافر لم يسمعه .

ومضى يقول : « إنى حزين ، وعلى ذلك فأنا سعيد بالرحيل ، أما حزنى فلست أعلم له علة ولا سبباً ! » .

واستطرد المسافر يتحدث عن نفسه ، ولم يلاحظ أن حديثه لم يثر اهتمام صاحبيه

بقدر ما أثار اهتمامه هو ، ذلك أن المرء لا يبلغ أبداً من الإعجاب بنفسه ما يبلغه لحظات التجلى الروحى ؛ فإنه يبدو له فى تلك اللحظات أن ليس على الأرض شىء أكثر منه جلالاً أو أعظم منه خطراً ! » .

ودخل شاب من رقيق الأرض الغرفة مرتدياً سترة من جلد الماعز وقد ربط وشاحاً حول رأسه ، وهتف يقول : « أى ديمترى أندريفتش ، لن ينتظر الحوذى بعدُ أكثر مما انتظر ؛ فقد ظلت الجياد متأهبة منذ الحادية عشرة والساعة الآن الرابعة ! »

ونظر ديمترى أندريفتش إلى عبده فانيوشا ، وكأنما كان الوشاح الملتف حول رأس فانيوشا وحذاؤه المصنوع من اللباد ووجهه الوسنان – كل أولئك يدعو سيده إلى حياة جديدة قوامها العمل والكد والاجتهاد .

وقال وهو يتحسس المشبك المفكوك الذى فى سترته : « صدقت ! وإلى اللقاء ! »

وبذلت له النصيحة بأن يهدئ من روع الحوذى بنفحة أخرى من المال ، إلا أنه وضع قبعته على رأسه ووقف فى وسط الغرفة ، وتبادل الأصدقاء القبلات مرة ، ثم ثانية ، ثم ثالثة بعد لحظة ، واقترب المسافر من المائدة وأفرغ قدحاً فى جوفه ، ثم أخذ بيد الرجل العاطل من الحسن ، وتضرج وجهه بحمرة الخجل .

« لا بأس ، ولأفصحن عن مكنون صدرى بالرغم من كل شىء . . إن الواجب يقتضينى أن أكون صريحاً معك ، وسيكون هذا شأنى : ذلك أننى شديد التعلق بك . . . إنك تحبها فعلاً ، وهذا ما ظننته فيك دائماً ، أليس الأمر كذلك ؟ »

وأجابه صديقه فى ابتسامة زادت رقة على رقة : « بلى » .

« ولعل . . . »

وقال الساق الوسنان ، وكان ينصت إلى الجزء الأخير من الحديث ويعجب من أمر هؤلاء السادة الذين دأبوا على الحديث فى موضوع واحد لا يتغير ولا يتبدل : « عفوك يا سيدى ، فإنى مأمور بأن أطفئ الشموع » ، ثم أردف وهو يدرك لمن يوجه خطابه والتفت إلى الرجل الطويل القامة : « باسم من أكتب قائمة الحساب ؟ أباسمك يا سيدى ؟ »

وأجاب الرجل الطويل : « باسمى ، كم الحساب ؟ »

« ستة وعشرون روبلاً »

وأعمل الرجل الطويل فكره لحظة ، إلا أنه لم يقل شيئاً ، ووضع القائمة فى جيبه وواصل الآخران حديثهما .

فقال الرجل القصير العاطل من الحسن ذو العينين الرقيقتين : « إلى اللقاء ! إنك لفتى ولا كالفتيان ! » وامتلأت مآقيهما بالدموع ، ثم خرجا إلى الصفة .

وقال المسافر وهو يلتفت إلى الرجل الطويل وقد احمر وجهه خجلاً : « وبهذه المناسبة هل لك أن تدفع حساب مطعم شيفالييه وتكتب إلى تنبئنى بذلك ؟ »

وقال الرجل الطويل وهو يلبس قفازه : « حسن ! حسن ! ثم أردف على حين بغتة عندما خرجا إلى الصفة : « لشد ما أحسدك ! »

وركب المسافر زلاقته ، والتف بدثاره المصنوع من جلد الماعز وقال : « حسن ، تعال إذن ! » ولم يكتف بذلك بل تحرك فى مقعده قليلاً ؛ ليفسح مكاناً فى الزلاقة للرجل الذى قال : إنه يحسده ؛ وكان صوته يرتجف .

وقال الرجل الطويل : « إلى اللقاء يا ميتيا ، أرجو بمعونة الله . . . » ، إلا أن كل ماكان يتمناه هو أن يمضى المسافر سريعاً حتى لا يتم عبارته .

وخيم السكون عليهم لحظة ، ثم هتف واحد منهم : « إلى اللقاء » ، وصاح

صوت يقول : « استعد » ولمس الحوذى ظهور الجياد يوقظها .

ونادى أحد الصديقين قائلاً : « هلم يا يليزار ! » . فتحرك الحوذى وسائقو الزلاقة وهم يشأشئون بألسنتهم استحثاثاً للخيل ويشدون أعنتها . وكانت العجلات التى جمدها الصقيع تصر صريراً وهى تسير على الجليد .

وقال أحد الصديقين : « إن أولينين هذا لفتى كريم ! ولكن يا لها من فكرة أن يذهب إلى القوقاز ! يذهب إليه طالباً فى كلية حربية أيضاً ! ولو أنهم دفعوا لى أجراً على ذلك ما فعلته . . . أوقد عزمت على تناول غذائك فى النادى غداً ؟ »

« نعم » .

ثم افترق الصديقان .

وكان المسافر يشعر بالدفء . ويظهر أن معطفه المصنوع من الفراء كان شديد الدفء أيضاً . وجلس الشاب فى قاع الزلاقة وفك أزرار معطفه . وأخذت الجياد الثلاثة الشعث تسير متثاقلة الخطى من شارع مظلم إلى شارع مظلم آخر . وتمر بمنازل لم يرها من قبل قط . وقد بدا لأولينين أنه لم يكن يجتاز هذه الشوارع إلا المسافرون فى رحلة طويلة ، وكان الظلام والسكون والكآبة تخيم حوله . إلا أن نفسه كانت مفعمة بالذكريات والحب والندم يغشاها شعور لذيذ بالدموع المكبوتة !

الفصل الثانى

وظل يردد القول : « إنى مشغوف بهما ، مشغوف بهما غاية الشغف ! . . يالهما من رفيقين ماجدين ! . . كريمين ! » ، وأحس بأنه على وشْك البكاء ، أما السبب الذى كان يريد من أجله أن يبكى ـ ومن كان هذان الرفيقان الماجدان اللذان شغف بهما — فكان أمراً أبعد من أن يعرفه حق المعرفة . وراح يلتفت بين الفينة والفينة إلى بيت من البيوت ويعجب من طراز بنائه الممعن فى الغرابة ، وأخذ العجب يتملكه أحياناً من أن السائق وفانيوشا اللذين يختلفان عنه كل الاختلاف — قد جلسا قريبين منه هذا القرب ، يهتزان ويتمايلان مثله بفعل الجهد الذى كان يبذله الجوادان الأيمن والأيسر وهما يشدان العربة فوق آثار الطريق المتجمدة . ثم مضى يردد القول مرة أخرى : « أحسنت صنعاً ! . . عظيم ! » ، وعجب مما دعاه إلى هذا القول . ثم سأل نفسه : « ويحى ! أترانى ثملاً ؟ » صحيح أنه تناول زجاجتين من الخمر ، إلا أن الخمر وحدها لم تكن هى التى فعلت به هذا الفعل . لقد تذكر كل ما وجه إليه وقت رحيله من كلمات تنم عن الود ، وتصدر عن استحياء ، وتنطلق فيما يعتقد

من القلب ، وتذكر كيف تصافحت الأيدى ؟ وكيف تبودلت النظرات ؟ وكيف انعقدت الألسنة لحظات ولحظات ؟ وتذكر الصوت الذى انبعث يقول له : « إلى اللقاء يا ميتيا » ، عندما احتوته الزلاقة فعلاً . وتذكر الصراحة التى توخاها فى قوله ، وكان لهذا كله معنى يمس منه القلب والنفس . وبدا له أن أصدقاءه . وأقرانه ، وأولئك الذين لم يكونوا يلقون بالاً إليه . بل أولئك الذين كانوا ينفرون منه – قد اجتمعت كلمتهم قبل رحيله على أن يزدادوا تعلقاً به . ويغفروا له ، كما يفعل الناس قبل أن يهموا بالاعتراف أو وهم فى حضرة الموت !

وتدبر فى أمر نفسه قائلاً : « لعلى لا أعود من القوقاز » . وأحس بأنه كان يحب صديقيه ، ويحب شخصاً آخر علاوة على حبه لهما ، لقد كان يشعر بالرثاء لحاله هو . إلا أن محبته لصديقيه لم تكن هى التى حركت منه المشاعر ، وسمت بنفسه حتى عجز عن أن يردد الكلمات الجوفاء التى بدا أنها تنبعث من تلقاء نفسها إلى لسانه ، ولم يك ما به وليد حب يكنه لامرأة (فقد كان خالى القلب لم يقع بعد فى شرك الحب) ، بل كان حبه لنفسه حباً حاراً جياشاً بالأمل ، حباً فتياً لكل ما انطوت عليه نفسه من خير (وقد خيل إليه فى تلك اللحظة أن نفسه لا تنطوى إلا على الخير) هو الذى حمله على البكاء ، ودفع إلى لسانه بتلك الكلمات المتناثرة يتمتم بها تمتمة !

لقد كان أولينين شاباً لم يتم دراسته الجامعية قط أو يلتحق بعمل ما (لم يتقلد إلا وظيفة اسمية فى مكتب حكومى أو نحو ذلك) ، وقد بدد نصف ثروته ، وبلغ الرابعة والعشرين دون أن يعمل شيئاً ، بل هو لم يختر لنفسه مهنة من المهن ، أى : أنه كان فى عرف علية القوم فى موسكو « فتى من الفتيان » .

لقد كان فى الثامنة عشرة من عمره حراً طليقاً لا يفترق فى شىء عن شباب الروس

الأثرياء فى العقد الخامس من هذا القرن ، أولئك الذين مات عنهم والداهم فى سن مبكرة ، ولم تكن تقيده قيود مادية أو خلقية ؛ فقد كان فى مقدوره أن يفعل ما يشاء ، لا يحتاج إلى شىء ولا يلتزم شيئاً ، لا يعرف أسرة ولا وطناً ولا ديناً ولا يحس بحاجة تلح عليه . كان لا يؤمن بشىء ولا يعترف بشئ ، إلا أنه لم يكن على الرغم من افتقاره إلى الإيمان شاباً نكد الطبع مكتفياً بضيق الناس به ، بل كان على النقيض من ذلك : يسلم قياده للناس فيذهبون به أى مذهب . وكان قد انتهى رأيه إلى أنه لا وجود لشىء اسمه الحب ، على أن قلبه كان يفيض دائماً بالمشاعر إذا جلس فى حضرة غادة شابة فاتنة ، وكان قد أدرك منذ أمد بعيد أن مراتب الشرف ومناصب الجاه هراء فى هراء ! ولكنه لم يملك نفسه من السرور عندما شخص إليه الأمير سرجيوس فى مرقص من المراقص وتحدث إليه حديثاً ودياً ، وقد كان مع ذلك لا يستسلم لنزواته إلا بالقدر الذى لا يحد من حريته :

فقد كان إذا استسلم لأى مؤثر ثم تبين أنه سيؤدى به إلى العمل والكفاح ، الكفاح التافه مع الحياة — بادر بفطرته إلى تخليص نفسه من الشعور أو العمل الذى وجد نفسه مسوقاً إليه ، واستعاد حريته ، وهكذا خبر حياة الطبقة العليا من الناس وخبر الخدمة المدنية والزراعة ، ثم الموسيقى التى كانت نيته قد صحت فى وقت من الأوقات على أن يكرس لها حياته ، بل خبر أيضاً حب النساء ، ولم يكن يؤمن به ، وكان يفكر فى الغرض الذى يقتضيه أن يكرس له نعمة الشباب التى لا تواتى المرء إلا مرة واحدة فى حياته

أجل نعمة الشباب لا نعمة العقل أو الإحساس أو التعليم ؛ وإنما نعمة ذلك الحافز الذى يمتلك المرء بغتة ، فيهب له القدرة على أن يسوى نفسه فى الصورة التى يشاء ، أتراه الفن أو العلم ، أو حب امرأة ، أو الاتجاه إلى ناحية عملية من نواحى

الحياة ؟ صحيح أن بعض الناس قد تجردوا من هذا الحافز ، فما إن يضربون فى زحمة الحياة حتى يسلموا أعناقهم لأول نير يصادفونه ، ويعملوا بإخلاص تحت ربقته إلى أن يدركهم الموت ! إلا أن أولينين كان شديد الشعور بوجود ذلك السلطان القادر على كل شيء ، سلطان الشباب ، تلك القدرة التى تتحول جميعاً إلى مطمح واحد أو فكرة واحدة ، القدرة على أن يلقى بنفسه بلا روية أو تفكير فى هوة سحيقة دون أن يعرف لذلك سبباً أو يدرى أين يكون القرار؟

وكان يطوى جوانحه على هذا الشعور ، فخوراً به ، سعيداً على غير وعى منه ! وكان حتى ذلك الحين لا يحب إلا نفسه ، ولا يملك إلا أن يحب نفسه ؛ لأنه لم يكن يتوقع منها إلا الخير ، ولم يكن قد اتسع وقته بعد للتعلق بالأوهام ، كان عند رحيله من موسكو تغمر فؤاده تلك السعادة التى تدفع بالشاب المدرك للأخطاء التى ارتكبها فى الماضى إلى التحدث إلى نفسه فجأة قائلاً : « لم يكن هذا حقاً » ، وإن كل ما جرى كان شيئاً عارضاً لا شأن له ولا خطر ، وهو لم يكن حتى ذلك الحين قد حاول حقاً أن يعيش ، أما الآن فإن رحيله من موسكو قد فتح له باب حياة جديدة ، حياة لا ينتظر أن يكون فيها شيء من الأخطاء الماضية ، ولا مجال لتأنيب الضمير ، وأغلب الظن أنه لن يلقى فيها إلا السعادة .

وقد جرت الحال دائماً بأن يظل خيال المرء فى الرحلات الطويلة عالقاً بالمكان الذى خلفه وراءه ؛ حتى تنقضى مرحلتان أو ثلاث مراحل من الطريق ، فما إن يحل به أول صباح فى سفرته حتى يقفز خياله إلى نهاية الرحلة ، ويروح عن نفسه بالآمال الكذاب ! وهكذا كان شأن أولينين .

ترك أولينين المدينة وراء ظهره ، وراح يحدق فى الحقول التى غطاها الجليد وانتابه السرور لوجوده وحيداً فى وسطها . ثم التف بمعطفه ، واضطجع فى قاع

الزلاقة ، فهدأت نفسه وأخذته سنة من النوم ، وكان فراقه لصديقيه قد حرك كوامن نفسه ، وانبعثت فى مخيلته على غير إرادة منه ذكريات الشتاء الماضى الذى قضاه فى موسكو ، وصور من الماضى امتزجت بأفكار غامضة ، وضروب من الندم لا يعرف لها كنها !

وتذكر الصديق الذى ودعه ، وعلاقته بالفتاة التى كانا يتحدثان عنها ، وكانت هذه الفتاة موسرة ، وحدث نفسه والشكوك المريبة تراوده قائلاً : «كيف يحبها وهو يعلم أنها تحبنى؟ إن المرء إذا تدبر الأمر وجد أن الناس ينطوون على شىء كثير من الخيانة ! » ، ثم ألقى نفسه يواجه هذا السؤال : « ولكن كيف حدث حقاً أننى لم أحبب قط ؟ وما من أحد إلا قال لى : إننى لم أعرف الحب قط ! أترانى شاذ الخلق اختلف أنا وسائر الناس ؟ » ثم أخذ يستعيد كل ما وقع فيه من حوادث افتتن فيها بالنساء : فتذكر دخوله فى زمرة الطبقة العليا وأخت صديق له قضى معها بضع أمسيات على مائدة فوقها مصباح كان يضىء أصابعها النحيلة المشغولة بالتطريز والجزء الأسفل من وجهها الرقيق الجميل ، وتذكر ما دار بينهما من أحاديث جرت فى تؤدة وتمهل كلعبة السير على عصاً ومحاولة الإبقاء عليها مشتعلة أطول مدة ممكنة ، وتذكر الحرج والضيق اللذين كانا يملكان عليه نفسه جميعاً ، وشعوره المتصل بالتمرد على هذا الضيق ، وكان ثمة صوت يهمس إليه دائماً : «ليس هذا هو الحب ! أليس هذا هو ؟ » وثبت له صحة ذلك ، ثم تذكر مرقصاً ، وتذكر رقصة المازوركا التى خاصر فيها الحسناء د . . . وحدث نفسه قائلاً : « لشد ما كنت غارقاً فى الحب تلك الليلة ! وما كان أسعدنى ! ولكم تألمت وغضبت عندما استيقظت فى صباح اليوم التالى فوجدتنى ما أزال حراً خالى القلب ! لمَ لا يقبل الحب فيغل يدى وقدمى جميعاً ؟ كلا ، لا وجود لهذا الشىء الذى يقال له الحب ، بل إن ما وقع لى

مع تلك الجارة التى ألفت أن تقول لى كما تقول لدبروفين والمارشال : إنها متيمة بالنجوم – لم يكن حباً أيضاً » .

وعاودته ذكرى زراعته وعمله فى الريف ، ولم يأنس فى تلك الذكريات أيضاً ما يشيع السرور فى نفسه ، وطاف بمخيلته سؤال : « أتراهم يتناولون رحيلى بكلام كثير؟ » ، أما من يكون هؤلاء فأمر لم يكن يعرفه حق المعرفة . ثم طرأ على ذهنه أمر آخر جعله يجزع ويتمتم تمتمة غير مفهومة ، فلقد تذكر السيد « كابل » الخياط ، وتذكر السمائة والثمانية والسبعين روبلاً التى فى عنقه له ، بل تذكر الكلمات التى استمهله بها أداء دينه سنة أخرى ، ونظرة الحيرة والاستسلام التى علت وجه الخياط ، وراح يردد القول : « رباه رباه ! » ، فزعاً محاولاً التخلص من هذه الفكرة التى كانت فوق ما يطيق ! ثم سرح خياله فى الفتاة التى كانت مدار حديثهم فى مأدبة العشاء التى أقيمت لوداعه ، وقال : « ومع ذلك فقد كانت تحبنى بالرغم من كل شىء ، ولو أننى تزوجتها ماكنت الآن مديناً لأحد بشىء ، وهأنذا مدين لفاسيلييف » ، ثم تذكر آخر ليلة لعب فيها مع فاسيلييف فى النادى (بعد أن تركها مباشرة) ، وتذكر توسلاته لهذا الرجل فى ذلة ومسكنة أن يلعب معه دوراً آخر ، وما لقيه على يده من رفض صفيق ، « سأقتصد عاماً وأوفى ديونى جميعاً ، وليذهبوا إلى الجحيم ! . . » ، ولكنه بالرغم من هذا التأكيد شرع يحصى مرة أخرى ديونه التى لم يف بها ، وينظر فى آجالها والوقت الذى يأمل فيه أن يسددها ، وهتف يقول محدثاً نفسه : وأنا مدين ببعض المال لموريل ، وكذلك لشيفالييه »

وراح يستعيد ذكرى الليلة التى استدان فيها ذلك المبلغ الكبير ، لقد كانت سكرة مع النور دبرها بعض الأصدقاء من بطرسبرج : شاسكاب . . . أركان حرب الإمبراطورية ، والأمير د . . . ، وذلك الصديق القديم الفخور المتعاجب ، ثم قال

يحدث نفسه : «كيف يرضى هؤلاء السادة عن أنفسهم كل الرضا؟ وبأى حق يؤلفون فيما بينهم زمرة ، ويحسبون أن من ينضم إليها فيمن عداهم خليق بأن يزهو على الناس ويتملقه الناس؟ وهل السبب فى ذلك أنهم ضباط ينتمون إلى حاشية الإمبراطور؟ وى ! ألا إن النفس تشمئز مما يعمدون إليه من رمى غيرهم من الناس بالحماقة والخسة ! ومهما يكن من شىء فإنى قد أظهرت لهم أننى على خلاف غيرى لا أود أن أشاركهم الصداقة . وإنى لأحسب على كل حال أن ناظر أملاكى سوف يدهش إذا علم أننى على صلة وثيقة برجل مثل ساشكاب . . . الكولونيل وأركان حرب الإمبراطور ! أى نعم ! وأننى شربت تلك الليلة كما لم يشرب أحد ! وعلمت النور أغنية جديدة . أنصت لها الجميع . ولعلى قد ارتكبت حماقات كثيرة . ولكننى ما زلت فتى غاية فى الطيبة» .

وطلع عليه النهار وهو فى المحطة الثالثة . وشرب الشاى . وعاون بنفسه فانيوشا على نقل حزمه وصناديقه . وجلس بينها هادئاً مطمئناً ، منتصب القامة صافى الذهن . يعرف أين يجد كل ما يخصه . ومقدار ما يملكه من مال ومكانة؟ وأين وضع جواز سفره والترخيص الذى يبيح له التزود بالجياد فى المحطات . والأوراق التى تجيز له المرور من أبواب المكوس؟ وبدا له كل هذا مرتباً أحسن ترتيب ؛ حتى لقد فاض وجهه بالبشر . وأخذت الرحلة الطويلة تتجلى له كأنها نزهة لا تنقطع لها متعة .

وقطع صباح ذلك اليوم وظهره جميعاً مستغرقاً فى حساب عدد الفرستات[1] التى قطعها . وكم بقى له حتى يبلغ المحطة التالية؟ وكم . . . حتى يدرك المدينة الأولى؟ وكم . . . حتى يصل إلى المكان الذى سيتناول فيه غذاءه؟

---

(١) الفرست : مقياس روسى يساوى ١,٠٦٧ من الكيلومتر .

وكم . . . حتى يحل بالموضوع الـذى سيشرب فيه الشاى ؟ وكم . . . حتى يلم بستافروبول ؟ وما مقدار ما قطع بالنسبة إلى الرحلة كلها ؟ ثم حسب أيضاً ما معه من مال وما سوف يتبقى له منه ، وما يلزمه ليوفى ديونه ! ، وما ينتظر أن ينفقه من دخله كل شهر ! وما إن فرغ من تناول الشاى وأوشك الليل أن يرخى سدوله حتى كان قدر أنه بقى له أن يقطع سبعة أجزاء من أحد عشر جزءا من الرحلة حتى يبلغ ستافروبول . وأن ديونه تقتضيه الاقتصاد سبعة أشهر ، وتستنفد ثمن ثروته كلها ، وعندئذ طابت نفسه ، فالتف فى دثاره . وقبع فى قاع الزلاقة ، وأخذته مرة أخرى سنة من النوم . ثم سرح خياله من بعد فى المستقبل : أى فى القوقاز ، وكانت جميع أحلامه بهذا المستقبل تقترن هى وأبطال مثل «أمالات بك» ونساء جركسيات . وجبال . ووهاد . وسيول جارفة . وأخطار . كانت كل هذه الأشياء غامضة مبهمة إلا أن حب الشهرة وخشية الموت كانا السر فى اهتمامه بذلك المستقبل : فهو تارة يحمل فى بسالة منقطعة النظير وبأس يذهل الجميع – على حشد يخطئه الحصر من أهل الجبال ويخضعهم لسلطانه . وتارة يكون هو نفسه رجلاً من أهل الجبال يقاتل معهم الروس دفاعاً عن استقلالهم . وكلما طافت بخياله صورة لشىء واضح المعالم تجلى أمام ناظريه للتو واللحظة أشخاص من موسكو يعرفهم ، وكان ساشكاب . . . يظهر بين الروس وأهل الجبال ويقاتله . بل إن السيد كابل الخياط يشارك المنتصر فى فوزه على نحو عجيب غريب ! وكان إذا تذكر فى خضم هذا كله ما لقيه فى سابق أيامه من مهانة ، وما اعتراه من ضعف . وما وقع فيه من أخطاء – لم تُسئه الذكرى ، فقد كان من الجلى أن هذه الأخطاء خليقة بألا تتكرر وهو يعيش بين تلك الجبال وهاتيك الجركسيات الفاتنات تحف به الأخطار ، أما وقد اعترف بينه وبين نفسه اعترافاً كاملاً بما وقع منه فقد انمحى كل ما تقدم من ذنوبه .

على أن ثمة رؤيا أخرى هى أغرب ما راوده جميعاً اختلطت بكل فكرة لهذا الشاب عن المستقبل . وكانت هذه الرؤيا تتعلق بامرأة . وكانت هذه المرأة تتجلى فى خياله وسط الجبال أمة جركسية معتدلة القامة لها ضفائر طوال مسترسلة وعينان عميقتا النظرات تنمان عن الخضوع والاستسلام . وقد تصور كوخاً يقوم وحيداً بين الجبال ، وقفت « هى » على عتبته تنتظر أن يعود إليها بعد أن يحل به التعب ويجلله الغبار ويسربله الدم ويكلل هامته المجد والفخار . وهو يشعر بقبلاتها وبكتفيها وصوتها العذب واستسلامها ، إنها فاتنة . ولكنها عاطلة من الثقافة جافية الطبع ، لا تعرف شيئاً من الحضارة . وهو يبدأ بتثقيفها فى ليالى الشتاء الطويلة . وهى ماهرة موهوبة ، لا تلبث أن تحصل كل ما تحتاج إليه من معارف ، ولم لا ؟ إنها مستطيعة فى سهولة بالغة أن تتعلم اللغات الأجنبية ، وأن تقرأ روائع الأدب الفرنسى وتفهمها ، ولا شك أن رواية « أحدب نوتردام » خليقة بأن تظفر منها بالإعجاب ، وهى مستطيعة أيضاً أن تتكلم الفرنسية ، ثم إنها قادرة وهى فى غرفة الاستقبال أن تظهر على السجية من العزة والكرامة فوق ما تظهره سيدة من أرفع الطبقات ، وهى تستطيع أن تغنى فى سهولة وقوة غناء جياشاً بالعاطفة فياضاً بالمشاعر ، ثم قال محدثاً نفسه : « ويحى ! ما هذا الهراء ؟ » . على أنهم كانوا قد بلغوا وقتئذ إحدى المحطات ، وكان عليه أن يبدل بزلاقته زلاقة أخرى ، وأن ينفح من قاموا على خدمته بنفحات من المال ، إلا أن خياله عاد يبحث عن هذا الهراء الذى كان قد انصرف عنه ، وسرح مرة أخرى فى الجركسيات الفاتنات والمجد وعودته إلى روسيا وقد التحق بهيئة أركان الحرب وفى صحبته زوجة جميلة ، وحدث نفسه قائلا :

« ولكن ليس ثمة وجود لهذا الشىء الذى يقال له الحب ، وما الشهرة كلها إلا نافلة من النوافل ، ولكن ما بال السبعمائة والثمانية والسبعين روبلاً ، . . والأرض

المفتوحة التى ستدر على ثروة تزيد على حاجتى طيلة عمرى ؟ على أنه ليس من الصواب أن أخص نفسى بكل هذه الثروة ، ولسوف أضطر إلى توزيعها ، ولكن على من ؟ لا بأس ، فلأعط كابل ستمائة وثمانية وسبعين روبلاً ، ثم نرى بعد ذلك ما يكون . . . » ، وعندئذ أخذت تغشى عقله أحلام مبهمة غاية الإبهام ، ولم يوقظه من هذه السنة من النوم التى تدرك الشبان الأصحاء إلا صوت فانيوشا ووقوف الزلاقة ، وأبدل بزلاقته زلاقة أخرى وواصل رحلته وهو لا يكاد يعى من أمره شيئاً ! .

وتسير به الحال على هذا المنوال فى صبيحة اليوم التالى ، فيمر بمحطات لا تختلف هى وما مرّ بها ، ويشرب الشاى كعهده ويرى الجدائل من جلد تتحرك كدأبها تحت ذيول الخيل ، ويتبادل كشأنه وفانيوشا حديثاً قصيراً ، وتراوده الأحلام الغامضة نفسها ، ويغلبه النعاس كوكده ، ويحل به ما كان يحل به من نوم يدرك الشباب الأصحاء بليل متى حل بهم التعب .

الفصل الثالث

وكانت الهموم تنزاح عن صدر أولينين كلما نأت به الرحلة عن وسط روسيا ، وبعدت الشقة بينه وبين ذكرياته عن أيامه الخالية ، واقترب المزار من القوقاز ، وكان يحدث نفسه أحياناً فيقول : سأغترب إلى ما شاء الله ، ولن أعود فأظهر فى صفوف المجتمع الراق . إن هؤلاء القوم الذين أراهم ليسوا قوماً بالمعنى المفهوم ، فما من أحد فيهم يعرفنى . وما من أحد منهم يستطيع أن يدخل فى زمرة المجتمع الراق فى موسكو الذى كنت فرداً من أفراده . أو يكشف شيئاً عن ماضى حياتى . ولن يعرف أحد من ذلك المجتمع ما أفعله وأنا أعيش بين هؤلاء القوم » .

وتملكه شعور جديد لا عهد له به قط بأنه قد تحرر من ماضيه كله ، وهو يمر بأولئك الناس الأجلاف الذين كان يصادفهم فى طريقه ، ولم يعهدهم قوماً بالمعنى الذى كان يلمسه فى أصحابه من أهل موسكو . وكان يشعر بمزيد من الحرية كلما ازدادت خشونة الناس وقلت معالم الحضارة . ومن ثمة ضايقته ستافروبول التى كان لابد له أن يمر بها ، فقد انزعج أيما انزعاج إذ رأى اللافتات وكان بعضها مكتوباً

باللغة الفرنسية نفسها ، وشاهد السيدات فى عرباتهن ، والعربات الصغيرة تمر فى السوق ، وأبصر سيداً يرتدى معطفاً وقبعة عالية يجتاز الشارع ويحملق فى المارة . وقال يحدث نفسه : « لعل هؤلاء الناس يعرفون بعض أصحابى » ، وعادت به الذكرى إلى النادى . وإلى خياطه وورق اللعب وعلية القوم . . . على أن كل شىء بعد ستافروبول كان يبعث على الرضا ،كان فطريًّا آيداً ، ولكنه جميل عليه مسحة القتال والنضال ، وأحس أولينين بسعادة فوق سعادة . وبدا له القوزاق والسائقون ونظار المحطات كافة قوماً سليمى الطوية يستطيع أن يمزح معهم ويتحدث إليهم فى غير حرج دون أن يفكر فى الطبقة التى ينتمون إليها . كانوا جميعاً من الجنس البشرى الذى كان يحبه أولينين بلا وعى منه أو شعور ، وكانوا على بكرة أبيهم يعاملونه فى ود ومحبة .

وكان قد استبدل بزلاقته عربة ذات عجلات فى ولاية القوزاق على الدون ، وغدا الجو فيما وراء ستافروبول شديد الدفء مما حمل أولينين على الاستغناء عن معطفه الثقيل فى سفره ، وكان الربيع قد أقبل وحل بأولينين يختال ضاحكاً على غير انتظار ، وعاد القوم لا يسمحون له بمغادرة قرى القوزاق بليل . وقالوا له إن السفر فى المساء محفوف بالمكاره ، وبدأ القلق يساور فانيوشا ، وكانا يحملان بندقية محشوة فى العربة ، على أن أولينين ازداد بهجة وانشراحاً ، وقص عليه الناظر فى إحدى المحطات حادثة قتل بشعة ارتكبت فى الطريق العام منذ عهد قريب ، ثم بدأ هو وعبده يصادفان بعض الرجال المسلحين ، وحدث أولينين نفسه قائلاً :

« وهكذا تبدأ المخاطر الآن ! » وظل يترقب ظهور الجبال التى يتوج الجليد هاماتها والتى سمع بها كثيراً ، وأشار السائق ، وكان من النوغاى[1] ، بسوطه ذات ليلة

---

(١) النوغاى : قوم من البدو التتر يسكنون الشمال الشرقى لبلاد القوقاز .

إلى الجبال تغشاها السحب . فتطلع أولينين بشوق ولكن الظلام كان مخيماً ، وقد اختفت الجبال فى غمرة السحب أو كادت ، واستطاع أولينين أن يميز شيئاً رمادياً أبيض كالعهن أو هو أقرب ، إلا أنه لم يستطع مع ما بذل من جهد أن يأنس شيئاً من الجمال تتسم به الجبال التى قرأ عنها الكثير وسمع الكثير . وبدت له الجبال والسحب متشابهة كل التشابه . ودار فى خلده أن الجمال الفريد المعهود فى قمم الجبال يغطيها الجليد . ذلك الجمال الذى كثيراً ما حدثه به الناس – ليس إلا وهماً كموسيقى باخ وعشق النساء ! ولم يكن يؤمن بهما . فكف عن التطلع للتمتع بمرأى هذه الجبال .

على أنه حدث فى باكورة اليوم التالى أن أيقظه الهواء الرطيب من رقاده فى عربته . فألقى نظرة فاترة إلى يمينه . وكان الصباح صحواً زاهياً لا شية فيه ، فرأى للنظرة الأولى على مسيرة عشرين خطوة منه كتلاً ضخمة ناصعة البياض رقيقة الحواشى ، وقد نقشت معالم قممها الواضحة الجلية نقشاً بارزاً فى السماء البعيدة ، فلما أدرك بعد الشقة بينه وبينها وبين السماء ، وتبين مبلغ ضخامة هذه الجبال ، وأحس بذلك الجمال الذى لا يعرف حداً – خشى أن يكون ما تجلى له ليس إلا وهماً أو حُلْماً من الأحلام . فهز نفسه ليوقظها ، إلا أن الجبال ظلت قائمة على ما هى عليه .

وقال للسائق : « ما هذا ؟ ما هو ؟ »

فأجابه السائق الذى من قوم النوغاى فى غير اكتراث : « وى ! إنها الجبال » .

وقال فانيوشا : « لقد ظللت أنظر إليها أنا أيضاً مدة طويلة ، أليست رائعة ؟ لن يصدق أحد من أهل بلدى أنها كذلك » .

وكانت السرعة التى تطوى بها العربة الطريق السهل اللين قد جعلتها تبدو للرائى

وكأنها تجرى على طول الأفق ، فى حين كانت قممها الوردية تتألق فى ضوء الشمس الطالعة ، ولم يكن من أولينين إلا أن تولته الدهشة عندما وقع نظره عليها لأول مرة ، ثم لم يلبث أن تملكه السرور والانشراح . إلا أنه أخذ من بعد ينعم النظر أكثر وأكثر فى هذه السلسة من الجبال التى توجها الجليد ، ولم تنهض من خلف جبال أخرى سوداء ، بل نبتت من السهل بلا عوج . وانسابت منحدرة حتى اختفت فى رحاب الأرض . وراح يستوعب هذا الجمال رويداً رويداً وأحس فى النهاية بوجود تلك الجبال ، ومن هذه اللحظة اتسم كل ما كان يراه ويفكر فيه ويشعر به بطابع جديد صارم فى جلاله كالجبال نفسها ! وغابت جميع ذكرياته عن موسكو وانمحى ما كان يشعر به من خجل وندم ، وتلاشت أحلامه التافهة عن القوقاز إلى غير عودة . وبدا كأن صوتاً رزيناً يهتف به قائلاً : « لقد بدأت حياتك الآن » . ذلك أن الطريق ، ونهر ترك الذى أخذ لتوه يلوح للناظر عن بعد . وقرى القوزاق وأهله – كل أولئك قد كف عن أن يظهر له بمظهر الدعابة أو الأضحوكة ، وراح ينظر إلى السماء ويتذكر الجبل ، وينظر إلى نفسه أو إلى فانيوشا فيرتد فكره مرة أخرى إلى الجبال . . . ويمر به اثنان من القوزاق تتأرجح بندقيتاهما على ظهريهما تأرجحاً مريباً ، ويمتزج اللون الأبيض واللون الأحمر الضارب للسمرة لسيقان جواديهما امتزاجا يختلط فيه اللونان . . . ثم الجبال ! ويرتفع الدخان من قرية من قرى الججنى[1] فيما وراء نهر ترك . . . ثم الجبال ! وتسطع الشمس المشرقة على نهر ترك وهو ينساب بين أعواد القصب . . . ثم الجبال ! وتأتى من القرية عربة تجرها الثيران ، وتمر نساء شابات حسان . . . ثم الجبال ! وها هم أولاء الأبرك[2]

---

(١) مجموعة من الأقوام عدتهم ٣٠٠,٠٠٠ نسمة يسكنون شمالى القوقاز .

(٢) وهم الججنى الأعداء الذين عبروا الضفة الروسية لنهر ترك بغية السلب والنهب .

(الشيشيون المعادون) يضربون من حولنا فى السهل ، وهأنذا أركب العربة ماضياً فى طريق لا يعترينى خوف منهم ؛ فقد كنت مزوداً ببندقية وبالقوة والشباب . . . ثم الجبال !

الفصل الرابع

كان ذلك الجزء بأسره من خط نهر ترك (حوالى ٨٠ فيرستاً) الذى تقوم على طوله قرى القوزاق الكريبن متجانساً فى طبيعة أرضه وسكانه . ولا يزال نهر ترك الذى يفصل القوزاق عن القبائل الجبلية يجرى عكراً مسرعاً ، وإن كان من قبل عريضاً رفيق السير ، يترك دائماً على ضفته اليمنى المنخفضة الممتلئة بالقصب رواسب من رماله ضارية إلى السمرة ، وتغمر مياهه الضفة اليسرى الوعرة القليلة الارتفاع بما فيها من جذور شجر السنديان الذى مضى عليه قرن من الزمان ، وشجر الدلب العفن وشجيرات الأدغال الفتية .

وعلى الضفة اليمنى قرى الججن المسالمين ، وإن كان لا يزال ينتابهم شيء من القلق ، أما قرى القوزاق فتكتنف الضفة اليسرى على مسيرة نصف فيرست من النهر ، وتبعد كل قرية عن الأخرى سبعة فيرستات أو ثمانية . وكان معظم هذه القرى فى الأيام الغابرة على ضفة النهر . إلا أن نهر ترك كان ينأى بمجراه عن الجبال صوب الشمال سنة بعد أخرى . ويغمر الشاطئ . حتى أصبح لا يحف به اليوم

إلا أطلال القرى القديمة وبساتين من الكمثرى والخوخ وأشجار الحور ، وقد طغى عليها جميعاً العليق والكروم البرية . وأصبح لا يقيم فيها أحد ولا يرى المرء فيها إلا آثار الأيل والذئاب والأرانب البرية والدراريج التى أحبت هذه الأماكن ، ويشق الغابة من قرية إلى قرية طريق ينطلق انطلاقة قذيفة المدفع . ويقوم على طول الطرق نطاقات من القوزاق وأبراج للمراقبة مزودة بالحراس . ولا يملك القوزاق إلا شريطاً ضيقاً من الأرض يبلغ نحو سبعمائة ياردة من الأرض الخصيبة الشجراء . وإلى الشمال من هذا الشريط تبدأ كثبان الرمال التى يملكها النوغاى . وهى تعرف أيضاً بفيافى مزدك . وتمتد موغلة فى الشمال . وتسير إلى ما شاءالله . حتى تدخل فى أراضى التركمان فى استراخان وفيافى قرغيزكيسك . وتقوم إلى الجنوب وراء نهر ترك جبال ججنية الكبرى وسلسلة جبال كوجكاليكوفسكى والجبال السوداء . وهى سلسلة جبال أخرى . ثم تلى ذلك آخر الأمر جبال الجليد التى يراها المرء أو يكاد وإن كان لم يتبين معالمها قط أحد بعد . وقد سكن هذه الرقعة الخصيبة الشجراء المخضوضرة منذ أقدم ما تعى الذاكرة من أزمان قبيلة روسية نزاعة للقتال ذات وسامة ورخاء تنتمى إلى فرقة المؤمنين الأولين[١] وتعرف بقبيلة كريبن القوقازية .

وكان أجدادهم من المؤمنين الأولين قد هربوا من روسيا منذ أقدم العصور ، واستقروا فيما وراء نهر ترك بين الججن على جبل كريبن ، وهو أول سلسلة شجراء من جبال ججنية الكبرى ، وأقام هؤلاء القوزاق بين الججن وتصاهروا ، وتطبعوا بطباع قبائل الجبال وعاداتهم ، وإن كانوا احتفظوا باللغة الروسية نقية لا تشوبها شائبة ، كما احتفظوا بمذهبهم القديم ، وتقول رواية لا تزال حية فى أذهانهم : إن

---

(١) المؤمنون الأولون : اسم أطلق بصفة عامة على الطوائف التى انفصلت عن الكنيسة الروسية اليونانية فى القرن السابع عشر .

إيفان المرعب جاء إلى نهر ترك وأرسل فى طلب شيوخهم ، ووهب لهم الأرض التى على هذا الجانب من النهر ، وحثهم على أن يظلوا على ولائهم لروسيا ، ووعدهم بألا يشملهم بحكمه أو يحملهم على تغيير مذهبهم ، ولا تزال أسر القوزاق حتى هذا اليوم تزعم أنه يربطها بالججن صلة النسب ، ولا يزال حب الحرية والفراغ والنهب والقتال شميتهم الكبرى ، ولا يظهر من النفوذ الروسى إلا جانبه البغيض . كالتدخل فى الانتخابات ومصادرة أجراس الكنائس وجنود الروس الذين يعسكرون فى هذه البلاد أو يجوسون خلالها .

والقوزاقى يميل بطبعه إلى أن يضمر من الحقد للزغيتى[١] من أهل الجبال الذى قد يكون قتل أخاه ، أقل مما يضمر للجندى الذى يهبط عليه للدفاع عن قريته ، ولكنه يلوث كوخه بدخان طباقه ، وهو يحترم عدوه الجبلى ، ويحتقر الجندى وينظر إليه نظرته إلى دخيل باغ يستبد به .

والحق أن الفلاح الروسى فى رأى القوزاق مخلوق أجنبى همجى محتقر ، يرى صورته فى الباعة الجائلين الذين يفدون إلى بلاده ، وفى الروس الصغار المهاجرين الذين يطلق عليهم القوزاق اسم « نادفى الصوف » تحقيراً لهم ، والأناقة عند القوزاق هى أن يحاكى المرء فى لباسه الجركسى ، وأحسن الأسلحة يحصلون عليها من أهل الجبال ، وأجود الخيل يشترونها أو يسرقونها منهم ، ويحب الشاب الجسور من القوزاق أن يفخر بمعرفته اللغة التترية ، وهو إذا حضر وليمة للشرب واللهو تحدث بهذه اللغة حتى مع إخوانه القوزاق .

وبالرغم من كل هذه الأمور فإن تلك العشيرة المسيحية الصغيرة ، المعزولة فى

---

(١) الزغيتى بين الججن : يكاد ينزل منزلة المقاتل الشجاع بين الهنود الحمر ، وكلمة الزغيتى ترتبط ارتباطاً لا ينفصم بفكرة البراعة فى الفروسية .

ركن صغير من أركان الأرض ، تحيط بها القبائل المسلمة المتبدية كما يحيط بها الجنود – تعتبر نفسها على حظ عظيم من الرق . ولا تعترف بأحد من البشر إلا بالقوزاق ، وتحتقر كل من عداهم ، وينفق القوزاق جل وقته فى النطاق العسكرى يقاتل أو يقنص أو يصيد السمك ، وقلما يشتغل فى المنزل ، وهو إذا بقى فى قريته كان ذلك استثناءً من القاعدة العامة ؛ إذ إنه يكون عندئذ فى إجازة يستمتع بها . والقوزاق جميعاً يصنعون خمرهم الخاصة بهم ، وليس السكر عندهم نزعة عامة بقدر ما هو شعيرة من الشعائر ، من ينكص عن أدائها يعد مرتداً مارقاً ، والمرأة فى نظر القوزاق أداة لفلاحه ، واللهو من حق الفتيات غير المتزوجات فحسب ، أما المرأة المتزوجة فعليها أن تعمل من أجل زوجها من وقت شبابها حتى تطعن فى السن ، وهو يطالبها بما يطالب الشرق زوجته عادة من الطاعة والعمل ، وتنشأ النساء نتيجة لهذه النظرة نشأة قوية سواء من ناحية الجسم أو من ناحية العقل ، ولهن بالرغم من خضوعهن لأزواجهن فى الظاهر كغيرهن من النساء فى جميع بلاد الشرق – نفوذ أعظم وشأن أكبر من الغربيات فى الحياة العائلية ، واعتزال النساء الحياة العامة ، وتعودهن أعمال الرجال الشاقة يزيدان من قوتهن ومن شأنهن فى الأسرة .

والقوزاق يعد الحديث مع زوجته أمام الغرباء بعبارات الود والمحبة أو فى غير ما تدعو إليه الحاجة عملاً لا يليق ، أما إذا انفرد بها فإنه يدرك على غير وعى منه مقدار سيطرتها . ذلك أن منزله وما يملك ، بل بيت الأسرة بما يشتمل عليه جميعاً – كل أولئك هى التى حصلت عليه ولمت شمله بفضل جهادها وعنايتها .

ويؤمن القوزاق إيماناً راسخاً بأن العمل يحط من قدره ، وأنه لا يليق إلا بعامل من النوغاى ، أو بامرأة ، ومع ذلك فهو يدرك إدراكاً غامضاً أن كل ما يستعمله

أو يقول إنه يملكه – إنما هو ثمرة ذلك الجهاد ، وإن فى استطاعة المرأة (سواء أكانت أمه أم زوجته) التى يعدها أمته – أن تحرمه كل ما يملك .

ثم إن قيام نساء الكريبن بأعمال الرجال الشاقة باستمرار وتحملهن المسئوليات التى ألقيت على عاتقهن قد طبعا أولئك النساء بطابع استقلالى خاص لا نعهده إلا فى الرجال ، ونمّى فيهن إلى حد عجيب القوة البدنية وحسن الإدراك والعزم والثبات .

والنساء فى معظم الأحوال أقوى من الرجال وأشد منهم ذكاءً وأكثر نضجاً ووسامة ، ومن السمات البارزة للحسن فى المرأة عند الكريبن أنها تجمع بين سحنة الوجه الجركسى الخالص والبنيان العريض القوى المعهود فى نساء الشمال ، وترتدى نساء القوزاق الثياب الجركسية ، وهى قميص تترى وصدرة ذات أكمام يقال لها البشمت ، وخف رخص . إلا أنهن يربطن مناديلهن حول رءوسهن على الطريقة الروسية . والبراعة والنظافة والأناقة فى الملبس وفى ترتيب أكواخهن عادة عندهن وضرورة ، وللنساء وبخاصة الفتيات غير المتزوجات مطلق الحرية فى علاقاتهن بالرجال !

وتعتبر قرية نوفوملينسكايا قلب المملكة القوزاقية الكريبنية . فقد احتفظت أكثر من أى مكان آخر بعادات الكريبن الأولين ، وقد اشتهرت نساؤها بالحسن ، فى طول القوقاز وعرضها ، من أقدم الأزمان .

والقوزاق يعتمد فى معاشه على الكروم وبساتين الفاكهة ، والبطيخ ، ومزارع القرع ، وصيد الأسماك والقنص ، وزراعة الحنطة والدخن . وغنائم الحرب . وقرية نوفوملينسكايا على مسيرة ثلاثة فيرستات أو نحوها من نهر ترك . وتفصلها عنه غابات كثيفة ، والنهر على جانب من الطريق الذى يخترق القرية . وتقوم على جانبه

الآخر كروم خضر وبساتين يشاهد المرء فيما وراءها كثبان فيافى نوغاى ، وتحيط بالقرية الطوابى وأسيجة التوت الشوكى ، ويلج إليها الداخل من باب طويل يرتكز على عمودين ، يغطيه سقف صغير من القصب . وإلى جواره مدفع ضخم تحمله عربة مدفع خشبية ، كان القوزاق قد استولوا عليه فى وقت من الأوقات ، وبقى عاطلاً منذ مائة عام ، وثمة حارس من القوزاق يحمل الخنجر والبندقية ، يقف حيناً للحراسة بجانب الباب ولا يقف حيناً آخر ، ويرفع السلاح تارة تحية لضابط يمر به ، ولا يرفعه تارة أخرى .

وقد كتب تحت سقف المدخل ، بحروف سوداء على (لوحة) بيضاء : عدد المنازل ٢٦٦ ، وعدد الذكور من السكان ٨٩٧ ، وعدد الإناث ١٠١٢ ، وترتفع منازل القوزاق جميعاً على أعمدة تعلو عن الأرض قدمين أو ثلاثاً . وقد سقفت فى عناية بالقصب ، ولها سقوف هرمية كبيرة منحوتة ، وهذه المنازل ليست جديدة ومع ذلك فهى على الأقل مستقيمة نظيفة بلا استثناء ، لها أروقة مرتفعة ، متباينة الشكل . ولم تشيد بحيث يلاصق الواحد منها الآخر ، بل تركت بينها مسافة كافية . وهى تقوم جميعاً وسط منظر رائع على طول الشوارع والدروب العريضة . وقد غرست أمام النوافذ الكبيرة لكثير من المنازل وفيما وراء الأسيجة أشجار الحور الخضر الداكنة وأشجار السنط بخضرتها الشاحبة الرقيقة وزهرها الأبيض العطر الذى علا المنازل ، ونما فى جوارها عباد الشمس الأصفر الكالح الوجه والمتسلقات والكروم .

وكانت فى الميدان الواسع المكشوف ثلاثة حوانيت تبيع المنسوجات وعباد الشمس وبذور القرع ، وفول الخرنوب وخبز الزنجبيل ؛ كما قام مسكن قائد الفرقة بنوافذه ذات الإطار خلف صف من شجر الحور الطويل ، يحيط به سياج عال أشمخ وأكبر من أسيجة المنازل الأخرى ، ولا يرى المرء فى شوارع القرية فى أيام

الراحة إلا قليلاً من الناس ، وخاصة فى الصيف . فالشباب يقومون بنوبتهم فى النطاقات العسكرية أو يخرجون فى الحملات العسكرية . والشيوخ يصيدون السمك أو يساعدون النساء فى الحدائق والبساتين ، ولا يقعد فى البيوت إلا الشيوخ الطاعنون فى السن والمرضى والأطفال .

الفصل الخامس

كانت الليلة من تلك الليالى النادرة التى لاتعهدها إلا فى القوقاز فحسب ، وقد توارت الشمس خلف الجبال ، إلا أن الضوء كان لا يزال يشع فى الأرجاء ، وقد انتشر نور الغسق المتورد ، فأضاء ثلث رقعة السماء ، ووضحت ضخامة الجبال وبياضها الكامد وضوحاً بيناً من خلال هذا الضوء ، وكان الهواء خفيفاً ساكناً مليئاً بالأصوات ، وامتد ظل الجبال بضعة فيرستات فوق السهب ، وكان السهب والجانب الآخر من النهر والطرق مقفرة جميعاً ، فإذا حدث من قبيل المصادفة النادرة أن ظهر رجال يمتطون صهوة جيادهم – أخذ القوزاق فى النطاق العسكرى والججن فى قراهم يراقبونهم فى فضول ممزوج بالدهشة ، ويحاولون أن يحذروا من يكون هؤلاء الرجال الذين يدعو أمرهم للريبة والشك ؟

وما إن يجن الليل حتى يأوى القوم إلى مساكنهم ، وكل منهم يخشى أخاه ، ولا يبقى إلا الطيور والوحوش تجوب خلال الأماكن المقفرة بلا خوف من الناس . وتهرع النساء قافلات من البساتين قبل أن تغرب الشمس ، وقد كن يربطن الأعناب

ويتبادلن الحديث مرحات مسرورات . وتقفر الكروم . شأنها فى ذلك شأن كل شيء فى الناحية المحيطة بها . إلا أن القرى تنشط نشاطاً عظيماً فى هذا الوقت من المساء . فالناس يقصدون القرية من كل حدب وصوب . سائرين على أقدامهم . أو ممتطين صهوة جيادهم أو سائقين عرباتهم المقعقعة . وتركض الفتيات وقد شمرن قمصانهن وحملن الغصون فى أيديهن ، ورحن يتبادلن الحديث فرحات جذلات متجهات إلى أبواب القرية ليلتقين هن والماشية المحشودة تغشاها غمائم من الغبار والبعوض جاءت به من السهب ويهيم البقر والجاموس الذى عى بتغذيته على غير هدى فى الشوارع .

وتسير نساء القوزاق فى صداراتهن الملونة رائحات غاديات تمتزج ضحكاتهن المرحة وصرخاتهن بخوار الماشية . ويهم قوزاقى مسلح هناك بمغادرة النطاق بعد أن انتهت نوبته . ويركب جواده ميمماً شطر منزل من المنازل . ثم يميل على جواده ويطرق نافذة المنزل . فيطل من النافذة رأس وسيم لفتاة تستجيب لطرقاته . ثم تسمع أصواتٌ ضاحكة تتداعب . ويأتى عامل من النوغاى مهلهل الثياب . برزت عظام خديه . بحمل قصب من السهوب . ويدخل عربته المقعقعة إلى فناء قائد القوزاق العريض النظيف . ويرفع النير عن الثيران فتأخذ فى تطويح رءوسها ، على حين شرع هو وسيده يصيح كل منهما مخاطباً الآخر بالتترية .

وكان ثمة بركة ماء أخذت تتسع عاماً بعد عام حتى بلغت الجانب الآخر من الشارع أوكادت . ولم يكن أحد ليستطيع أن يلم بها إلا إذا تعلق بالأسيجة . وجاءت امرأة قوزاقية حافية القدمين تحمل حملاً من الحطب على ظهرها وتشق طريقها شقًا وقد شمرت قميصها فكشفت عن ساقين بيضاوين . وصاح بها قوزاقى عاد من القنص مازحاً : « أشمريه فوق ما شمرت يا فاجرة ! » وسدد نحوها بندقيته

فأرخت المرأة قميصها وفلت عنها حمل الحطب . وأقبل شيخ قوزاقى عائداً إلى داره بعد صيد السمك وقد شمر سرواله وكشف عن صدره الأشيب الملىء بالشعر . وحمل على كتفه شبكة حافلة بالسمك الفضى الذى كان لا يزال يضطرب محاولا الخلاص . وأراد أن يختصر الطريق فتسلق سياج جاره المكسور . فعلقت سترته بالسياج وهو يفعل هذا . وكان هناك امرأة تجر وراءها فرعاً جافًا من فروع الشجر . وانطلق من ركن الطريق صوت فأس . وكان أطفال القوزاق يتصايحون وهم يديرون دواماتهم كلما وجدوا مكاناً أملس فى الطريق . كما كانت النسوة تتسلق الأسيجة إلى منازلهن متحاشيات الالتفاف حولها . وارتفع من كل مدخنة دخان الكزياك [1] العطر . وراح يصدر عن كل بيت صوت حركة متزايدة إيذاناً بما يعقب ذلك من سكون الليل .

وتخرج السيدة أولنيكا . وهى زوجة حامل علم قوزاقى يعمل مدرساً أيضاً . إلى أبواب الفناء من دارها . شأنها فى ذلك شأن النساء الأخريات . وتنتظر الماشية التى تسوقها ابنتها ماريانكا مجتازة بها الطريق . وتندفع جاموسة ضخمة . فى غمامة من البعوض . فتحشر نفسها حشراً وهى تخور فى باب السياج المصنوع من الغصون المضفرة قبل أن يتسع للسيدة أولنيكا الوقت تماماً لفتحه . وتتبعها بعض البقرات السمينة فى بطء وهى ترمق سيدتها بنظرة من عيونها الكبيرة للتدليل على أنها تعرفها . وتهش على جوانبها بذيولها .

وتدخل ماريانكا الجميلة الممشوقة القوام من الباب . وتلقى بالغصن الذى كان فى يدها . ثم تصفق الباب بسرعة وتهرع بكل ما فى قدميها الخفيفتين من سرعة لتفرق بين الماشية وتقودها إلى حظائرها . وتصيح بها أمها : « اخلعى خفك يا ربيبة

(١) الكزياك : وقود من روث البهائم الجاف .

الشيطان ! فإنك بلا شك مبليته حتى تدركه الثقوب ! » ولم يسئ ماريانكا قط أن تدعوها أمها بربيبة الشيطان . بلى تأخذ هذا القول منها على أنه إعزاز وتدليل . وتواصل عملها فى بهجة وسرور . وقد غطت وجهها بمنديل ربطته حول رأسها . وارتدت قميصاً ورديًا وصديرة خضراء . واختفت داخل الحظيرة المنحدرة السقف التى فى الفناء مقتفية أثر الماشية السمينة الكبيرة . وينطلق من الحظيرة صوتها وهى تحادث الجاموسة فى رفق وإلحاح قائلة لها : « هلا وقفت ساكنة ! يالك من مخلوقة ! هلمى . هلمى أيتها الصديقة العزيزة ! »

وسرعان ما خرجت الفتاة وأمها العجوز من الحظيرة إلى ملحق الدار حاملتين قدرين كبيرتين من اللبن هما نتاج اليوم . وتتصاعد من مدخنة ملحق الدار غمامة رقيقة من دخان الكزياك . ذلك أنهما كانتا تصنعان من اللبن القشدة المتخثرة . وتحمى الفتاة النار . وتشخص أمها إلى الباب . وكان الغسق قد لف القرية بردائه . وامتلأ الجو برائحة الخضر والماشية ودخان الكزياك العطر . وأخذت نساء القوزاق يسرعن فى الطرقات حاملات بعض الخرق المشتعلة . ويسمع المرء من الأفنية نخير الماشية وعضها على اللجام فى هدوء وقد خف عنها ما كان يثقل ضروعها من لبن . أما فى الأفنية وفى الشارع فقد انقطعت الجلبة . وعاد المرء لا يسمع إلا أصوات النساء والأطفال يتنادون . وكان من النادر أن تسمع صوت سكير فى يوم من أيام الراحة الأسبوعية .

وتقبل من المنزل المقابل إحدى الزوجات القوزاقيات . وهى امرأة طويلة القامة عجوز عليها سيماء الرجال . وتقترب من السيدة أولتيكا تلتمس منها ناراً ، وقد حملت فى يدها خرقة .

– مرحى ! أو قد فرغت من عملك ؟

وتقول السيدة أولتيكا وهى تفخر بقدرتها على إسداء يد إلى جارتها : « إن الفتاة تشعل النار ، أتريدين ناراً ؟ »

وتدخل المرأتان الكوخ ، وقد أخذت يدان صلبتان لم تألفا تناول الأدوات الصغيرة فى رفع الغطاء مرتعشتين عن صندوق أعواد الثقاب الثمين ، وهو نادر فى بلاد القوقاز ، وتجلس الوافدة البدينة التى عليها سيماء الرجال على عتبة الدار ، وقد وضحت نيتها فى تبادل الحديث .

وتسأل المرأة السيدة أولتيكا : « أين زوجك . . ؟ هل هو فى المدرسة ؟ »

وتجيبها السيدة أولتيكا : « أجل . إنه يقضى وقته دائماً فى تعليم الصغار ، ولكنه كتب يقول : إنه سيعود ليقضى العيد هنا » .

« ياله من رجل بارع ، وكل ما يفعله ينتهى إلى الخير ! » .

« إنه لكذلك بلا شك »

وقالت الزائرة : وإن كان ما ذكرته معلوماً لدى السيدة أولتيكا منذ وقت طويل – « فإن ابنى لوكاشكا فى النطاق العسكرى ، ولم يسمحوا له بالعودة إلى بيته » ، وكانت المرأة تريد أن تتحدث عن ابنها لوكاشكا الذى أعدته أخيراً للخدمة فى الفرقة القوزاقية ، وكانت تريد أن تزوجه ماريانكا ابنة السيدة أولتيكا .

« هو إذن فى النطاق العسكرى ؟ »

« أى نعم ، ولم يعد إلى المنزل منذ العيد السابق ، وقد بعثت إليه ببعض القمصان منذ أيام مع فوموشكين وأنبأنى فوموشكين أنه بخير ، وأن رؤساءه راضون عنه ، ثم قال إنهم عادوا يلتمسون الأبركة مرة أخرى ، وإن لوكاشكا سعيد جداً »

فقالت زوجة حامل العلم : « نحمد الله على ذلك ! إن « أورفان » أى « المتنشل » هى حقاً الصفة (الوحيدة) التى تليق به » ذلك لبسالته فى انتشال غلام

كان على وشك الغرق من الماء ، وكانت السيدة أولتيكا تشير إلى هذا راغبة هى الأخرى أن ترد تحية أم لوكاشكا بشىء يسر خاطرها .

وقالت أم لوكاشكا : « أحمد الله على أنه ابن بار ! إنه لفتى شجاع يثنى عليه الجميع ، وكان ما أتمناه هو أن أزوجه ثم أموت راضية مطمئنة »

وسألتها السيدة أولتيكا الذكية الأريبة وهى ترد غطاء صندوق الثقاب إلى موضعه بيديها الصلبتين فى عناية فائقة « أليس فى القرية كثيرات من الفتيات ؟ »

فقالت أم لوكاشكا وهى تهز رأسها : «كثيرات ،كثيرات . . ولكن حسبى بابنتك ماريانكا ، فهى ذلك الطراز من الفتيات الذى أريد ، وليس فى الناحية بأسرها فتاة مثلها ! »

وكانت السيدة أولتيكا تعلم ما ترمى إليه أم لوكاشكا . ولكنها ترددت فى الأمر بالرغم من اعتقادها أن لوكاشكا قوزاقى طيب ، ذلك أنها كانت أولا زوجة حامل علم ميسورة الحال ، أما لوكاشكا فكان ابن قوزاقى يسير الحال يتيم الأب ، وثانياً لأنها لم تكن تريد أن تفترق عن ابنتها بعد . ولكن السبب الأكبر لترددها هو أن ذلك كان أمراً يقتضيه واجب اللياقة .

وأجابت السيدة أولتيكا المرأة فى رزانة وتواضع : « لسوف تكون ماريانكا أهلا للزواج أيضاً متى كبرت » .

وقالت أم لوكاشكا : « سأرسل الخطاب إليك . سأرسلهم ! وما إن تسوى لنا الأمر حتى تأتيك ونقدم إليك احترامنا . ونقدم احترامنا أيضاً إلى إيليا فاسيليفتش »

وأجابتها زوجة حامل العلم فى زهو : إيليا . حقًا ! إنما يجب أن تتوجهى إلىّ . والأمور مرهونة بأوقاتها .

وتتبين أم لوكاشكا من وجه زوجة حامل العلم الصارم أن الوقت غير مناسب .

لأن تضيف إلى ما قالته شيئاً . فتشعل حزمتها بعود الثقاب وتقول وهى تنهض واقفة : « لا ترفضينا . وتذكرى ماقلته . والآن يجب أن أرحل ، فقد حان موعد إيقاد النار »

ثم تعبر الطريق وهى تطوح حزمتها المشتعلة . فتلقى ماريانكا . فتنحى لها الفتاة .

وتقول أم لوكاشكا محدثة نفسها وهى تنظر إلى الفتاة الجميلة ! « تا لله إنها لملكة لا ينقصها شىء ! وعاملة مجدة . فأى حاجة إلى الانتظار حتى يشتد عودها أكثر مما اشتد ؟ ولقد آن الأوان لزواجها ودخولها فى أسرة كريمة . وأن تتزوج لوكاشكا ! »

غير أن السيدة أولتيكا كانت لديها مشاغلها الخاصة . فظلت جالسة على عتبة الدار . تفكر مليًا فى أمر من الأمور : حتى تناديها الفتاة .

الفصل السادس

كان الرجال من أهل القرية ينفقون وقتهم فى الحملات العسكرية وفى النطاق العسكرى ، أو فى نقط الحراسة كما يقول القوزاق . وما إن أوشك المساء أن يحل حتى كان لوكاشكا — ذلك «النتشل» ، الذى كانت تتحدث عنه المرأتان المسنتان — واقفاً فى برج للحراسة من أبراج نقطة «نزنه بروتوتسكى» التى تقوم على ضفتى نهر ترك تماماً ، وكان يميل على سياج البرج ويزر عينيه ثم يلقى ببصره تارة إلى الفضاء الممتد أمامه فيما وراء نهر ترك وتارة إلى زملائه القوزاق الذين يقفون تحته ويبادلهم كلمة بين الحين والحين .

وكانت الشمس تقترب بالفعل من سلسلة الجبال المكللة بالجليد ، التى كانت تتلألأ باللون الأبيض فوق السحب القائمة كالعهن ، وأخذت السحب المتماوجة عند سفح الجبال تزداد دكنة فوق دكنة ، وكان صفاء المساء واضحاً فى الجو ، ومرت من الغابات نفحة من الطراوة والأنسام الرطبة . وإن كان الجو حول نقطة الحراسة لا يزال حارًّا ، وكانت أصوات القوزاق الذين يتجاذبون أطراف الحديث تهتز

اهتزازاً اشتد رنينه عن ذى قبل . وقد بدا أنها أخذت تتلبث فى الجو . وكان التباين أشد وضوحاً بين الكتلة المتحركة لمياه نهر ترك السريعة السمراء وبين شاطئيه الجامدين الساكنين . وبدأت هذه المياه فى الهدوء والاستكانة . وكنت ترى الرمال المبتلة هنا وهناك تلمع فى لون سنجابى على ضفتى النهر وفى المواضع الضحلة ، أما الجانب الآخر من النهر أمام نقطة الحراسة تماماً فقد كان مقفراً لا ترى فيه إلا برية متسعة الأرجاء نما فيها القصب القليل الارتفاع وامتد حتى سفوح الجبال نفسها ، وترى على الضفة المنخفضة ، على بعد قليل من ناحية منها ، المنازل المسطحة الأسقف المصنوعة من اللبن والمداخن القمعية الشكل لقرية من قرى الججن ، وكانت العينان النافذتان للقوزاق الذى يتولى الحراسة فى برج المراقبة – تتتبعان من ثنايا دخان المساء الذى تصاعد من القرية الآمنة – الأشباح الصغيرة المتحركة لنساء الججن تبدو واضحة من بعيد بملابسها الحمراء والزرقاء .

وكان القوزاق يتوقعون أن يعبر الأبركة النهر ويهاجموهم من الجانب التترى فى أية لحظة . وخاصة أن الشهر كان شهر ما يو الذى تكثف فيه الغابات التى تكتنف النهر بحيث يتعذر اجتيازها سيراً على الأقدام . ويضمحل ماؤه فى بعض المواضع حتى يسهل على الفارس أن يخوضه ، وكان رجل من القوزاق قد وصل منذ بضعة أيام يحمل منشوراً من قائد الفرقة يعلن فيه القوم أن بعض الكشافة أبلغوه أن فى نية نفر من ثمانية رجال أو نحو ذلك عبور نهر ترك . ويأمرهم باليقظة والسهر فى غيابه خاصة ، ولم يكن رجال النطاق العسكرى يولون الأمر مثل هذه العناية ، فقد تجرد القوزاق من سلاحهم وأنزلوا السروج عن جيادهم . كأنهم فى ديارهم ، وكان فريق منهم يقضى وقته فى صيد السمك ، وفريق فى الشراب ، وفريق فى القنص ، وإنما كان جواد الرجل الذى عليه النوبة مسرجاً ، وقد قيدت قوائمه ، فأخذ يتخطر

جاثلا بين أشجار العليق قرب الغابة ، وكان الحارس هو الرجل الوحيد من دونهم الذى يرتدى سترته الجركسية ويحمل بندقية وسيفاً ، وكان الأومباشى –و هو رجل نحيف مبسوط القامة ، له ظهر طويل إلى حد عجيب ويدان صغيرتان وقدمان مثلها – يجلس على مصطبة الكوخ وقد فك أزرار صدرته . وبدا على وجهه سيما الكسل والسأم المعهودين فى الرؤساء . وأغلق عينيه . ثم ترك رأسه يستريح على راحة يد ثم على راحة اليد الأخرى . واستلقى شيخ من القوزاق . ذو لحية عريضة سوداء ضاربة إلى اللون السنجابى ، ويرتدى قميصاً له حزام من الجلد الأسود ، على جانب النهر ، وأخذ يحدق فى تكاسل فى أمواج نهر ترك وهى تدور أمامه دوراناً رتيباً يبعث فى النفس الملالة والسأم ، واستبد الحربغيره من رجال القوزاق فخففوا عنهم ملابسهم وأخذوا يغسلونها فى النهر أو يجدلون اللجم أو يترنمون بالألحان وهم منبطحون على الرمال الساخنة لضفة النهر ، وكان ثمة قوزاق ذو وجه نحيف لوحته الشمس حتى اسود لونه قد استلقى قرب الكوخ ، والظاهر أنه كان قد أفرط فى الشراب حتى فقد الوعى ، ذلك أن الجدار الذى استلقى بجانبه قد تعرض لأشعة الشمس المائلة المحرقة بعد أن كان فى الظل منذ ساعتين .

وكان لوكاشكا الذى وقف للحراسة فى برج المراقبة – فتى طويل القامة وسيماً فى نحو العشرين من عمره يشبه أمه شبهاً كبيراً ، وقد دل وجهه ، بل قوامه كله ، بالرغم من الضمور المعهود فى الشباب – على قوة عظيمة بدنية وخلقية معاً ، وكان قد التحق بالقوزاق الذين فى الجبهة منذ عهد قريب . إلا أن ملامح وجهه والثقة الرصينة التى بدت من هيئته كانتا تشهدان بأنه قد اكتسب بالفعل تلك السمة العسكرية الممزوجة بالعزة والفخار المعهودة بصفة خاصة فى القوزاق ومن ألف من الناس عامة حمل السلاح ، وأنه كان قوزاقيًّا يدرك قيمته كل الإدراك ، وكانت

سترته الجركسية الفضفاضة ممزقة فى بعض المواضع وقد وضع قبعته على مؤخر رأسه على طريقة الججن ، وتدلى طاقه إلى ما تحت ركبتيه ، ولم يكن لباسه فاخراً إلا أنه كان يرتديه بتلك العجلة التى عرفت عن القوزاق ونشأت من تقليدهم « لزغيث الججن » وذلك أن كل ما يرتديه الزغيثى فضفاض ممزق مهمل ، وإنما أسلحته هى الثمينة ، على أن هذه الملابس الممزقة وهذه الأسلحة يتمنطق بها ويرتديها على نحو خاص ويوفق بينها بطريقة خاصة لا يستطيع إنسان أن يحذو حذوه فيها ، وهى تسترعى فى الحال انتباه القوزاقى أو رجل الجبال ، وكان لوكاشكا يشبه الزغيثى من هذه الناحية ، فقد أسند يديه على سيفه ، وأرخى جفونه حتى كاد يغمض عينيه ، وظل يحدق النظر فى القرية البعيدة ، ولو أنك نظرت إلى قسماته كلٌ على حدة لوجدتها عاطلة عن الحسن ، إلا أن من يرى هيئته اللطيفة ووجهه الذكى الشديد السمرة لا يملك إلا أن يهتف : « ياله من فتى وسيم ! »

وقال لوكاشكا فى صوت حاد وقد كشف فى تكاسل عن أسنانه البيض البديعة غير موجه الخطاب إلى أحد بعينه : « انظر إلى النساء فما أكثر عدد من تجول منهن فى القرية » ، إلا أن نازاركا الذى كان على الأرض من تحته لم يلبث أن رفع رأسه قائلا :

« لا شك أنهن يسعين فى طلب الماء »

فقال لوكاشكا وهو يضحك : « هب أننى روعتهن بطلقة ، ألا يكون ذلك كفيلاً بإلقاء الفزع فى قلوبهن ؟ »

— لن تصل طلقتك إليهن !

فقال لوكاشكا ، وهو يطرد فى غضب البعوض الذى هوم حوله فى إلحاح : « ماذا تقول ؟ إن طلقتى تتجاوز القرية ! اصبر قليلاً حتى يحل عيدهم ، فأذهب

لأزور جيرى خان وأشرب البوظة معه» .

واسترعى انتباه القوزاق حفيف فى الدغل . وما لبث كلب صيد هجين أرقط أن جاء يعدو صوب النطاق ، يهز ذيله الأجرد وأنفه إلى الأرض . وعرف لوكاشكا الكلب ، فهو أحد كلاب جاره العم بيروشكا الصياد . وسرعان ما رأى الصياد نفسه يتبع الكلب مجتازاً الدغل .

وكان العم يروشكا عملاقاً بين القوزاق ، له لحية عريضة ناصعة البياض كالثلج ، وقد بلغ عرض كتفيه وصدره حدًّا لا نظير له بين أهل الغابة مما جعل هامته لا تبدو فارعة الطول بين هؤلاء القوم . وكانت أطرافه القوية غاية فى التناسق ، وقد ارتدى سترة مهلهلة وانتعل نعلا مصنوعاً من جلد الأيل ، غير المدبوغ ربطه بخيط القنب ، فوق الأربطة التى لف بها قدميه ، ووضع على رأسه قبعة بيضاء صغيرة خشنة ، وحمل على أحد كتفيه دريئة يختبئ خلفها حين يصيد الدراج وكيساً فيه دجاجة لإغراء الصقور ، وبازاً صغيراً . ولفع على الكتف الآخرى هرًّا بريًّا كان قد قتله وربطه بسير من الجلد ، وعلق فى حزامه خلف ظهره كيساً صغيراً يحتوى على رصاص بارود وخبز ، وذيل حصان يهش به البعوض ، وخنجراً كبيراً فى غمد ممزق تعلوه بقع دم قديمة ، ودراجين نافقين . ونظر العم يروشكا إلى النطاق العسكرى ثم توقف .

وقال ينادى الكلب : « إيه يا ليام ! » فى صوت جهير مدو أثار الصدى على بعد كبير فى قلب الغابة ، ثم ألقى فوق كتفه ببندقيته الضخمة ذات الكبسول من النوع الذى يسميه القوزاق « فلنتا » ، ثم رفع قبعته .

وقال موجهاً الحديث إلى القوزاق بصوته المعهود القوى المرح الذى أطلقه دون أن يبذل فى ذلك جهداً فى نبرات عالية كأنه يصيح بإنسان على الجانب الآخر من

النهر : « أو قد قضيتم وقتاً طيباً أيها القوم الصالحون ؟ »

فعلت أصوات القوزاق الشبان من كل جانب تقول فى مرح : « وقتاً طيباً جدًّا أيها العم ! »

فصاح العم يروشكا ، وهو يجفف العرق عن وجهه الأحمر العريض بكم سترته : « ماذا رأيتم ؟ هاتوا ما عندكم ! وحدثونا بكل ما رأيتم ! »

فقال نازاركا وهو يغمز بعينه ويهز كتفه وساقه : « إن صقراً يعيش فى شجرة الدلب هذه أيها العم ، وما إن يجن الليل حتى يسرع فى الطواف حول هذا المكان »

فقال الشيخ وهو لا يصدق ما يسمع : « أحقًّا ما تقول ؟ »

فأجاب نازاركا وهو يضحك : « هو الحق أيها العم ! وما عليك إلا أن تبقى هنا وتترقب » .

وأخذ سائر القوزاق يضحكون .

ولم يكن هذا الفتى الماجن قد رأى صقراً قط ، إلا أن شباب القوزاق الذين فى النطاق كانوا قد ألفوا أن يغيظوا العم يروشكا ويضللوه كلما جاء إليهم .

ونادى لوكاشكا نازاركا من فوق البرج قائلاً : « إيه أيها الأحمق ! ألا تكف عن الكذب أبداً ؟ »

ولزم نازاركا الصمت فى الحال .

وأجاب الشيخ : « يجب مراقبته ، وسأراقبه » ، وسر القوزاق جميعاً بجوابه غاية السرور ، ثم أردف يقول : « ألم تروا شيئاً من الخنازير البرية ؟ »

وقال الأومباشى وهو يحك ظهره بكلتا يديه وقد سر غاية السرور بتلك الفرصة التى تهيأت له للهو : « نرقب الخنازير ! إنما نحن نترصد هنا للأبركة لا الخنازير » ، واسترسل يقول ، وهو يقطب ما بين حاجبيه فى غير حاجة تدعو إلى ذلك ، فظهرت

أسنانه البيضاء المتراصة : « ألم تسمع شيئاً أيها العم ؟ »

فقال الشيخ : « الأبركة ؟كلا ، لم أسمع شيئاً عنهم ، هل عندكم شىء من الجكير[1] ، علىّ بكأس منه أشكر لك صنيعك ، فإنى منهوك القوى ، واعلم أننى موافيك ببعض اللحم الطازج عندما يحين الحين ، وإنى لفاعل » ، ثم عاد يقول : « أعطنى كأساً »

فسأله الأومباشى كأنه لم يسمع ما قاله صاحبه : « حسن وهل تشاركنا فى المراقبة ؟ »

وأجاب العم يروشكا : « لقد صح عزمى على أن أراقب الليلة ، ولعلنى أصيد بفضل الله شيئاً للعيد ، فيكون لك منه نصيب ، أجل ، يكون لك نصيب دون شك ! »

وهتف لوكاشكا من فوق برج المراقبة منادياً بصوت عال استرعى انتباه الحاضرين : « إيه أيها العم ! أيها العم ! » ، ونظر إليه القوزاق جميعاً فاسترسل يقول : « ما عليك إلا أن تذهب إلى أعلى النهر وحسب ، فستجد قطيعاً عظيماً من الخنازير البرية ، أى والله ولا تحسب أننى أكذب عليك » ، ثم أردف يقول وهو يصلح من شأن بندقيته على ظهره فى لهجة تنم عن الجد : « لقد أصاب أحد القوزاق من فرقتنا خنزيراً منها منذ أيام وأنا بذلك أقول لك الحق »

وقال الشيخ وهو يرنو ببصره إليه : « آه ! لوكاشكا « المتشل » هنا ! وأين كان صديقك القوزاقى عندما أطلق النار ؟ »

فقال لوكاشكا : « ألم ترنى ؟ أحسب أننى أصغر كثيراً من أن ترانى ! » ثم أردف فى جد وهو يهز رأسه : « قرب الخندق ، فقد كنا نسير بمحاذاته ، وإذا بنا

---

(١) الجكير : خمر قوقازية تصنع فى المنازل .

نسمع قرقعة ، إلا أن بندقيتى كانت فى غمدها ، فأطلق إيليا النار . . . سأريك المكان ، فهو غير بعيد من هنا ، انتظر لحظة ، فإنى أعرف كل مسلك من مسالكها ؛ ثم التفت إلى الأومباشى وقال فى حزم وفى لهجة يغلب عليها الأمر : « أيها العم موسيف ، لقد حان وقت استبدال الحرس ! » ، ولفع بندقيته على كتفه وشرع يهبط من برج المراقبة دون انتظار الأمر .

وقال الأومباشى بعد أن كان لوكاشكا قد شرع فى الهبوط : « انزل ! » والتفت حوله ثم قال : «أهى نوبتك ياجوركا ؟ هلم فاصعد . . » وأردف يقول موجهاً الحديث إلى الشيخ : « الحق أن صديقك لوكاشكا قد أصبح صيادا بارعاً وهو لا يكف عن الجولان مثلك تماماً ولا يقعد فى داره أبداً ، وقد قتل خنزيراً بريًّا منذ أيام » .

الفصل السابع

كانت الشمس قد غربت وأخذت أستار الليل تمتد مسرعة من طرف الغابة ؛ وفرغ القوزاق من أعمالهم حول النطاق ، واجتمعوا فى الكوخ لتناول العشاء ، ولبث الشيخ وحده تحت شجرة الدلب يترقب الصقر ، ويجذب الخيط الذى ربط به ساق الباز ، وكان ثمة صقر يجثم حقًّا على شجرة الدلب ، ولكنه أبى أن ينقض على الطعم ، وشرع لوكاشكا ينشد الأغنية تلو الأغنية وهو يجهز الشباك على مهل متخيراً أكثف مكان ينبت فيه شجر العليق ليوقع الدراج فى حبائلها ، وكان كل عمل يؤديه لوكاشكا دقيقاً كان أم غير دقيق – ينجح بفضل براعة أصابعه بالرغم من أنه كان فارع الطول كبير اليدين .

وناداه نازاركا بصوته الحاد الرفيع من الدغل القريب قائلاً : «إيه يا لوكاشكا ! لقد ذهب القوزاق لتناول العشاء» وشق نازاركا طريقه خلال شجر العليق وتحت إبطه دراج حى ، وظهر فى الدرب .

وقال لوكاشكا وهو يقطع أغنيته : «وى ! وى ! من أين لك هذا الديك من

الدراج ؟ أحسب أنه كان فى شباكى »

وكان نازاركا من سن لوكاشكا ، ولم يلتحق هو أيضاً بالجبهة إلا منذ الربيع الماضى ، وكان نحيلاً قصير القامة عاطلاً من الحسن ، له صوت حاد يدوى فى الآذان ، كما كان هو ولوكاشكا جارين وزميلين ، وكان لوكاشكا جالساً على الكلأ وقد وضع ساقاً على ساق على مألوف التتر يصلح من شأن شباكه .

« لست أدرى ديك من هذا ؟ وإنى لأحسب أنه ديكك »

« أوجدته فيما وراء الحفرة بجوار شجرة الدلب ؟ إذن هو ديكى فقد نصبت الشباك ليلة الأمس »

ونهض لوكاشكا وتفحص الديك الأسير فى يد صاحبه ، ثم ربت على رأس الطائر اللامع الأسود ، وأخذ الديك يدور بعينيه ويمد عنقه فزعاً ، ثم أخذه لوكاشكا بين يديه .

– سنطهوه بالأرز الليلة ، خذه واذبحه وانتف ريشه

– أو نأكله وحدنا أم نعطى الأومباشى إياه

– لقد كان لديه من الديكة الكثير

فقال نازاركا : « لا أحب أن أذبح الديكة »

– ناولنيه !

وأخرج لوكاشكا من تحت خنجره مطواة صغيرة ونفضها نفضة سريعة ، وصفق الطائر بجناحيه وما إن هم بنشرهما حتى كان الرأس قد مال وأخذ يضطرب ، وقال لوكاشكا وهو يلقى بالديك : « هكذا يكون الذبح ! وستكون الأكلة دسمة »

وارتعد نازاركا ، وهو ينظر إلى الديك .

ثم قال وهو يأخذ الطائر مشيراً إلى الأومباشى : « ألا فلتعلم يا لوكاشكا أن ذلك

الشيطان سيبعث بنا الليلة مرة أخرى لنقيم كميناً ، وأوفد فوماشكين ليأتى له بخمر ، فى حين أن النوبة الليلة هى نوبته ، أوقد كتب علينا أن نذهب ليلة بعد ليلة ؟ لقد دأب على أن يلقى ذلك دائما على كاهلنا »

وأخذ لوكاشكا يضرب فى طول المعسكر وهو يصفر ، ثم صاح : « خذ هذا الخيط معك » ، وأطاع نازاركا أمره

واسترسل نازاركا يقول : « سأصارحه اليوم بشىء مما فى نفسى ، تالله لأفعلن ، ولنقل له : إننا لن نذهب وإن التعب قد نال منا فينتهى الأمر ! كلا ، بل الأحرى أن تقول له ذلك أنت ، فيستمع إليك ، إن الأمر لغاية فى السوء ! »

وقال لوكاشكا وقد بدا واضحاً أنه يفكر فى شىء آخر : « اغرب عنى ! فما أتفه هذا الأمر حتى تجعل منه موضوعاً للجاج ! ، هذا هراء يا رجل ! ولو أنه أقصانا الآن عن القرية وحرمنا إياها الليلة كان ذلك شيئاً مزعجاً ، ذلك أنك تستطيع أن تجد فى القرية شيئاً من اللهو ، ولكن ماذا نستطيع أن نفعل هنا على أية حال ؟ إن الأمر يستوى سواء كنا فى النطاق أو فى الكمين ، يا لك من فتى غريب الأطوار ! »

— أو تذهب إلى القرية ؟

— سأذهب لحضور العيد

فقال نازاركا فجأة : « يقول جوركا : إن حبيبتك دونايكا على صلة بفوموشكين ! »

فأجابه لوكاشكا كاشفاً عن أسنانه البيضاء المنتظمة وإن كان لم يضحك : « فلتذهب إلى الجحيم ! كأننى لا أستطيع أن أجد سواها »

« يقول جوركا : إنه ذهب إلى منزلها وكان زوجها غائباً ، فرأى فوموشكين جالساً يأكل فطيرة محشوة ، ولبث جوركا برهة قصيرة ثم انصرف ، ومر بجانب

النافذة فسمعها تقول : « لقد انصرف الشيطان . فما بالك لا تأكل فطيرتك يا عزيزى ؟ ما من حاجة تدعوك إلى العودة إلى دارك الليلة ! وقال جوركا من تحت النافذة : لا بأس فهذا هو ما أريده »

– إنك تختلق هذه الرواية

– بل وحق الله

ولاذ لوكاشكا بالصمت برهة قصيرة ثم قال : « حسن ! إن كانت قد وقعت على حبيب آخر فلتذهب إلى الجحيم . فليست الفتيات بقليلات . ثم إنى قد سئمتها على كل حال »

فقال نازاركا : « انظر أى شيطان أنت ؟ يجب أن تتقرب من ماريانكا ابنة حامل العلم . ترى لماذا لا تخرج هذه الفتاة مع أحد ؟ »

وقطب لوكاشكا جبينه ثم قال : « هه ، ماريانكا ! كلهن سواء »

« وليكن وما عليك إلا أن تحاول . . . »

« ماذا تظن ؟ أليس فى القرية من الفتيات الكفاية ؟ »

واستأنف لوكاشكا صفيره ، وسار فى النطاق يجذب الورق من الشجيرات التى يمر بها . واسترعى انتباهه فجأة شجيرة ناعمة رقيقة ، فأخرج المطواة من مقبض خنجره وقطعها ، ثم قال وهو يلوح بالشجيرة حتى أخذت تصفر فى الهواء : « لشد ما تصلح مدكًا للبندقية ! » .

وكان القوزاق جلوساً حول مائدة تترية منخفضة على أديم الغرفة الخارجية للكوخ المطلية بالطين عندما أثير موضوع الشخص الذى تحل عليه النوبة فى الكمين .

وصاح أحد القوزاق من خلال الباب المفتوح مخاطباً الأومباشى الذى كان فى الغرفة المجاورة : « من الذى حق عليه الذهاب الليلة ؟ »

وصاح الأومباشي مجيباً : « أى نعم . من ؟ » . ثم قال وهو لا يثق تماماً فيما يقول : « لقد أدى العم بورلاك النوبة . وكذلك فوموشكين » . واسترسل يقول موجها الحديث إلى لوكاشكا : « يحسن أن يذهب كلاكما . أنت ونازاركا . وسيذهب يرجوشوف معكما أيضاً . ولا شك أنه قد نال الآن كفايته من النوم »

وقال نازاركا فى صوت خفيض : « إنك لا تنال كفايتك من النوم . فلم يكتفى هو بما ينال ؟ »

وضحك القوزاق .

وكان يرجوشوف هو القوزاق الذى كان قد رقد قرب الكوخ ثملاً يغط فى النوم . وكان فى تلك اللحظة عينها قد دخل الغرفة يترنح وهو يفرك عينيه .

وقال الأومباشي : « انصرفوا الآن ! افرغوا من عشائكم واذهبوا ! » . وأغلق الباب دون أن ينتظر علامة على القبول . ومن الواضح أنه لم يك يتوقع أن يطيع القوزاق أمره ، ثم قال : « لو لم يصدر الأمر ما أرسلت بطبيعة الحال أحداً . غير أنه قد يفاجئنا ضابط من الضباط فى أى لحظة . ومهما يكن من شىء فإنهم يقولون إن ثمانية من الأبركة قد عبروا النهر » .

وقال يرجوشوف : « لا بأس ! وإنى لأحسب أنه ينبغى علينا أن نذهب . فهذا هو ما تقضى به التعليمات ولا حيلة لنا فى الأمر فى أوقات كهذه . وأعود فأكرر أنه قد ينبغى علينا أن نذهب » .

وكان لوكاشكا فى الوقت نفسه يحمل قطعة كبيرة من ديك الدراج بين يديه يأكلها ويرمق نازاركا حيناً والأومباشي حيناً آخر . وقد بدا غير مكترث قط بما كان يدور بين صاحبيه . وكان إنما يضحك منهما جميعاً . وقبل أن يتهيأ القوزاق للذهاب إلى الكمين دخل العم يروشكا الغرفة المظلمة . وكان قد انتظر عبثاً تحت

شجرة الدلب حتّى جن الليل .

وقال وصوته الجهير يرن فى أرجاء الغرفة المنخفضة السقف فيطغى على صوت كل من عداه : « أيها الفتيان . إننى ذاهب معكم . فترقبون أنتم الجحن ، وأترقب أنا الخنازير البرية ! »

الفصل الثامن

كان الظلام حالكاً عندما غادر العم يروشكا والقوزاق الثلاثة النطاق ملتفين فى عباءاتهم وبنادقهم على أكتافهم . وقصدوا ذلك المكان على نهر ترك الذى كان عليهم أن ينصبوا فيه كمينهم .

ولم يكن نازاركا يريد الذهاب قط . إلا أن لوكاشكا زجره فبدءوا رحلتهم فى الحال . وسار القوزاق بضع خطوات يخيم عليهم الصمت . ثم تجنبوا الخندق وساروا فى طريق تخفيه القصب أو يكاد حتى بلغوا النهر . وكانت على ضفته كتلة خشبية سوداء عظيمة لفظتها المياه . وكان القصب الذى حولهم قد بدت عليه آثار أقدام مرت منذ وقت قريب .

وسأل نازاركا : « هل نتخذ مقامنا هنا ؟ »

فأجاب لوكاشكا : « لم لا ؟ اجلس هنا فسأعود إليك بعد لحظة . وسأبين للعم الطريق الذى يسلكه فحسب »

وقال يرجوشوف : « هذا أفضل مكان . فهنا نستطيع أن نرى دون أن يرانا

أحد . ولذلك سنستقر هنا . إنه المكان المناسب تماماً» !

وبسط نازاركا ويرجوشوف عباءتيهما واستقرا خلف الكتلة على حين ذهب لوكاشكا مع العم يروشكا .

وقال لوكاشكا وهو يخطو فى خفة أمام الشيخ : « المكان ليس بعيداً من هنا أيها العم . وسأريك أين كانت الخنازير البرية فأنا الوحيد الذى أعرف مكانها » .

فقال الشيخ فى صوت يقرب من الهمس : « هذا هو السبيل ! ياللك من فتى كريم تستحق بجدارة لقب « المتشل ! »

وخطا لوكاشكا بضع خطوات . ثم وقف وانحنى على غدير . وأطلق من شفتيه صفيراً ثم قال : « لقد جاءت تشرب من هنا . أترى ؟ » . وكان يتحدث فى صوت لا يكاد المرء يسمعه . وهو يشير إلى آثار حوافر حديثة .

وأجاب الشيخ : « بارك الله فيك . ثم أردف : « سيكون الخنزير فى الوجار الذى يلى الخندق . وسأترقبه أنا . وتستطيع أنت أن تمضى لشأنك » .

وجذب لوكاشكا عباءته إلى أعلى . وعاد وحده وهو يلقى نظرات سريعة . طوراً إلى اليسار نحو سياج القصب . وطوراً إلى نهر ترك ومياهه تتدافع تحت ضفتيه . وقال يحدث نفسه وهو يتوجس من وجود رجل من رجال الجبال الججن : « أحسب أن ثمة واحداً منهم يراقب أو يتسلل فى مكان ما . وعلى حين بغتة سُمع صوت حفيف عال ورشاش يصدر من الماء . فأجفل وأمسك ببندقيته ، وكان خنزير برى قد قفز وهو يقبع من تحت ضفة النهر وقد ارتسم هيكله المعتم لحظة على صفحة الماء اللامعة . ثم اختفى بين أعواد القصب . وأخرج لوكاشكا بندقيته وصوبها . إلا أن الخنزير كان قد اختفى فى الدغل قبل أن يستطيع إطلاق النار ، وبصق لوكاشكا غضباً ثم سار فى طريقه . واقترب من الكمين مرة أخرى ، فتوقف

وصفر صفيراً خفيفاً . وأجابه صاحباه على صفيره فتوجه إليهما .

وكان نازاركا قد التف بعباءته واستغرق فى النوم . أما يرجوشوف فكان يجلس واضعاً ساقاً على ساق ، ثم تحرك قليلاً . ليفسح مكاناً للوكاشكا .

وقال نازاركا : « إن البقاء فى كمين لشئ جميل ! إنه لمكان طيب حقًّا . هل أرشدته إلى الموضع ؟ »

فأجابه لوكاشكا وهو يبسط عباءته : « لقد أريته الموضع . ويا للخنزير البرى الكبير الذى أثرته لتوى بجانب النهر تماماً ! إنى لأحسب أنه هو الخنزير المعهود بعينه ! ولا شك أنك سمعت الجلبة التى أثارها ! »

فقال يرجوشوف وهو يلتف بعباءته : لقد سمعتها بكل وضوح . فعلمت فى الحال أنه صيد . وقلت أحدث نفسى إن لوكاشكا قد أثار بعض الصيد » ثم أردف : « سأستسلم للنوم . فأيقظنى عندما تصيح الديكة . يجب أن يسود بيننا النظام . سأستلقى وأغفو . ثم تغفو أنت وأسهر أنا . وهكذا يجب أن يكون الأمر بيننا »

فأجاب لوكاشكا : « لا أريد أن أنام »

وكانت الليلة مظلمة دفيئة وساكنة . ولم تكن النجوم تتألق إلا فى جانب واحد من السماء . أما فى الجانب الآخر . وهو الأكبر . فقد غشيته غمامة سوداء ضخمة امتدت من قمم الجبال . ولم يكن ثمة ريح تهب . وامتزجت الغمامة بالجبال . وانساقت إلى الأمام فى بطء وتمهل . وقد وضحت أطرافها المنثنية وضوحاً بيناً فى غمار السماء المرصعة بالكواكب . ولم يكن الرجل من القوزاق ليستطيع أن يتبين نهر ترك وما يليه إلا إذا كان أمامه . أما من الخلف أو على الجانبين فقد كان يحيط به سياج من أعواد القصب . وكان القصب يتمايل بين الحين والحين ويخف بعضه

ببعض من غير سبب ظاهر . فإذا شوهدت أطرافه المتماوجة من أسفل منطبقة على ذلك الجزء الصحو من السماء - بدت شبيهة بغصون الأشجار التى تحاكى الريش . وكان أمام القوزاقى عن كثب ، بل عند قدميه تماماً ضفة النهر ، وعند قاعدتها السيل المتدافع . وعلى مسافة أبعد قليلاً الكتلة المتحركة للماء الأسمر اللامع تطوف فى انتظام رتيب بطول الشاطئ بالمواضع الضحلة وأبعد من ذلك الماء والشاطئ والغمامة تمتزج جميعاً فى ظلمة بعيدة القرار ، وكانت تطفو على صفحة الماء كله أشباح سوداء تستبين عين القوزاقى المدربة فيها جذوع الأشجار التى يحملها التيار . وما أندر ما كان برق الصيف يكشف عن الضفة المنحدرة الأخرى للنهر إذ ينعكس على صفحة الماء انعكاس النور على مرآة مظلمة . وكانت أصوات الليل المنتظمة الرتيبة وحفيف أعواد القصب وغطيط القوزاق وطنين البعوض واندفاع الماء تقطعه بين الفينة والفينة طلقة تنبعث من بعيد أو قرقرة الماء ينزلق فيه جرف من جسر النهر ، أو رشاش سمكة كبيرة ، أو جلبة يحدثها حيوان يتسلل فى أديم الغابة الكثيف .

وقد يحدث أن تطير بومة مجتازة نهر ترك وتضرب جناحاً بجناح على نحو رتيب فى خفقة دون خفقة . وتنطلق صوب الغابة مسفة تكاد تمس رءوس القوزاق ، ثم تضرب بجناحيها كل خفقة . لا خفقة دون خفقة ، حتى إذا بلغت شجرة دلب عتيقة تلبثت فوقها وقتاً طويلاً تطوف مخفخفة قبل أن يستقر بها المقام بين غصونها ، وكان القوزاقى الساهر ينصت بانتباه إلى كل صوت من هذه الأصوات الطارئة ، ويقطب ما بين حاجبيه وهو يتحسس بندقيته عن وعى وإدراك .

وانقضى الشطر الأكبر من الليلة . وتمزق شمل الغمامة السوداء التى كانت قد سارت غرباً . فكشفت عن السماء الصافية المرصعة بالنجوم . وأضاء الهلال

الذهبى المرتفع الجبال فى وهج ضارب إلى الحمرة ، وبدأ البرد ينفذ إلى الأجسام ، واستيقظ نازاركا ، وغمغم بشىء ، ثم استغرق فى النوم مرة أخرى ، وشعر لوكاشكا بالسأم فنهض وأخرج مديته الصغيرة من مقبض خنجره ، وأخذ يسوى عصاه ليجعل منها مدكًا للبندقية ، وكان رأسه زاخراً بأولئك الجحن الذين يقيمون هنالك فى الجبال ، وكيف أن فتيانهم الشجعان كانوا يعبرون النهر ولا يخشون القوزاق . وربما كانوا الآن يجتازون النهر فى موضع آخر ، وكم من مرة برز من مخبئه وسرح ببصره فى طول النهر ، إلا أنه لم يستطع أن يرى شيئاً ، وكلما واصل النظر الفينة بعد الفينة إلى النهر وإلى الضفة المقابلة التى كانت قد بدت معالمها باهتة متميزة عن الماء فى ضوء القمر المتقلب – انقطع تفكيره فى الجحن ، وانحصر فى ترقب الوقت الذى يوقظ فيه صاحبيه ويعود إلى القرية ، ثم استقر تفكيره فى القرية وراح ينظر بعين الخيال إلى دنياه ، روحه الصغيرة كما يسمى القوزاق محبوباتهم . فتكدر خاطره وانتابه الضيق ، وأخذ الضباب الفضى يتألق من فوق صفحة الماء مؤذناً بأن الفجر قد لاحت تباشيره ، وكانت النسور الصغيرة تصفر وتصفق بجناحيها ، غير بعيد منه ، وبلغ مسامعه آخر الأمر صياح ديك من القرية النائية أعقبه الصوت الممتد المعهود لديك ثان جاوبته أصوات ديكة أخرى .

وقال لوكاشكا يحدث نفسه : « لقد حان الوقت لإيقاظهما » ، وكان قد فرغ من إعداد مدك بندقيته وشعر بالكرى يثقل جفنيه ، والتفت إلى زميليه وما إن همّ بتمييز ساقى أحدهما من ساقى الآخر حتى خيل إليه فجأة أنه سمع صوت شىء يطش فى الماء فى الجانب الآخر من نهر ترك ، وعاد ينظر مرة أخرى إلى الأفق وراء التلال حيث كان النهار آخذاً فى الطلوع من تحت الهلال الغارب ، ونظر إلى معالم الضفة المقابلة . إلى نهر ترك ، وإلى كتل الخشب يحملها تياره وقد أصبحت الآن واضحة

جلية . وخيل إليه لحظة أنه هو الذى يتحرك . وأن نهر ترك وكتل الخشب التى يحملها تياره هى التى تقف ساكنة . ثم عاد يحملق مرة أخرى واسترعى انتباهه بوجه خاص كتلة سوداء كبيرة تحمل غصناً . وكانت الكتلة تطفو بشكل عجيب فى وسط التيار . لا تهتز أو تدور . بل لقد بدا أنها لا تسير قط مع التيار . وإنما تجتازه فى اتجاه المواضع الضحلة من النهر . ومد لوكاشكا عنقه وأخذ يرقبها فى انتباه . وعامت الكتلة إلى الأماكن الضحلة ثم توقفت . وانتحت ناحية على نحو غريب . وخيل إلى لوكاشكا أنه يرى ذراعاً ممدودة من تحتها .

وقال يحدث نفسه : «هبنى قتلت رجلاً من الأبركة بمفردى !» ثم التقط بندقيته وأقام مسندها فى حركة سريعة لا تعجل فيها ، وثبتها عليه وأمسكها فى وضع من يستعد للإطلاق ، ورفع الزناد وحبس أنفاسه وشرع يصوبها وعيناه تبحثان فى الظلام .

وقال فى نفسه : «لن أوقظها» ، إلا أن قلبه بدأ ينبض نبضات بلغ من شدة سرعتها أنه تردد وراح يصيخ السمع . وغطست الكتلة فجأة وأخذت تعوم مرة أخرى مع التيار متجهة إليه .

وحدث نفسه قائلا : «يجب ألا أخطئ الهدف . . .» ولمح حينئذ على ضوء القمر الخافت رأس تترى أمام الكتلة الطافية وصوب بندقيته إلى الرأس مباشرة . وقد لاح أنه قريب منه جداً . . . عند طرف ماسورة بندقيته تماماً . ورفع عينيه عن ذؤابة البندقية . وقال يحدث نفسه ووجهه يفيض بالبشر : «لقد كنت على حق . إنه رجل من الأبركة !» ونهض فجأة واستند على ركبتيه وصوب بندقيته مرة أخرى ، ووجد الهدف واضحاً جلياً عند طرف بندقيته الطويلة فقال : «باسم الأب والابن» ، على طريقة القوزاق التى تعلمها فى طفولته ، ثم جذب الزناد ، وأضاء

وميض لامع أعواد القصب والماء لحظة . وحمل الريح صدى الطلقة الحادة المفاجئة عبر النهر . واستحال ترديدا متصل النبرات فى مكان ما فى الفضاء البعيد . وأصبحت الكتلة تطفو الآن لا عبر التيار بل معه وهى تهتز وتدور .

وهتف يرجوشوف يقول وهو يتحسس بندقيته وينتصب على قدميه خلف الكتلة التى كان يستلقى بجوارها : « أوقفه . أقول لك ! »

فهمس لوكاشكا وهو يكز على أسنانه : « صه أيها الشيطان ! أبركه ! »

فسأله نازاركا : « من الذى أطلقت عليه النار ؟ من هو يا لوكاشكا ؟ »

ولم يجب لوكاشكا فقد كان يحشو بندقيته مرة أخرى ويراقب الكتلة الطافية . وتوقفت على بعد قليل على جسر رملى ووضح للعيان أن خلفها شيئا كبيرا أخذ يهتز فى الماء .

وألح القوزاقيان فى السؤال : « ما الذى أطلقت عليه النار ؟ ما بالك لا تتكلم ؟ »

فقال لوكاشكا : « قلت لكما : الأبركة ! »

« لا ينطلى علينا هذا ! هل انطلقت البندقية من تلقاء نفسها ؟ »

فدمدم لوكاشكا فى صوت غلبه الانفعال وهو يقفز قائما على قدميه : « لقد قتلت أحد الأبركه ، هذا هو ما فعلته . ثم قال وهو يشير إلى الجسر الرملى : « لقد كان رجل يسبح . . . فقتلته . انظرا هناك »

فقال يرجوشوف مرة أخرى وهو يفرك عينيه : « لا تموه علينا بهذه القصة »

فقال لوكاشكا وهو يمسك به من كتفيه ويجذبه بقوة جعلته يئن من الألم : « لا أموه عليكما ؟ انظر هناك »

ونظر يـرجوشوف فى الاتجاه الذى أشار إليه لوكاشكا ورأى الجثة فغير لهجته فى الحال .

وقال فى صوت رقيق وقد شرع يفحص بندقيته : « واهاً لى ولكن غيره سيأتون صَدقنى . لقد كان ذلك الرجل كشافاً يجتاز النّهر سباحة . وصدقنى أن الأمر لا يعدو حالة من اثنتين : فإما أن يكون غيره قد أتوا فعلاً . وإما أن يكونوا فى طريقهم غير بعيدين من الضفة الأخرى !

وكان لوكاشكا يفك حزامه . ويخلع سترته الجركسية .

وهتف يرجوشوف يقول : « ما الذى تزمع عليه أيها الأحمق . حسبك أن تظهر نفسك فتفقد حياتك بلا ثمرة ولا جدوى . ولتصدق ما أقول ! إن كنت قتلته فلن يهرب . علىّ بشىء من البارود أحشو به خزانة بندقيتى ، أو عندك منه شىء ؟ أما أنت يا نازاركا فعد إلى النطاق واصطنع المرح ، ولكن لا تجاز الشاطئ وإلا قتلوك ، صدقنى ! » .

فقال نازاركا غاضباً : « أو أذهب وحدى فيتصيدونى ؟ اذهب أنت ! »

وخلع لوكاشكا سترته وهبط إلى الجسر .

وقال يرجوشوف وهو يجهز بندقيته : «أقول لك : لا تهبط إلى النهر ، انظر فإنى أراه لا يتحرك . وقد أوشك الصبح أن ينبلج ، فانتظر حتى يأتوا من النطاق ويحسن بك أن تعود يا نازاركا ، أنت خائف ، وإنى لأقول لك : لا تخف ! »

وقال نازاركا : « لوكاشكا ، إيه يا لوكاشكا ! قل لى كيف قتلته ؟ » .

وعدل لوكاشكا عما كان قد اعتزمه من الهبوط إلى النهر وقال :

« اذهبا سريعاً إلى النطاق ، سأقوم أنا بالحراسة ، وأخبرا القوزاق بأن يبعثوا بالدورية ، حتى إذا كان الأبركة على هذا الجانب وجب أن يقبض عليهم »

وقال يرجوشوف وهو يهم بالنهوض : « هذا هو ما قلته ، فإنهم سيهربون ، ولذلك يجب أن يقبض عليهم » .

ونهض يرجوشوف ونازاركا ورسما علامة الصليب ، ثم شرعا يسيران إلى النطاق ، ولم يلتزما ضفة النهر ، بل شقا طريقهما خلال أشجار العليق ، ليبلغا طريقاً يضرب فى الغابة .

وقال يرجوشوف ، وهو يهم بالرحيل : « إياك يا لوكاشكا أن تتحرك ، فقد يقطعون عليك السبل هنا ، وخير لك أن تكون شديد الحذر ! »

فدمدم لوكاشكا يقول : « امضيا فى طريقكما ، فإننى أعرف هذا » ثم فحص بندقيته ، وعاد يجلس خلف الكتلة .

وبقى لوكاشكا وحيداً ، وجلس يحدق فى الأماكن الضحلة ، ويتسمع أصوات القوزاق ، وكانت بينه وبين النطاق شقة كبيرة وقد نفد صبره وضاق لذلك صدره ، وظل يحدث نفسه قائلا : إن الأبركة الذين كانوا صحبة ذلك الرجل الذى قتله سوف يهربون ، شأنهم فى ذلك شأن الخنزير البرى الذى هرب فى الليلة السابقة تماماً ، وراح لوكاشكا يرنو ببصره حوله ، وينظر إلى الضفة المقابلة متوقعاً فى كل لحظة أن يرى رجلاً ، وأعد مسند بندقيته ، واستعد لإطلاق النار ، ولم يطرأ بباله قط أن القتل قد يحل به هو نفسه .

الفصل التاسع

كان الصبح قد أخذ ينبلج ، وأصبحت جثة الجحنى واضحة بينة تهتز اهتزازاً رقيقاً فى المياه الضحلة ، وطرق أذن لوكاشكا على حين فجأة صوت حفيف بين أعواد القصب على مسافة قريبة منه ، وسمع وقع أقدام ، ورأى رءوس أعواد القصب التى تشبه الريش تتحرك فجهز بندقيته تماماً للإطلاق وتمتم ، « باسم الأب والابن » وما إن تكتكت البندقية حتى توقف وقع الأقدام .

ونادى صوت أجش جهير يقول فى هدوء : « أيها القوزاق لا تقتلوا عمكم ! » ، وأخذ العم يروشكا يفرق أعواد القصب ثم ظهر بجوار لوكاشكا تماماً .

وقال لوكاشكا : « لقد هممت بقتلك : تالله إنى كدت أفعل ! »

وسأله الشيخ : « علام أطلقت النار ؟ » ، ودوى صوته الجهير فى أرجاء الغابة وعلى طول النهر مبدداً على حين غرة ذلك السكون الغامض الذى ساد الليل ، وأطبق على القوزاق حتى بدا أن كل شىء قد أصبح فجأة أكثر ضوءاً وأعظم وضوحاً .

وقال لوكاشكا وهو يعيد الزناد إلى موضعه فى البندقية وينتصب واقفاً فى هدوء عجيب : « ولكنك أيها العم لم تر شيئاً . فإنى قتلت وحشاً »

وكان الشيخ يحدق بانتباه فى الظهر الأبيض . وقد أصبح الآن واضحاً غاية الوضوح ومياه نهر ترك تترقرق من حوله .

وقال لوكاشكا : «كان يسبح وعلى ظهره كتلة من الخشب ، إلا أننى رأيته ثم . . . انظر هناك . . . هناك ! إنه يرتدى سروالاً أزرق وأظن أنه يحمل بندقية . . . وسأله : « أتراه ؟» .

وقال الشيخ غاضباً وقد علت سيماء وجهه نظرة جد وصرامة : « طبعاً أراه ! » . ثم قال وقد نمت لهجته عن الأسى : « لقد قتلت رجلا من الزغيث »

« لقد كنت أجلس هنا . فرأيت فجأة شيئاً مظلماً على الجانب الآخر . رأيته وهو لا يزال هناك . وخيل إلى كأن رجلا أقبل هناك وسقط فى النهر . فقلت أحدث نفسى : إن هذا لأمر غريب . ثم رأيت قطعة من الخشب العائم . قطعة كبيرة . مقبلة تعوم مجتازة النهر ولا تسير معه . ولم يبد لعينى إلا رأس يظهر من تحتها ! يا للعجب ! ثم نظرت من خلال أعواد القصب . ولكننى لم أتبين شيئاً . فنهضت . ولا شك أن ذلك الشيطان قد سمعنى وتسلل إلى حيث الماء الضحضاح ونظر حوله . فقلت بمجرد أن بلغ البر ونظر حوله : «كلا . لن تفلح ! لن تفلح فى الهرب ! » وشعرت كأنى أختنق ! فجهزت بندقيتى . ولكنى لم أتحرك وأخذت أتطلع . وانتظر هو لحظة ثم عاد يسبح مرة أخرى . واستطعت أن أرى ظهره كله عندما بلغ ضوء القمر . ثم هتفت « باسم الأب والابن والروح القدس » . . . ورأيته من خلال الدخان وهو يناضل . وكان يتأوه أو هكذا خيل إلى . فقلت أحدث نفسى : « آه ! أحمد الله . فقد قتلته ! وجرفه التيار إلى الجسر الرملى ،

فاستطعت أن أراه بوضوح ، وقد حاول أن ينهض إلا أنه لم يتمكن من ذلك ، ثم ناضل لحظة وانطرح فى الماء ، لقد رأيت كل شىء ، انظر إنه لا يتحرك ، ولا ريب فى أنه مات ! أما رفيقاى فقد عادا إلى النطاق خشية أن يكون قد حل بالمكان سواه من الأبركة » .

وقال الشيخ : « وهكذا قتلته ! إنه الآن بعيد جدًّا يا ولدى ! » . . وعاد يهز رأسه فى حزن .

وفى تلك اللحظة طرق آذانهما صوت تكسر الشجيرات وأصوات القوزاق العالية وهم يقتربون على طول الشاطئ بعضهم يمتطون صهوة جيادهم . وبعضهم يسيرون على الأقدام فصاح لوكاشكا قائلاً : « هل أتيتم بالقارب ؟ »

وصاح أحد القوزاق : «إنك لفتى بارع يا لوكاشكا ! جره إلى الضفة» .

وأخذ لوكاشكا يخلع ملابسه دون أن ينتظر القارب وبصره لا يغيب أبداً عن فريسته .

وصاح الأومباشى قائلاً : « انتظر لحظة ، فإن نازاركا يأتى بالقارب »

وصاح قوزاق آخر : « أيها الغبى ! ربما كان حيًّا ويتظاهر بالموت ! خذ خنجرك معك ! »

فقال لوكاشكا وهو يخلع عنه سرواله : « إليكم عنى ! » وخلع ملابسه بسرعة ورسم علامة الصليب ، ثم ألقى بنفسه فى النهر واجتازه سباحة قاصداً المواضع الضحلة منه ضارباً الماء ضربات طويلة بذراعيه البيضاوين ، رافعاً ظهره عالياً خارج الماء ، وهو يتنفس تنفساً عميقاً ، ووقفت على ضفة النهر جمهرة من القوزاق يتكلمون بصوت مرتفع . وركب ثلاثة من الفرسان جيادهم وانطلقوا ليقوموا بأعمال الدورية ، وظهر القارب حول ثنية فى النهر ، ووقف لوكاشكا على الجسر الرملى

وانحنى على الجثة وهزها مرتين ، وصاح فى صوت حاد : « إنه ميت بلا شك ! »

وكان الججنى قد أصيب بالرصاص فى رأسه ، وقد ارتدى سروالاً أزرق وقميصاً وسترة جركسية وربط على ظهره بندقية وخنجراً ، وطوى فوق هذا كله غصناً كبيراً وهو الغصن الذى خدع لوكاشكا أول الأمر .

وصاح أحد القوزاق الذين كانوا قد اجتمعوا فى حلقة ، عندما رفعت الجثة من القارب ووضعت على الضفة ، فنقلت على الكلأ : « أى شبُّوط حملت إلى البر ! »

وقال ثان : « ما أشد شحوبه »

وقال ثالث : « أين ذهب رفاقنا يبحثون ؟ أظن أن بقيتهم على الضفة الأخرى ولو لم يك هذا الرجل كشافاً ما سبح بهذه الطريقة وإلا فما باله قد سبح بمفرده ؟ »

وقال لوكاشكا ساخراً وقد وقف يرتعد أسفل الضفة ويعصر ملابسه المبتلة : « لا شك أنه كان حاذقاً ، إذ تقدم الآخرين بنى جلدته ، ياله من زغيثى ! لقد صبغ لحيته وقص شعر رأسه »

وقال رجل من القوزاق : « ثم إنه طوى سترته على ظهره على هيئة الكيس حتى تسهل عليه السباحة »

وقال الأومباشى الذى كان قد أمسك بالخنجر والبندقية اللذين انتزعهما من الميت : « اسمع يالوكاشكا ، لتحتفظ لنفسك بالخنجر والسترة جميعاً ، ولكنى سأعطيك ثلاثة روبلات من الفضة نظير البندقية » ، ثم أردف وهو ينفخ فى فوهة البندقية : « وهأنتذا ترى أن الماسورة لا تصلح لشىء ، وإنما أريد البندقية على سبيل التذكار » .

ولم يجب لوكاشكا ، وكان من الواضح أن هذا اللون من ألوان الاستجداء

يضايقه . ولكنه كان يعلم أنه ما من سبيل لتحاشيه .

فقال مقطباً حاجبيه وملقياً بسترة الجحجى إلى الأرض : يا للشيطان ! لقد كان حريًّا به أن يتزود على الأقل بسترة سليمة ، فإن هذه لا تعدو أن تكون خرقة ! »

وقال رجل من القوزاق : « لسوف تصلح لحمل الحطب »

وقال لوكاشكا : « موسيف ، سأعود إلى دارى » ، وكان من الواضح أنه نسى غضبه ، وأراد أن يحصل على مزية لقاء ما يجب عليه من تقديم هدية إلى رئيسه .

– لا بأس . فلتعد .

وقال الأومباشى وهو لا يزال يفحص البندقية : « عودوا بالجثة إلى النطاق أيها الفتيان . وضعوا عليها غطاء يقيها الشمس ، فقد يبعثون من الجبال من يسعى لافتدائها »

وقال بعضهم : « إن حرارة الشمس لم تشتد بعد »

وقال قوزاقى : « وماذا يكون من أمره إذا أدركه ابن آوى ؟ لن يكون هذا خيراً كثيراً . أليس كذلك ؟ »

« سنقيم عليه الحراسة ، فلن يكون من الخير أن يجدوه ممزقًا إذا جاءوا يطلبون افتداءه »

فقال الأومباشى مبتهجاً : « حسن يا لوكاشكا ، قل ما تريد ، ولكن عليك أن تقدم للفتيان سطلاً من الفودكا »

وأمن القوزاق على كلامه قائلين : « طبعاً ! فتلك هى العادة ، انظر أى حظ جعله الله من نصيبك ؟ لم تبل الحياة من بعد قط ، وتقتل واحداً من الأبركة ! »

وقال لوكاشكا : « اشتروا الخنجر والسترة ولا تكونوا شحيحين ، سأدع لكم السروال أيضاً ، فهو أضيق من أن يلائمنى ، فقد كان الملعون نحيلاً » .

واشترى رجل من القوزاق السترة بروبل ، ودفع آخر ثمن سطلين من الفودكا نظير الخنجر .

وقال لوكاشكا : « اشربوا أيها الفتيان ! سأقدم لكم أنا سطلاً ! سآتيكم به من القرية بنفسى ! »

وقال نازاركا : « واقْطَعِ السروال مناديل للفتيات ! »

وانفجر القوزاق ضاحكين .

وقال الأومباشي : « كفاكم ضحكاً ! واحملوا الجثة بعيداً ، أو تتركون هذا الجثمان العفن بجانب الكوخ ؟ » .

وصاح لوكاشكا بالقوزاق فى صوت الآمر : « فيم وقوفكم هناك ، جروه أيها الفتيان ! » ، وأمسك القوزاق بالجثة فى تردد مطيعين إياه كما لو كان رئيسهم ، وجروها بضع خطوات ، ثم تركوا الساقين تسقطان ، فسقطتا على الأرض لا حراك بهما ، وابتعد القوزاق عن الجثة ، ثم وقفوا لحظات يخيم عليهم الصمت ، ثم تقدم نازاركا وعدل من وضع الرأس الذى كان مجنباً حتى ظهر الجرح المستدير الذى فوق الصدغ فانكشف وجه الميت كله .

وقال : « انظروا أية علامة تركتها الإصابة وقد استقرت فى صميم مخه ، ولن تخطئه الأنظار ، بل سيعرفه أصحابه دائماً ! »

ولم يجبه أحد ، ورفرف السكون بجناحيه مرة أخرى على رءوس القوزاق .

وكانت الشمس قد اعتلت كبد السماء وأضاءت أشعتها المنكسرة الخضرة الندية ، وأخذت مياه نهر ترك القريب تترقرق فى الغابة التى كانت قد نفضت عنها الكرى ، وراح الدراج يتنادى محيياً الصباح ، ووقف القوزاق ساكنين ساكتين حول الميت يحملقون فيه ، وكان الجسم الأسمر ، وقد تجرد من اللباس إلا من سروال

أزرق مبتل يمسكه حزام فوق البطن الغائر ، حسن التكوين ممشوق القد تدلت على جانبيه ذراعان مفتولتا العضل ، وانطرح إلى الخلف رأسه المستدير الحليق حديثاً وقد ضرب إلى الزرقة وظهر الجرح المتخثر على جانب منه ، وكان الجبين الناعم الذى لوحته الشمس يوائم كل المواءمة ذلك الجزء الحليق من رأسه ، وحملقت عيناه المفتوحتان الشبيهتان بالزجاج فى السماء وقد جمد إنساناهما كأنهما فى تحديقهما يتجاوزان كل شيء ، أما الشفتان الرقيقتان فقد بدتا مشدودتين عند زاويتى الفم كأنهما قد ثبتتا تحت الشارب الأحمر المشذب على ابتسامة فيها تهكم أريب رحيم ، وغطت المعصمين النحيلين شعيرات حمراء وانثنت الأصابع منطبقة واصطبغت الأظفار باللون الأحمر .

ولم يكن لوكاشكا قد ارتدى ملابسه بعد ، فقد كان مبتلاً . وكان عنقه أشد احمراراً وعيناه أكثر تألقاً من المألوف ، أما وجنتاه العريضتان فكانتا ترتجفان ، وقد تصاعد من جسمه السليم الصحيح فى هواء الصباح الطلق بخار تكاد تخطئه العين .

وتمتم تمتمة تجلى فيها أنه كان يعجب بالجثة : « لقد كان هو الآخر رجلاً ! »

وقال أحد القوزاق : « أجل ، ولو قد وقعت فى يده ما رأيت منه شيئاً من الرحمة ! » .

وكان ملك الصمت قد ولى وشرع القوزاق يُضَوْضُونَ هنا وهناك ، ويلغطون ، وذهب اثنان منهم ليقطعا بعض الشجيرات يحتمون بها ، وتمشى بعضهم متجهين صوب النطاق ، وركض لوكاشكا ونازاركا ، ليتأهبا للذهاب إلى القرية .

وما إن انقضت ساعة حتى كان لوكاشكا ونازاركا فى طريقهما إلى دارهما وهما يتحدثان حديثاً متصلاً ويركضان أو يكادان خلال الغابات الكثيفة التى تفصل نهر ترك عن القرية .

وكان لوكاشكا يقول لصاحبه فى صوته الحاد : « حذار أن تقول لها : إننى بعثت بك إليها ! وحسبك أن تذهب ، فترى إن كان زوجها فى الدار » .

وقال نازاركا الصديق المخلص : « وسأمر أيضاً على يامكا وسنعقد مجلس أنس ومرح ، أليس كذلك ؟ » .

وأجابه لوكاشكا قائلا : « ومتى نعقده إن لم نعقده اليوم ؟ » .

وبلغ القوزاقيان القرية فشربا وناما حتى المساء .

الفصل العاشر

فى اليوم الثالث من انقضاء الحوادث التى وصفناها بلغت سريتان من فرقة قوقازية للمشاة قرية نوفومليِنسكايا القوزاقية . وكانت السروج قد خلعت عن الجياد ووقفت عربات السريتين فى الميدان ، وكان الطهاة قد حفروا حفرة وجمعوا الحطب من الأفنية المختلفة (وكان أصحاب هذا الحطب لم يتحفظوا عليه التحفظ الكافى) . وأخذوا الآن يطهون الطعام ، وكان الباشجاويشية ينادون الأسماء وشرع رجال سلاح الخدمة يدقون الأعمدة على الأرض ؛ ليعقلوا الخيل ؛ وكان أمناء الميرة يجولون فى الشوارع كأنهم فى ديارهم ويرشدون الضباط والجنود إلى المضارب التى يعسكرون فيها .

وكان ثمة صناديق خضر للذخيرة رصت فى صف ، وعربات وجياد خاصة بالسريتين وقدور كبيرة يطهى فيها الثريد ، وكان ثمة أيضاً يوزباشى وملازم أول وباشجاويش يدعى أونيسيم ميخائيلو فتش ، وقد جرى كل ذلك فى قرية قوزاقية ؛ إذ صدرت الأوامر لجنود هاتين السريتين بأن يعسكروا فيها ، ومن هنا شعر كل منهم

بأنه فى داره .

فلم عسكر هؤلاء الجنود فى القرية ؟ ومن يكون أولئك القوزاق الذين نزلوا بينهم ؟ وهل يرضى القوزاق عن حلول الجنود بين ظهرانيهم ؟ وهل هم من المؤمنين القدامى أولا ؟ الحق أن كل هذه المسائل لم تكن مما يؤبه له أو يلتفت إليه ! وأخلى الجنود من العمل ، وكانوا منهكين يعلوهم الغبار فانطلقوا فى الميادين والشوارع يهضبون فى هرج ومرج كأنهم جماعة من النحل توشك أن تحط .

ولم يأبه الجنود بما تضطرم به قلوب القوزاق من حفيظة . وراحوا يثرثرون فى مرح . ودخلوا الأكواخ وبنادقهم تقعقع اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة . وعلقوا عتادهم وفكوا حقائبهم . وأخذوا يمزحون مع النساء ، واجتمعت طائفة كبيرة من الجنود فى مكانهم المحبوب ، حول قدور الثريد . ووضعوا غلايينهم الصغيرة بين أسنانهم . وأخذوا يحدقون تارة فى الدخان الذى بدأ يتجمع فى سحب بيضاء كثيفة وهو يتصاعد إلى السماء الحارة . وتارة إلى نيران المعسكر وهى تضطرب فى الهواء الطلق كأنها الزجاج المصهور . ويتماجنون بالقوزاق رجالاً ونساء . ويسخرون منهم : ذلك أن هؤلاء لم يكونوا يعيشون قط كما يعيش الروس . وكنت تستطيع أن ترى الجنود فى كل فناء وأن تسمع ضحكهم وصيحات نساء القوزاق الحادة المحنقة وهن يدافعن عن منازلهن أو يرفضن إعطاء الجنود ماءً أو أوانى للطهو . وتعلق الصبية والبنات الصغار بأمهاتهم أو تعلق بعضهم ببعض ، وشرعوا يراقبون كل حركة من حركات الجنود (ولم يكونوا قد رأوا جنديًّا من قبل) وقد تملكهم حب الاستطلاع الممزوج بالخوف . أو يركضون خلفهم مخلين بينهم مسافة كافية .

وكان الشيوخ من القوزاق يخرجون من دورهم فى صمت ووجوم ، ويجلسون على المصاطب حول أكواخهم يراقبون نشاط الجنود كأنهم لا يدركون أو يأبهون بما

ينتهي إليه ذلك كله .

وقد نزل أو لينين الذى كان قد التحق بالفرقة بوصفه طالباً فى المدرسة الحربية قبل ذلك بثلاثة أشهر – فى بيت من أحسن بيوت القرية . وهو بيت حامل العلم إيليا فاسيليفتش : أى عند السيدة أوليتكا .

وقال فانيوشا وهو يلهث مخاطباً أولينين : «والله يعلم كيف تكون الحياة هنا يا ديمترى أندرييفتش » وكان فانيوشا يرتدى سترة جركسية ويركب جواداً من فصيلة كاباردا اشتراه فى جروزنايا . وقد أخذ يلج فناء المنزل الذى خصص له منطلق الأسارير بعد مسيرة خمس ساعات .

وسأله أولينين : «كيف ؟ وما الخبر؟ » . وراح يداعب جواده . وينظر فى مرح إلى فانيوشا الذى كان قلقاً أشعث الشعر يتصبب عرقاً . وقد وصل بالعربات وأخذ يفك المتاع المحزوم الذى كانت تحمله .

وبدا أولينين رجلاً يختلف كل الاختلاف وما عهدناه . فقد أصبح له شارب فتى ولحية قصيرة بعد أن كان حليق الشارب واللحية . أما وجهه الشاحب الذى كان قد أنهكه سهر الليالى فقد تورد منه الآن الخدان والجبين والإهاب الذى يلتف بأذنيه ، ولفعته سمرة الشمس الناطقة بالصحة والعافية . ولم يبد كما عهدناه فى سترته الرسمية السوداء الجديدة . بل كان يرتدى سترة جركسية بيضاء قذرة ونقبة حافلة بالطيّات . ويحمل بندقية على كتفه ، وهجر البنيقة المنشاة لتوها . وربط رقبته بالشريط الأحمر لصدرته الحريرية وكان يرتدى اللباس الجركسى . ولكنه لم يكن يحسن ارتداءه . فإذا رآه أحد أدرك أنه روسى وليس من الزغيث . كانت تبدو عليه سيماء الجراكسة . ولكن شتان بين الأصل والتقليد ، ومع ذلك كله فقد كان كيانه كله ينطق بالصحة والغبطة ورضا النفس .

وقال فانيوشا : « أجل . يبدو لك هذا مضحكاً . ولكن حاول أنت نفسك أن تتحدث إلى هؤلاء القوم تجدهم يزورون عنك وهكذا ينتهى الأمر ، ولاتستطيع أن تفوز منهم حتى بكلمة » . وألقى فانيوشا بدلو على العتبة غاضباً ، ثم استرسل : « إن فيهم شيئاً يجعلهم يختلفون هم والروس » .

« عليك أن تتحدث فى ذلك إلى شيخ القرية » .

فقال فانيوشا فى لهجة غلب عليها الحنق : « ولكنى لا أعرف أين يقيم ؟ » .

وسأله أولينين وهو ينظر حوله : « من ذا الذى أغضبك كل هذا الغضب ؟ » .

فأجاب فانيوشا وهو يضع يديه على رأسه : « لا يعلم ذلك إلا الشيطان ! لا أجد للقوم شيخاً بمعنى الكلمة هنا . يقولون إنه ذهب إلى كريجة[1] من الكريجات . أما المرأة العجوز فهى والشيطان سواء ! اللهم احفظنا » ، ثم ختم كلامه قائلاً : « لست أدرى : كيف نعيش هنا ؟ فالقوم أسوأ من التتر ، وهم يدعون أنهم مسيحيون ! إن التترى شرير حقًّا . ولكنه مع ذلك أكثر منهم نبلاً ، ذهب إلى « الكريجة » بلاريب ! ولكنى لا أعلم ماذا تكون « كريجتهم » هذه ؟ ثم انتحى جانباً .

وقال له أولينين مازحاً دون أن يترجل عن جواده : « ألا يشبه هذا المنزل غرف الخدم فى بلدنا ؟ »

وقال فانيوشا ، وقد بدا أن هذه الظروف الجديدة قد بعثت فى نفسه الحيرة إلا أنه استسلم لمصيره : « أفلا تتفضل علىّ بجوادك ؟ »

وعاد أولينين يقول وهو يترجل عن جواده ويضرب السرج « إذن فالتترى أكثر نبلاً ، أليس كذلك يا فانيوشا ؟ » .

---

(١) الكريجة : موضع مسور على ضفة النهر يستخدم لصيد السمك

وتمتم فانيوشا غاضباً : « اضحك ، على رسلك ، إنك لتظن أن الأمر يبعث على الضحك »

فأجابه أولينين وهو لا يزال يبتسم : « لا عليك ! اترك الغضب يا فانيوشا ، فإنى ذاهب لأتحدث مع أهل الدار ولترين أنني سأسوى كل شيء . إنك لا تدرى ما سنصيب فى حياتنا هنا من مرح ، وكل ما أطلبه منك ألا تغضب » .

ولم يجب فانيوشا ، بل قطب ما بين حاجبيه وشيع سيده بنظرة ازدراء ، وهز رأسه . ولم يكن فانيوشا ينظر إلى أولينين إلا نظرة الخادم إلى سيده . وكذلك كان أولينين لا ينظر إلى فانيوشا إلا نظرته إلى خادم ، ولو أن أحداً قال لهما : إنهما صديقان ، كما كانا فى الواقع على غير وعى منهما — لبلغت منهما الدهشة كل مبلغ ، وكان فانيوشا قد حُمِل إلى منزل سيده وهو بعد فى الحادية عشرة من عمره ، وكان أولينين فى هذه السن نفسها ، وعندما بلغ أولينين الخامسة عشرة لقن فانيوشا بعض الدروس مدة من الزمن وعلمه قراءة الفرنسية ، وكان فانيوشا فخوراً بذلك كل الفخر ، وهو لا يزال على عهده يتفوه ببعض الكلمات الفرنسية إذا تملكه السرور ، ويضحك دائماً فى بلادة وغباء إن فعل هذا .

وارتقى أولينين فى عجلة درج المدخل . ودفع باب الكوخ فانفتح وقفزت ماريانكا بعيدة عن الباب فزعة مضطربة . ولم تك ترتدى إلا قميصاً وردياً . شأن نساء القوزاق جميعاً وهن ملازمات لبيوتهن والتصقت بالجدار . وغطت الجزء الأسفل من وجهها بكمها العريض . ودفع أولينين الباب فزاد انفراجاً . ورأى فى غبشة الدهليز طيف الفتاة القوزاقية المليح الممشوق . ورمق بفضول الشباب المتلهفين المشوقين ذلك الجسم العذرى الغض يفضحه القميص المطبوع الرقيق . وتلك العينين السوداوين الجميلتين اللتين أخذتا تحدقان فيه فى رعب كالأطفال

وتشوف فطرى لا تكلف فيه ولاصناعة .

وقال أولينين يحدث نفسه : « هذه هى » . وطرأ على ذهنه فى الحال ما جعله يستدرك قائلاً : « ولكنى سأجد كثيرات من أمثالها فى القرية » . ثم فتح الباب الداخلى .

وكانت السيدة أولتيكا منحنية وظهرها إليه تكنس الأرض ولم تكن ترتدى هى أيضا إلا قميصاً .

وأنشأ يقول : طاب صباحك أيتها الأم ! لقد جئت أحدثك فى شأن مسكنى »

والتفتت المرأة القوقازية إليه بوجهها الصارم الذى احتفظ بما كان عليه من وسامة دون أن تنتصب قامتها . ثم صاحت وهى تنظر إلى ذلك الوافد الجديد شزراً من تحت جبينها المقطب :

« ماالذى جاء بك إلى هنا ؟ أتريد أن تسخر منا ؟ سأعلمك كيف نسخر ؟ ألا فليحل بك الطاعون ! » .

وكان قد خيل إلى أولينين أول الأمر أن القوم سيستقبلون جيش القوقاز الباسل الذى أنهكه الطريق – وكان هو فرداً من أفراده – بالابتهاج فى كل مكان ، وخاصة القوزاق رفقاءهم فى الحرب ، ومن ثم تحير فى أمر هذا الاستقبال . وحاول وهو يحتفظ بسرعة خاطره أن يشرح للمرأة أنه قصد أن يدفع أجر مسكنه إلا أن العجوز أبت أن تلقى بسمعها إليه .

وصرخت السيدة العجوز بصوت حاد . ولم تترك لأولينين الفرصة للكلام : « لماذا جئت ؟ ومن ذا الذى يود طاعوناً مثلك بوجهك الأملط الذى يشبه رأس السمكة ؟ انتظر لحظة حتى يعود رب الدار فيريك المكان الذى ستنزل فيه . ولا أريد نقودك القذرة ! نقوداً . عجباً ! كأننا لم نر نقوداً قط ! لتلوثن المنزل

بطباقك الحقير . ثم تروم أن تطهره بنقودك ! أو لم نر أوبئة على شاكلتك من قبل ؟ ألا فليصبك الرصاص فى أمعائك وقلبك ! »

وقال أولينين يحدث نفسه : «يبدو أن فانيوشا كان على حق ! إن التترى لأكثر نبلاً » . وخرج من الكوخ تشيعه لعنة السيدة أولتيكا . وفيما هو يغادره انفلتت ماريانكا من الدهليز فجأة ومرت به . وكانت لا تزال ترتدى قميصها الوردى دون سواه . إلا أنها كانت قد أخفت وجهها إلى ما تحت عينيها بمنديل أبيض ، وهبطت الدرج مسرعة تطرقع بقدميها العاريتين . ثم هبطت ركضاً من مدخل الكوخ ، ونظرت إلى الشاب نظرة خاطفة بعينيها الضاحكتين ، وما لبثت أن اختفت خلف ناصية الكوخ .

وأُخذ أولينين أشد من ذى قبل بخطوتها الفتية الثابتة والنظرة الآبدة تتألق من عينيها تحت المنديل الأبيض . وقوامها اللدن المكتنز .

وقال يحدث نفسه : أجل إنها هى ولاسواها ، وظل يلتفت خلفه إلى ماريانكا وهو يقترب من فانيوشا وقد قل اهتمامه بأمر المسكن أكثر وأكثر .

وقال فانيوشا ، وقد علا وجهه شيء من البشر بالرغم من أنه كان لا يزال مشغولاً بأمر المتاع : « أرأيت ؟ إن الفتاة متوحشة توحش سائر أهل البلد ، حتى لكأنها مهرة وحشية ! » ، ثم أردف يقول بالفرنسية فى صوت مرتفع نم عن الفوز : « آه من المرأة ! » . وانفجر ضاحكاً .

الفصل الحادى عشر

عاد رب البيت من صيد السمك قبل أن يحل المساء ، وعلم بأن طالب المدرسة الحربية يريد أن يدفع أجر مسكنه . فطيب خاطر المرأة العجوز . وأجاب فانيوشا إلى طلباته .

واستقر الأمر بهما فى مسكنهما الجديد ، فقد انتقل أصحاب المسكن إلى المنزل الشتوى . وتركوا الكوخ الصيفى للطالب لقاء ثلاثة روبلات فى الشهر . وتناول أولينين شيئاً من الطعام . وذهب لينام ، واستيقظ قبيل المساء واغتسل . ثم أصلح من شأنه وتناول عشاءه . ثم أشعل لفافة تبغ ، وجلس بجانب النافذة التى تطل على الشارع . وكان الجو قد ازداد لطفاً . وامتد الظل المائل للكوخ بأسقفه الهرمية المزينة مجتازاً الطريق المغبر . بل تسلق قاعدة المنزل المقابل الذى كان سقفه الشديد التحدر المغطى بأعواد القصب يلمع فى أشعة الشمس الغاربة ، وازداد الهواء رقة وصفاء ، وكان كل ما فى القرية ينطق بالأمن والسكينة ، فقد استقر الجنود وأخلدوا إلى الهدوء ، ولم تك القطعان قد سيقت بعد إلى القرية ، ولا عاد القوم من عملهم .

وكان مسكن أولينين فى طرف القرية تقريباً ، وكانت أصوات إطلاق النار المكتومة تطرق الآذان فى فترات نادرة من مكان ما فى الفضاء البعيد وراء نهر ترك ، وفى الاتجاه الذى قدم منه أولينين (فى جبال الحجن أو فى سهل كوميك) ، وكان أولينين راضى النفس كل الرضا ، بعد أن عاش فى المعسكرات الخلاوية ثلاثة أشهر . وكان يشعر أن وجهه الذى غسله لتوه قد غدا ناضراً وأن جسمه القوى قد أصبح نظيفاً (وهو شعور لم يألفه بعد الحملة) ، وأن جميع أعضائه المستريحة قد سرى فيها شعور بالهدوء والقوة . وأن عقله أيضاً قد شمله النقاء والصفاء !

كان يفكر فى الحملة وما ألم به من أخطار ، وتذكر أنه واجه هذه الأخطار بروح لاتقل عن روح غيره ، وأن الجنود قد قبلوه رفيقاً فى صفوف القوقازيين الشجعان ، أما ذكرياته عن موسكو فقد تركها وراءه والله يعلم بعد الشقة بينه وبينها الآن ! لقد انمحت حياته القديمة وبزغ فجر حياة جديدة كل الجدة لم يقع فيها حتى الآن شىء من الأخطاء . وهو يستطيع هنا أن يكسب سمعة جديدة طيبة بوصفه رجلاً جديداً بين قوم جدد ، كان يحس ببهجة الحياة ، بهجة خالصة فتية لا يعرف لها علة ولا سبباً ، وكان يطل من النافذة حيناً ويشاهد الأطفال يُدَورون دواماتهم فى ظل المنزل ، ويدور ببصره حيناً آخر فى أرجاء مسكنه الصغير الجديد ، ويحدث نفسه بالمتعة التى سوف تصيبه باستمراره فى هذه الحياة الجديدة بالقرية القوزاقية ، وكان يسرح ببصره الفينة بعد الفينة فى الجبال والسماء فيحس بما عليه الطبيعة من عظمة مهيبة ويمتزج هذا الإحساس بذكرياته وأحلامه ، لقد بزغ فجر حياته الجديدة ، على نحو يخالف ما تخيله عندما رحل عن موسكو ، بل إن هذا الفجر قد أشرق إشراقاً لم يدر فى حسابه ، الجبال ، الجبال ، الجبال ، لقد كانت قوام كل أفكاره ومشاعره .

وأخذ صبية القوزاق الذين كانوا يدورون دواماتهم تحت النافذة يصيحون فجأة وهم ينظرون إلى الطريق الجانبي : « لقد قبل كلبه مودعاً ! ولعق القدر ! لقد قبل العم يـروشكا كلبه ! »

وصاح الأطفال وهم يحتشدون ويتراجعون : « لقد قبل كلبه وباع خنجره لقاء كأس ! » .

وكانت هذه الصيحات موجهة إلى العم يـروشكا . وهو عائد من رحلة صيد وقد حمل بندقيته على كتفه ، وتدلى بعض الدراج من حزامه .

وقال وهو يلوح بذراعيه بقوة ، ويرفع بصره إلى النوافذ على جانبي الطريق : «لقد أخطأت أيها الفتيان ! لقد أخطأت ! » ، وعاد يقول وهو بادى الغضب وإن كان يتظاهر بعدم المبالاة : « تركت الكلب يذهب ليشرب كأساً ، وكان هذا خطأ مني ! » .

وعجب أولينين من سلوك الأطفال نحو الصياد الشيخ إلا أن عجبه كان أعظم لرؤية الوجه الذكى الصادق والبنية القوية لذلك الرجل الذى ناداه الصبيان بالعم يـروشكا .

فصاح به أولينين : « هنا أيها العم ! هنا أيها القوزاق ! تعال هنا ! » .

ونظر الشيخ إلى النافذة ووقف .

وقال وهو يرفع قبعته الصغيرة عن رأسه الحليق : «طاب مساؤك أيها الصديق الكريم ! » .

فأجابه أولينين : « طاب مساؤك أيها الصديق الكريم ، ما هذا الذى جعل أولئك الصغار يتصايحون عليك ؟ » .

واقترب العم يـروشكا من النافذة ، وقال بتلك النبرات الموسيقية الثابتة التى

يتحدث بها الشيوخ من أهل الوقار : «إنما هم يعابثون رجلاً مسنًّا ، ولا عليهم ، فإن عبثهم هذا يروق لى ، دعهم يتندرون بعمهم الشيخ » ، ثم أردف يقول : « أأنت قائد الجند ؟ » .

فأجابه أولينين : « كلا ، فإنى طالب فى المدرسة الحربية » ، ثم سأله : « ولكن أين أصبت تلك الدراج ؟ » .

فقال الشيخ وهو يدير ظهره العريض إلى النافذة ليريه فرخات الدراج التى كانت مدلاة ورءوسها مثبتة فى حزامه تلوث سترته بدمائها : «صدت هذه الفرخات الثلاث فى الغابة ! » .

ثم سأله : « ألم تر فرخات من قبل ؟ » ، خذ زوجاً منها إذا شئت ! « وناوله فرختين من النافذة ثم سأله : « هل أنت صياد أيضاً ؟ » .

«أجل وقد أصبت منها أربعاً خلال الحملة» .

فقال الشيخ فى تهكم : « أربعاً ؟ عدد عظيم ! أو تشرب الخمر ؟ وهل تتناول الجكير؟ » .

« لم لا ؟ إن الشراب يطيب لى » .

فقال العم يروشكا : «آه ! أرى أنك شاب ظريف ، سنكون أنت وأنا صديقين حميمين» .

وقال أولينين : « ادخل ، ستتناول شيئاً من الجكير» .

فأجاب الشيخ : « حرى بى أن أفعل ، ولكن خذ الفرختين » ، وبدا على وجه الشيخ أنه أحب طالب الحربية ، وأدرك لتوه أنه مستطيع أن يحصل من الطالب على كئوس من الشراب من غير مقابل ، وأن الفرختين لن تضيعا هباء .

وسرعان ما ظهر العم يروشكا على باب الكوخ ، ولم يدرك أولينين حق الإدراك

ما كان عليه هذا الرجل من كبر الحجم وضخامة البنيان إلا فى ذلك الوقت ، وبدا وجهه الأسمر الضارب إلى الحمرة بلحيته العريضة الناصعة البياض ، خطت الشيخوخة والعمل الشاق خطوطاً عميقة فيه ، وكانت عضلات ساقيه وذراعيه وكتفيه كبيرة وبارزة إلى حد عجيب لا نعهده فى الشيوخ ، وكانت تعلو رأسه ندوب غائرة ، وتغطى رقبته الغليظة القوية ثنيات عميقة متقاطعة كأنها رقبة ثور وتغشى يديه الصلبتين سحجاتٌ وخدوش ، وتخطى الرجل عتبة الباب فى خفة ويسر ، وخلع بندقيته ووضعها فى ركن ، ثم ألقى نظرة خاطفة على الغرفة ، ولاحظ قيمة المتاع والأثاث الذى فى الكوخ ، ثم خطا إلى وسط الغرفة وأصابع قدميه مرفوعة ، وكان ينتعل خفًّا من الجلد غير المدبوغ ، تفعمه ريح قوية هى مزاج من الجكير والفودكا والبارود والدم المتخثر.

وانحنى العم يروشكا أمام الأيقونات ، وسوى لحيته ، ثم اقترب من أولينين ، ومد إليه يده الغليظة السمراء وقال : « كوشكيلدى » ، وهذه هى العبارة التترية المرادفة لـ « طاب صباحك » ، أما فى لغة هؤلاء القوم فمعناها « السلام عليك » .

فأجاب أولينين وهو يصافحه : « كوشكيلدى ! وإنى لأعرف ذلك » .

فقال العم يروشكا وهو يهز رأسه كأنه يلومه : « كلا ، إنك لا تعرف ، لا تعرف الرد الصحيح أيها الأحمق ! ذلك أنه إذا قال لك أحد « كوشكيلدى » وجب أن يكون ردك عليه « الله راسى بوسون » أى « حفظك الله » . وهكذا يكون الرد يا رجل ، وليس كوشكيلدى ، لقد كان يقيم بيننا هنا رجل اسمه إيليا موسيتش ، وهو أحد مواطنيكم الروس ، وكنا صديقين حميمين ، لقد كان إيليا هذا فتى ولا كالفتيان ، سكيراً ولصًّا وصياداً — وأى صياد ! لقد علمته كل شىء ! » .

وسأله أولينين وقد بدأ الشيخ يثير اهتمامه أكثر وأكثر : « وما الذى عزمت أن تعلمنى إياه ؟ » .

« سآخذك معى للقنص ، وأعلمك صيد السمك ، وسأريك الججن ، بل أبحث لك عن فتاة إن شئت ! فعلى هذا طبعت ! إننى أصلح لكل شىء ! »
وضحك الشيخ ثم قال : « لأجلس فإنى متعب » ، ثم أردف متسائلاً : « كارجا ؟ » .

وسأله أولينين : « وما معنى كارجا ؟ » .

« عجباً ، إن معناها « لا بأس » فى لغة الكرج ، ولكنى أقولها فى كل مناسبة ، وهذا وكدى ، بل هى الكلمة المفضلة عندى ، فأنا أقول من غير مناسبة كارجا ، كارجا ، أقصد أننى أقولها وأنا أمزح ، إيه يا رجل ! أفلا تأمر لنا بشىء من الجكير ؟ أليس عندك جندى يقوم على خدمتك ؟ » ، وصاح الشيخ : » إيه يا إيفان ؟ كل الجنود اسمهم إيفان ، فهل اسم خادمك إيفان ؟ » .

« صدقت كل الصدق » ، إن اسمه إيفان – فانيوشا[1] ، إلى . . . إلينا يا فانيوشا هلا أتيت ببعض الجكير من ربة الدار وحملته لنا هنا ! » .

وقال الشيخ : « يستوى أن يكون اسمه إيفان أو فانيوشا ، لم تسمون جنودكم جميعاً باسم إيفان ؟ إيفان يا صديقى ، قل لهم : أن يعطوك شيئاً من الدن الذى افتضوه وشيكاً . فإن عندهم خير جكير فى القرية ، ولكن حذار أن تدفع أكثر من ثلاثين كوبكا ثمناً له : ذلك أن تلك الحيزبون سيستخفها الفرح . . . ! » . واسترسل العم يروشكا يقول فى لهجة من يسر بشىء بعد أن خرج فانيوشا :

---

(١) فانيوشا : هو اسم التدليل من إيفان

« إن قومنا قوم أغبياء حلت عليهم اللعنة ، فهم لا ينظرون إليكم نظرتهم إلى أناس من بنى البشر ، بل إنكم فى نظرهم لأسوأ من التتر ، وهم يصفونكم بقولهم : إنكم « الروس من أهل الدنيا » ، أما بالنسبة لك فإنك فى نظرى مازلت إنساناً فيك روح بالرغم من كونك جنديًّا ، أليس هذا صحيحاً ؟ لقد كان إيليا موسييتش جنديًّا ، ولكن أى ذخر كان يحمله بين برديه ؟ أليس كذلك يا صديقى ؟ ولهذا السبب لا يحبنى قومى ، ولكنى لا أحفل بذلك ، فأنا رجل مرح أحب كل إنسان ، أنا يـروشكا ، أجل يا صديقى » .

وربت القوزاقى الشيخ على كتف الشاب فى ود ومحبة .

الفصل الثانى عشر

كان فانيوشا بادى السرور والانشراح ؛ فقد فرغ فى هذه الأثناء من ترتيب أموره المنزلية . بل حلق ذقنه عند حلاق السرية . ونزع سرواله من طاقه دلالة على أن السرية استقرت فى أماكن مريحة . وراح ينظر إلى يروشكا نظرة انتباه لا نظرة الشفقة والبر . كأنه إزاء وحش لم يره من قبل قط . ثم هز رأسه مرخياً بصره إلى الأرض التى كان الشيخ قد لوثها ، وذهب إلى ربة الدار بعد أن أخرج زجاجتين من تحت أريكة من الأرائك .

وقال وقد صح منه العزم على أن يكون غاية فى اللطف والدماثة : « طاب مساؤكم يأهل الفضل ، لقد بعث بى سيدى للحصول على شىء من الجكير أفلا تخرجون لى شيئاً منه يا أصحاب الكرم ؟ » .

ولم تحر المرأة العجوز جواباً . والتفتت الفتاة فى صمت إلى فانيوشا . وكانت تسوى منديلاً على رأسها أمام مرآة تترية صغيرة .

وقال فانيوشا وهو يشخشخ بقطع النقود البرونزية فى جيبه : «سأؤدى لكم ثمنه

أيها القوم المحترمون » ، ثم أردف : « أكرمونا نكرمكم » .

فسألته العجوز فى اقتضاب : « كم تطلب ؟ » .

« ثُمناً »[١] .

فقالت السيدة أولتيكا موجهة الحديث إلى ابنتها : « اذهبى وائتى له بشىء من الجكير يا عزيزتى ، خذيه من الدن الذى افتضضناه يا غالية » .

وأخذت الفتاة المفاتيح والزجاجة ، وخرجت من الدار فى صحبة فانيوشا .

وسأل أولينين يروشكا مشيراً إلى ماريانكا التى كانت تمر بالنافذة : « خبرنى من تكون هذه الفتاة ؟ » وغمز العم يروشكا الشاب ولكزه بمرفقه ، وقال له : « انتظر قليلاً » ، وأطل من النافذة ، وسعل : « إحم » ، ثم صاح فى صوت كالخوار : « يا عزيزتى ماريانكا ، إيه يا بنيتى ماريانكا ! ألا تحبيننى يا حبيبتى ؟ » ثم همس فى أذن أولينين : « إننى أصلح لكل شىء »

ولم تلتفت الفتاة برأسها إليه ، بل مرت بالنافذة تهز ذراعيها فى حركة منتظمة نشيطة ، منطلقة بتلك الخطوة الرشيقة الجريئة المعهودة فى المرأة القوزاقية ، واكتفت بأن أدارت عينيها المكحلتين ببطء تجاه الشيخ .

وصاح يروشكا : « هى لى حبك تكتب لك السعادة » ، ثم غمز بعينيه ونظر نظرة المتسائل إلى طالب الحربية قائلاً : « إننى رجل ظريف ، بل أنا كالملح فى الطعام ! إن تلك الفَتَاة لملكة سماوية ، أليس كذلك ؟ »

فقال أولينين : « إنها لفاتنة ، ادعها إلى هنا ! »

فأجاب الشيخ : « كلا ، كلا ، إن تلك الفتاة ستتزوج لوكاشكا وهو قوزاق كريم شجاع فقد قتل رجلاً من الأبركة منذ أيام ، وسأبحث لك عن فتاة خير منها ،

---

(١) أى ثمن جالون

سأبحث لك عن فتاة تخطر فى الحرير والفضة . وأنا إذا قلت شيئاً فعلته ، سأبحث لك عن آية من آيات الحسن » .

فقال أولينين : « أنت الشيخ . . . وتصدر منك هذه الأقوال وى ، إنها لمعصية ! »

فقال الشيخ بلهجة التوكيد : « معصية ؟ أين هى المعصية ؟ أمن المعصية أن ينظر المرء إلى فتاة حسناء ؟ أمن المعصية أن يداعبها . أو أن المعصية أن يحبها ؟ أهذا هو الشأن فى بلادكم ؟ كلا يا صديقى ، ليست فى ذلك معصية بل فيه خلاص النفس ! فالله هو الذى خلقك . وهو الذى خلق الفتاة أيضاً . وهو خالق كل شىء . وليس من المعصية أن تنظر إلى فتاة جميلة . لقد خلقها الله لهذا . خلقها لتحب وتشيع البهجة والسرور . وهذا هو رأيى . يا صديقى »

وكانت ماريانكا قد اجتازت الفناء ، ودخلت مخزناً مظلماً رطباً مليئاً بالدنان ، ثم يممت شطر دن منها وتلت الصلاة المألوفة . وأدلت فيه بدلو وكان فانيوشا يقف بالباب مبتسماً وهو ينظر إليهم ودار بخلده أن من أعجب الأمور ألا ترتدى الفتاة إلا قميصاً محبوكا من الخلف ، مشموراً من الأمام ، وأعجب من ذلك أن تتقلد قلادة من النقود الفضية ، ورأى فى ذلك مجافاة شديدة لما ألفه الروس ، وأن كل من ينزل بأحياء رقيق الأرض فى بلدة خليق بأن يضحك إذا رأى فتاة كهذه ، وحدث نفسه قائلاً : « لا بأس بالفتاة قط على ما هى عليه ، وذلك من قبيل التغيير ، وسأنبئ سيدى بهذا الخاطر » .

وصاحت الفتاة فجأة : « فيم وقوفك فى الضوء أيها الشيطان لم لا تناولنى الزجاجة ؟ »

وملأتماريانكا الزجاجة بالخمر الحمراء الرطيبة وناولت فانيوشا إياها .

وقالت وهى تدفع يده التى كانت تحمل النقود : « أعط أمى النقود » .

وضحك فانيوشا ، ثم قال فى رقة وهو يبدل قدميه متردد الفكر حائراً على حين كانت الفتاة تغطى الدن : « ما بالك مسرفة فى الغلظة يا عزيزتى ؟ »

وراحت الفتاة تضحك ثم قالت : « وأنت ! أتراك رقيق الحاشية ؟ »

فأجاب فانيوشا فى قوة وعزم : « إننا ، سيدى وأنا ، على حظ عظيم من رقة الحاشية ، بل لقد بلغ من رقة حاشيتنا أننا أينما حللنا كان مضيفونا يلهجون دائماً بالثناء المستطاب علينا ، ذلك أن سيدى من النبلاء »

ووقفت الفتاة تنصت إليه . .

ثم سألته : « وهل سيدك متزوج ؟ »

قال فانيوشا يزيدها علماً : « كلا ، إن سيدى صغير السن لم يتزوج بعد ، والسادة النبلاء لا يتزوجون أبداً صغاراً »

وهتفت تقول : « صغير السن جدًّا ! أثور ضخم كبير مثله أصغر من أن يتزوج ؟ » ثم سألته : « هل هو رئيسكم كلكم ؟ » .

وشرع فانيوشا يقول فخوراً : « إن سيدى طالب بالمدرسة الحربية ، أى أنه لم يصبح بعد ضابطاً ، ولكنه أعظم شأناً من قائد جيش ! إنه لرجل عظيم الشأن يعرفه أميرالاى سريتنا بل القيصر نفسه ! ذلك أننا لسنا على شاكلة أولئك الشحاذين من أفراد الكتيبة النظامية ، فقد كان أبوه عضواً فى مجلس الشيوخ ، وكان له ألف ونيف من رقيق الأرض كلهم ملك يمينه ، وكانوا يبعثون إلينا بألف روبل دفعة واحدة ، وهذا هو السر فى أن الجميع يحبوننا ، وقد يبلغ غيره رتبة اليوزباشى ويكون خلو الوفاض من المال ، فما فائدة ذلك ؟ ».

وقالت الفتاة مقاطعة إياه : « اذهب فإننى سأغلق المخزن »

وحمل فانيوشا الخمر إلى أولينين وقال له بالفرنسية : « إن الفتاة جميلة جدًّا ! » ، ثم ضحك فى غباء وخرج من فوره .

الفصل الثالث عشر

كان نفير « نوبة الانصراف » قد انطلق فى هذه الأثناء فى ميدان القرية ، وعاد القوم من أعمالهم ، وأخذ القطيع يخور وقد احتشد عند باب القرية فبدا كسحب انعقدت من الغبار الذهبى ، وهرعت الفتيات والنساء مجتازات الطرق والأفنية يسقن مواشيهن واختفت الشمس تماماً خلف قمم الجبال النائية المكللة بالجليد وانتشر فوق الأرض والسماء ظل شاحب ضارب إلى الزرقة ، وكانت الكواكب الباهتة اللون قد أخذت تتألق فوق البساتين المعتمة ، وبدأت الأصوات تخمد فى القرية رويداً رويداً وعنيت النساء بأمر الماشية وتركنها تبيت ليلتها ، ثم خرجن وتجمعن عند نواصى الطرقات ، وجلسن على مصاطب المنازل وهن يقضقضن بذور عباد الشمس بين أسنانهن ، وكانت ماريانكا قد فرغت من حلب البقرتين وجاموسة فلحقت بإحدى هذه الجماعات ، وكانت مؤلفة من بضع نساء وفتيات ومن شيخ قوزاق ، ودار الحديث بينهم عن ذلك الرجل من الأبركة الذى لقى مصرعه ، وكان القوزاقى يروى القصة والنساء يوجهن له الأسئلة .

وقالت إحدى النساء : «أعتقد أنه سينال مكافأة سخية»

– بلا ريب ، وقد قيل : إنهم سينعمون عليه بوسام الصليب .

ولكن موسيف حاول أن يظلمه إذ أخذ منه البندقية ، غير أن ولاة الأمور فى كرليار سمعوا بالخبر .

– إن موسيف لمخلوق دنىء !

وقالت إحدى الفتيات : «يقولون : إن لوكاشكا قد عاد إلى القرية» .

– إنه ونازاركا يلهوان فى محل يامكا (وكانت يامكا امرأة قوزاقية غير متزوجة سيئة السمعة ، تملك خمارة) «وقد سمعت أنهما قد شربا نصف سطل من الخمر»

وقالت إحدى النساء : «ما أسعد حظ هذا «الأورفان !» ، إنه «لمتشل» حقًّا ، ولكن لا سبيل للإنكار إنه شاب ذكى لا يعجزه شيء ، بل هو فتى راجح العقل ! وقد كان أبوه العم كرياك من هذا الطراز تماماً ، والفتى يحذو حذو أبيه الذى حزنت عليه القرية بأسرها عندما لقى مصرعه» ، وأردفت المتكلمة تقول وهى تشيرإلى القوزاقيين اللذين كانا مقبلين من الطريق نحوهم : «انظروا ها هما ذان يقدمان ، وقد تمكن يرجوشوف من الحضور معهما ! يا للسكير !» .

وكان لوكاشكا ونازاركا ويرجوشوف قد شربوا نصف سطل من الفودكا ، وأقبلوا فى اتجاه الفتيات ، وكانت وجوه الرجال الثلاثة وخاصة وجه القوزاقى العجوز – أكثر توردا من المعتاد ، وكان يرجوشوف يترنح ، وقد لج فى الضحك ، وراح يلكز نازاركا بين الضلوع .

ثم صاح بالفتيات : «لم لا تغنين ؟ أقول لكن : هيا أنشدن وشاركننا مرحنا !»

واستقبلهم الجمع هاتفاً : «أوقضيتم وقتاً طيباً ؟ أوقضيتم وقتاً طيباً ؟»

وقالت إحدى النساء : « وما الذى يدعونا إلى الغناء واليوم ليس بيوم عيد ؟ أنتم سكارى ، فاذهبوا وغنوا »

وانفجر يرجوشوف ضاحكاً ولكز نازاركا وقال : « يجمل بك أن تغنى . وسأبدأ أنا أيضاً ، ولتعلم أنى أجيد الغناء» .

وقال نازاركا : « وى ! أو تستسلمن للنوم يا فتياتى الحسان ؟ لقد جئنا من النطاق لنلهو ونمرح ، وقد شربنا لتونا نخب لوكاشكا »

وعندما بلغ لوكاشكا الجماعة رفع قبعته ببطء ووقف أمام الفتيات وقد توردت صفحتا وجنتيه ورقبته وتحدث فى رقة ورزانة ، على أن هدوءه ورزانته كان فيهما من الحيوية والقوة أكثر مما فى حديث نازاركا كله من فصاحة وصخب ، وكان لوكاشكا فى ذلك يذكر المرء بمهر لعوب ، ينفخ بمنخره ويلوح بذيله ، ثم يكف فجأة ويقف كأن قوائمه الأربع قد سمرت بالأرض جميعاً ، كان يقف فى هدوء أمام الفتيات ضاحك العينين لا يتحدث إلا قليلاً ، ينظر إلى زميليه الثملين تارة ويرمق الفتيات تارة أخرى .

ولحقت ماريانكا بالجماعة ، فرفع قبعته بحركة ثابتة متئدة ، وأفسح لها الطريق ، ثم وقف قبالها ، وقد مد إحدى قدميه إلى الأمام قليلاً ووضع إبهاميه فى حزامه ، وراح يعبث بخنجره ، وأجابته ماريانكا على تحيته بانحناءة رقيقة من رأسها ، واستقرت على المصطبة ، وأخرجت بعض البذور من صدر قميصها ، وأخذ لوكاشكا يقضقض البذور فى بطء بأسنانه ويلفظ القشر محدقاً النظر فى ماريانكا ، وخيم السكون على الجماعة عندما لحقت بها الفتاة .

وسألته امرأة قاطعة حبل الصمت : «أوقد جئت لتقيم بيننا طويلاً؟» .

فأجاب لوكاشكا فى رصانة ووقار : «حتى صباح الغد» .

وقال الشيخ القوقازى : «كتب الله لك التوفيق ، إنى لسعيد بك كما كنت أقول توًّا »

وقال يرجوشوف الثمل وهو يضحك : « وإنى لأشاركك فى القول أيضاً » ، وأردف مشيراً إلى جندى كان يمر بهم : « ما أكثر من يحل بيننا من ضيوف ! إن فودكا الجنود طيبة وإنى لأستعذبها » .

وقالت إحدى النساء : « لقد بعثوا إلينا بثلاثة من هؤلاء الشياطين ، وقد فزع جدى إلى شيوخ القرية فقالوا : إنهم لا يستطيعون حيالهم شيئاً »

وقال يرجوشوف : «آه ! إذن فقد لقيت بعض المتاعب ، أليس كذلك ؟ »

وقالت امرأة أخرى : « أظن أن رائحة طباقهم قد حملتك على ترك دارك ! أما أنا فأقول لهم : دخنوا ما شئتم فى الفناء ، ولكننا لا نسمح لكم بالتدخين فى داخل الكوخ ، ولو جاءنا شيخ القرية نفسه فلن أسمح بذلك ، ثم إنهم قد يسرقونك ، ومادام هذا الشيخ ابن الشيطان لم يستضف أحداً منهم — فلا ضير عليه »

وشرع يرجوشوف يقول مرة أخرى : « ألا ترضى عن هذه الحال ؟ »

وقال نازاركا وهو يدفع بإحدى قدميه إلى الأمام ويميل بقبعته متشبهاً بلوكاشكا : « وقد سمعت أيضاً أن على الفتيات أن يسوين فراش الجنود ، ويقدمن لهم الجكير والشهد » .

انفجر يرجوشوف ضاحكاً ضحكاً مجلجلاً وأمسك بأقرب الفتيات إليه وعانقها قائلاً : « سأصدقك القول » .

وصرخت الفتاة : « إليك عنى أيها اللجوج ! ولأخبرن زوجتك العجوز ! »

فصاح : « أخبريها ! إن ما يقوله نازاركا لهو الحق كل الحق وقد أذيع منشور بذلك ، وأنت تعلمين أنه يعرف القراءة ! إن قوله هو الحق كل الحق ! » وراح

يعانق الفتاة التالية .

وصرخت أوستنكا المستديرة الوجه الموردة الخدين ضاحكة وهى ترفع ذراعيها لتضربه : « ماذا تروم أيها الوحش ؟ »

وارتد القوزاق وأوشك أن يسقط ثم قال : «وى ! يقولون : إن الفتيات تعوزهن القوة ، وهأنتذى قد أوشكت أن تقتليني ! » .

وقالت أوستنكا : « أغرب عنى أيها اللجوج ! أى شيطان جاء بك من النطاق ؟ » ثم أولته ظهرها وأغرقت مرة أخرى فى الضحك قائلة : « لقد كنت نائماً وأخطأت الأبركة ، أليس كذلك ؟ ولو أنه قتلك لكان ذلك خيراً ! »

فقال نازاركا ضاحكاً : « أظن أنك خليقة بأن تولولى »

— أولول ! أمر جائز !

فقال يرجوشوف : « أنظر ، إنها لا تحفل بالأمر ، لسوف تولول يا نازاركا ، أليس كذلك ؟ »

وكان لوكاشكا طوال هذا الوقت يقف صامتاً محدقاً فى ماريانكا ، وقد بدا جليًّا أن نظرته أحرجت الفتاة ، ثم قال وهو يقترب منها : « إيه يا ماريانكا ! لقد سمعت أنهم جعلوا أحد الرؤساء يقيم بينكم »

وجرت ماريانكا على مألوفها من التريث قبل أن تجيب ، فرفعت عينيها ببطء إلى القوزاق ، وكانت عينا لوكاشكا تضحكان ، كأن شيئاً خاصًّا كان يجرى بينه وبين الفتاة بمعزل عما كان يدور حوله حديث القوم .

وأجابت امرأة عجوز بالنيابة عن ماريانكا : « أجل ، ولا ضير عليهم فى ذلك ؛ فإن لهم دارين ، أما آل فوموشكين فينزل بينهم اليوم أحد الرؤساء ، وهم يقولون : إن متاعه قد ملأ ركناً بأكمله ، وقد ضاق المكان بالأسرة » ، ثم قالت :

« هل سمع أحد بمثل هذا ؟ وما الذى سيفعلونه هنا بحق الشيطان ؟

وقالت إحدى الفتيات : « سمعت أنهم سيقيمون جسراً على نهر ترك »

وقال نازاركا وهو يقترب من أوستنكا : « علمت أنهم سيحفرون حفرة يدفنون فيها الفتيات ، لأنهن لا يبادلن الفتيان الحب ! » ، ثم أتى بحركة غريبة أخرى أثارت الضحك بين القوم ، ومر يرجوشوف بماريانكا التى كان عليها الدور ، وشرع يعانق امرأة عجوزاً .

فقال نازاركا : « لم لا تعانق ماريانكا ؟ إنها صاحبة الدور » فصاح القوزاق ، مقبلاً العجوز وهى تناضله : «كلا ، إن صاحبتى العجوز أحلى ! » .

وصرخت المرأة ضاحكة : « ستخنقنى »

وقطع عليهم ضحكهم وقع أقدام بعض الجنود النظاميين فى الطرف الآخر من الطريق ، فقد كان ثلاثة من الجنود يسيرون فى خطوات منتظمة وقد التفوا بعباءاتهم ، وحملوا بنادقهم على أكتافهم ؛ ليحلوا محل بعض رفاقهم فى حراسة عربة الذخيرة ، ونظر الأومباشى وهو رجل مسن من الفرسان فى غضب إلى القوزاق ، وقاد رجاله رأساً إلى حيث كان لوكاشكا ونازاركا يقفان فى وسط الطريق حتى يضطرا إلى إفساح الطريق لهم ، وانتقل نازاركا من مكانه ، أما لوكاشكا فقد قطب حاجبيه وحسب ، وأدار ظهره العريض لهم دون أن يتحرك من مكانه ، والتفت نصف التفاتة إلى الجنود وراح يشيعهم بنظرات الازدراء والاحتقار وغمغم يقول : « إن ثمة أناساً يقفون هنا ، فدوروا حولهم » ، ومر الجنود فى صمت ومضوا فى الطريق المغبر دائبين على خطواتهم المنتظمة ، وشرعت ماريانكا تضحك ، ولحق بها الفتيات الأخريات جميعاً .

وقال نازاركا : « يا لهم من مختالين ! وكأنى بهم بعض القساوسة » ، ثم سار

بضع خطوات فى الطريق يقلد الجنود ، وانفجر القوم جميعاً يضحكون ويلعلعون مرة أخرى .

واتجه لوكاشكا فى خطى وئيدة إلى ماريانكا ، وسألها : « أين أنزلتم الرئيس ؟ »

وفكرت ماريانكا لحظة ثم قالت : « تركنا له الكوخ الجديد »

وسألها لوكاشكا وهو يجلس بجوارها : « أشاب هو أم شيخ ؟ »

وأجابته الفتاة : « أتظن أنى سألت عن هذا ؟ لقد ذهبت لآتى بشىء من الجكير ، فرأيته يجلس بجوار النافذة هو والعم يروشكا ، وقد بدا لى أنه أحمر الشعر ، ثم إنهم جاءوا بحمل عربة كامل من المتاع » ، ثم أرخت بصرها

وقال لوكاشكا وهو يزداد اقتراباً من الفتاة وراح ينظر فى عينيها نظرة مستقيمة طوال الوقت : « ما أسعدنى إذ استطعت الإفلات من النطاق ! »

وسألته ماريانكا وعلى شفتيها ابتسامة خفيفة : « أو قد أتيت لتقيم بيننا طويلاً ؟ »

فقال لها : « حتى الغد » ، ثم مد يده وقال : « أعطينى بعض البذور »

وعندئذ ابتسمت ماريانكا ابتسامة عريضة ، وفكت بنيقة قميصها ثم قالت : « لا تأخذها كلها »

وقال فى همس مكبوت هادئ وهو يتناول بعض البذور من صدر قميصها : « لقد كنت طول الوقت أشعر بوحشة شديدة وأنا بعيد عنك والله على ما أقول شهيد » ، وأخذ يميل عليها أكثر فأكثر وهو يواصل حديثه معها فى صوت خفيض وعيناه تضحكان .

وقالت ماريانكا فجأة بصوت مرتفع وهى تميل مرتدة عنه : « أقول لك : إننى لن آتى ! »

وهمس لوكاشكا : « كلا ، وايم الحق . . فقد كنت أريد أن أقول لك شيئاً ، فصدقيني ! وتعالى ! »

وهزت ماريانكا رأسها ، إلا أنها فعلت هذا وهى تبتسم

وأقبل أخو ماريانكا الصغير يناديها وهو يركض ميمماً شطر القوم : « ماريانكا ماريانكا ! إن أمى تناديك ! فقد حان وقت العشاء ! »

وأجابت الفتاة : « إنى قادمة ، اذهب أنت يا عزيزى ، اذهب وحدك ، سألحق بك بعد لحظة » .

وانتصب لوكاشكا واقفاً ورفع قبعته .

ثم قال لوكاشكا وهو يحاول أن يظهر بمظهر من لا يعنيه الأمر ، وإن لم يستطع أن يرد نفسه عن الابتسام : « أظن أنه يحسن بى أن أعود أيضاً إلى دارى ؛ فإن هذا هو خير ما أفعل » ، ثم اختفى خلف ناصية المنزل .

وكان الليل فى هذه الأثناء قد أسدل ستاره على القرية ، وانتثرت الكواكب متألقة فى صفحة السماء المظلمة ، وكانت الطرقات معتمة مقفرة ، وظل نازاركا فى صحبة النساء على المصطبة ، وكانت ضحكاتهم لا تزال تطرق الأسماع ، إلا أن لوكاشكا ، كان قد ابتعد عن الفتيات فى بطء وتمهل ، وجثم على الأرض كأنه القط ، ثم انطلق فجأة يعدو فى خفة وهو ممسك بخنجره حتى لا يهتز ، على أنه لم يركض فى اتجاه داره بل فى اتجاه دار حامل العلم ، واجتاز طريقين ثم انعطف فى زقاق ، ورفع طرف سترته ثم استوى على الأرض فى ظل سياج ، وراح يدير الحديث بينه وبين نفسه عن ماريانكا « يالها من فتاة جديرة بأبيها صاحب العلم ! أو تأبى الشيطانة حتى المرح ؟ ولكن صبراً قليلاً » .

واسترعى انتباهه وقع أقدام امرأة تقترب منه ، فأخذ يصيخ السمع ثم ضحك

في قرارة نفسه .

وكانتماريانكا تسير بخطوات سريعة منتظمة فى اتجاهه مباشرة وقد حنت رأسها وأخذت تضرب خوازيق السياج بعسلوج تحمله فى يدها ، ونهض لوكاشكا فتوقفت ماريانكا وقد تملكها الفزع .

وقالت وهى تضحك بصوت عال : « أهو أنت أيها الشقى ؟ لشد ما روعتنى ! إذن فأنت لم تعد إلى دارك ! »

وطوقها لوكاشكا بذراع ورفع وجهها بالذراع الأخرى ثم قال : « تالله لقد كنت أود أن أقول لك شيئاً ! » واضطرب صوته ثم سكت .

فأجابته ماريانكا : « ما هذا الذى تود أن تقوله فى بهيم الليل ؟ إن أمى تنتظر وخير لك أن تمضى إلى حبيبتك » ، ثم خلصت نفسها من ذراعيه ، وركضت بضع خطوات ، وما إن بلغت سور دارها المقام من الأغصان المجدولة حتى وقفت ، والتفتت إلى القوزاقى وكان يجرى بحذائها لا ينفك يحاول إقناعها بالبقاء معه لحظة .

« إيه ! ما الذى تود أن تقوله يا ساهر الليل ؟ » ، وراحت تضحك مرة أخرى .

« لا تسخرى منى يا ماريانكا ! بالله عليك ! وأى ضير فى أن تكونى لى حبيبة ؟ ألا فلتذهب إلى الجحيم ! وحسبك أن تفصحى فأحبك أنت ! وأفعل كل ما تريدين ، اسمعى هذا ! » ثم شخشخ بالنقود فى جيبه ، وأردف يقول : « نستطيع أن نحيا الآن حياة رائعة ، إن غيرى ينعم بحياته ، ولكن ما شأنى أنا ؟ إنى لا أحظى منك بأى شىء يا عزيزتى ماريانكا ! »

ولم تحر الفتاة جواباً ، بل وقفت أمامه تكسر عسلوجها قطعاً صغيرة بحركات سريعة من أصابعها .

وكز لوكاشكا فجأة على أسنانه وقبض يديه وقال : « فيم كل هذا الانتظار ، ألست أحبك يا امرأة ؟ » ، ثم أردف بغتة وهو يقطب حاجبيه غضباً ويمسك كلتا يديها : « تستطيعين أن تفعلى بى ما تشائين » .

ولم يتغير الهدوء الذى ارتسم على وجه ماريانكا وشاع فى لهجتها .

وأجابته دون أن تجذب يديها من يديه بل أبعدت القوزاقى عنها على طول ذراعيها : « لا تنفض ما فى نفسك يا لوكاشكا بل أنصت إلى ، فأنا فتاة بلا شك ، ولكن أنصت إلى ! إن الأمر ليس فى يدى ، فإن كنت تحبنى فإنى قائلة لك شيئاً » ، ثم أردفت دون أن تدير وجهها : « دع يدى ، فسأصارحك بالقول دون حاجة تدعو إلى ما تفعل ، سأتزوجك ولكن لن تنال منى شيئاً أبداً من هذا العبث » .

فقال لوكاشكا : « تتزوجيننى ؟ إن الزواج لا يتوقف علينا ، فهبى لى حبك أى ماريانكا العزيزة ! » ، وزال عنه عبوسه وغضبه وعاد كما كان لطيفاً طيعاً رقيقاً وأخذ يبتسم وهو يحدق النظر فى عينيها ، وتعلقت به ماريانكا ، وطبعت على شفتيه قبلة قوية ، وهمست : « أيها العزيز ! » وهى تضمه إليها متنفضة الأوصال ، ثم انتزعت نفسها فجأة ، وولجت باب دارها من غير أن تلتفت إليه !

ولم تقف ماريانكا بالرغم من توسلات القوزاقى بأن تنتظر لحظة أخرى حتى تسمع ما يريد أن يقوله لها .

وصاحت : « اذهب لئلا يرانا أحد ! فإنى أعتقد أن ذلك الساكن الملعون يتمشى فى الفناء » .

١١١

وحدث لوكاشكا نفسه قائلاً : «تريد ابنة حامل العلم الزواج بى ، لا بأس من الزواج أبداً ، ولكن لم لا تقنع بجى ! » .

ووجد نازاركا فى خمارة يامكا ، فجلس برهة قصيرة معه يحتسى الخمر ، ثم ذهب إلى منزل دونايكا حيث قضى ليلته بالرغم من عدم وفائها له .

الفصل الرابع عشر

وقد صدقت الفتاة فى قولها كل الصدق : ذلك أن أولينين كان يتمشى فى الفناء عندما دخلت ماريانكا من الباب ، ووصل إلى سمعه ما قالته عن ذلك « الساكن الملعون » ، وكان قد قضى المساء كله مع العم يروشكا فى رواق مسكنه الجديد ، وأمر بإحضار منضدة وآنية غلى الشاى وبعض الخمر وشمعة مشتعلة ، وأخذ ينصت وهو يشرب قدحاً من الشاى ويدخن سيجاراً إلى القصص التى كان يقصها عليه ذلك الرجل الشيخ وهو جالس على عتبة البيت ، وكان الهواء ساكناً إلا أن الشمعة كانت تذوب قطرات ويهتز لهيبها فتضىء حيناً عمود الرواق ، وحينا المنضدة بما عليها من أوان من الفخار ، وحيناً رأس الشيخ الحليق ، وكانت الفراشات تدور حول اللهب ، وينتثر من أجنحتها الغبار وهى ترفرف على المائدة والأقداح ، أو تطير منطلقة فى لهب الشمعة حيناً أو تختفى فى الظلام المخيم على المكان فيما وراء المنضدة حيناً .

وكان أولينين ويروشكا قد أفرغا خمس زجاجات من الجكير ، وكان يروشكا

يملأ قدحيهما فى كل مرة ويقدم إلى أولينين قدحه ثم يشرب نخبه ، ويواصل الكلام دون أن يدركه سأم أو ملل ، ولقد تحدث الرجل : تحدث عن حياة القوزاق فى الأيام الغابرة ، وعن أبيه « العريض الكتفين » الذى كان فى مقدوره أن يحمل على ظهره جثة خنزير تزن ثلاثة قناطير إنجليزية لا يستعين فى ذلك بأحد ، وأن يشرب ملء سطلين من الجكير فى جلسة واحدة ! وتحدث عن حياته هو وعن صديقه جيرشيك الذى ألف أن يهرب وإياه عباءات من اللباد عابرين نهر ترك عندما كان وباء الطاعون يجتاح البلاد ، وروى كيف أصاب غزالين فى صبيحة يوم من الأيام ، وتكلم عن حبيبته التى ألفت أن تهرع إليه فى النطاق ليلاً ، وكان يروى ذلك كله بفصاحة عجيبة ويصوره تصويراً رائعاً حتى إن أولينين لم يشعر بمرور الوقت ، آه يا صديق ! لو كنت عرفتنى فى شرخ شبابى لأطلعتك على أمور وأمور : إن يروشكا اليوم « يلعق الإناء » غير أن يروشكا كان وقت ذاك يدوى صيته بين أفراد الكتيبة جميعاً ، فمن ذا الذى كان جواده أحسن جواد ؟ ومن ذا الذى كان يملك سيفاً من صنع جوردا[1] ، والذى كان يطيب لك أن تشرب معه وتمرح ؟ ومن الذى حق عليه أن يوفد إلى الجبال ليقتل أحمد خان ؟ عجباً ! إنه يروشكا دائماً ! ومن الذى كانت تحبه الفتيات ؟ لقد كان يروشكا هو دائماً الشخص الذى عنده الجواب ، ذلك أننى كنت « زغيثى » بحق ، سكيراً ، ولصًّا ، وقد ألفت أن أسطو على قطعان من الخيل فى الجبال ، ومغنياً لقد كنت أستطيع أن أفعل أى شىء ! وليس بين القوزاق اليوم رجال من هذا الطراز ، إن النظر إليهم يورثنى الاشمئزاز : ذلك أنهم ما إن يبلغون هذا الطول (ومد يروشكا يده على ارتفاع ثلاث أقدام من الأرض) حتى ينتعلوا أحذية عجيبة ولا ينفكوا ينظرون إليها – وهذا هو كل ما يعرفون من

---

(١) كانت أحسن سيوف وخناجر فى نظر القوقازيين التى تنسب لصانعها جوردا .

متعة – أو يعبوا من الخمر ما يملأ بطونهم ، وهم لا يستطيعون أن يشربوا كما يشرب الرجال ، بل إن كل ما يفعلونه يلازمه الخطأ بوجه من الوجوه ، أما أنا فأى رجل كنته ؟ كنت يروشكا اللص ، وكانوا يعرفوننى فى القرى وفى الجبال ، وقد ألف الأمراء أن يأتوا لزيارتى ! ، كانوا أصدقائى الحميمين ، وكنت الصديق الحميم لكل إنسان ، فإذا كان تترياً ، كنت تتريًّا ، وإذا كان أرمنيًّا كنت أرمنيًّا ، وإذا كان جنديًّا كنت جنديًّا ، وإذا كان ضابطاً كنت ضابطاً ، كان لا يعنينى من أمره شىء مادام سكيراً ، يقولون لى : « يجب أن تتطهر من أدران الاهتمام بأمور الدنيا ، ويجب ألا تشرب مع الجنود ، ويجب ألا تأكل مع تترى ! »

وسأله أولينين : « من يقول هذا ؟ »

« وى ! إنهم مشايخنا ! وحسبك أن تستمع إلى شيخ من مشايخ الدين أو قاض من قضاة التتر فتجده يقول : « أيها الكفرة الفجرة ، لم تأكلون لحم الخنزير ؟ ، وهذا يدل على أن لكل امرئ شريعته ، على أنى أعتقد أن الشرائع جميعاً واحدة ، فقد خلق الله كل شىء لينعم به الإنسان ، وليس فى شىء من ذلك معصية ، وخذ مثلاً على ذلك الحيوان نفسه : فهو يقيم بين أعواد القصب فى أرض التتر أو فى أرضنا وأينما حل فى أرض فهى موطنه ! وأى رزق يسوقه الله إليه يأكله ! ولكن قومنا يقولون : إنه قد حق علينا أن نلعق المقالى فى الجحيم جزاء لنا على ذلك ! » ،

ثم سكت وأردف بعد لحظة : « وأظن أن هذا القول كله باطل »

وسأله أولينين : « وما هذا الباطل ؟ »

– ما يقوله الوعاظ طبعاً ، لقد كان عندنا فى جرفنلايا قائد جيش ربطتنى به أواصر الصداقة الحميمة ، كان فتى ظريفاً مثلى تماماً ، وقد لقى مصرعه فى ججنيا ، وقد جرى هذا الرجل على القول بأن ذلك كله اختراع جاء به الوعاظ من عند

أنفسهم ، ثم إنه ألف أن يقول لى : « إنك إذا مت نما الكلأ فوق قبرك ! وهذا هو كل ما فى الأمر ! » وضحك الشيخ ثم أردف : « لقد كان فتى متهوراً »

وسأله أولينين : « وكم تبلغ من العمر ؟ »

– لا يعلم ذلك إلا الله ! ولابد أن أكون قد ناهزت السبعين : ذلك أننى لم أك حدثاً عندما اعتلت قيصرة عرش البلاد ؛ وأنك تستطيع بذلك أن تحسب عمرى ، لابد أننى فى السبعين ، أليس كذلك ؟ »

– بلى ، لابد أنك فى السبعين ، ولكنك مازلت فتى ظريفاً .

– أحمد الله على ذلك فما زلت صحيحاً ، وكل ما فى سليم ، اللهم إلا أن امرأة أفسدت على أمرى ، تلك الحيزبون . . !

– وكيف كان ذلك ؟

– أجل ، أفسدت علىّ أمرى

– فكرر أولينين قوله : « وهكذا سوف ينمو الكلأ على قبرك عندما تموت ! »

وكان من الواضح أن يروشكا لا يريد الإفصاح عما يجول بخاطره ، وسكت الرجل لحظة ، ثم صاح فجأة وهو يبتسم ويناول أولينين بعض الخمر : « وماذا ظننت ؟ اشرب ! »

الفصل الخامس عشر

واسترسل يروشكا يقول ، وهو يحاول أن يتذكر : « حسن ، إلام بلغ بي الحديث ؟ ، أجل ، إنني من ذلك الطراز من الرجال ، فأنا صياد ، وما من صياد فى الكتيبة يساوينى ، سأبحث لك عن أى حيوان أو أى طائر ، وأريك ماذا تفعل هذه الحيوانات والطيور ؟ وأين تذهب ؟ فإننى أعرف ذلك كله ! وعندى كلاب وبندقيتان وشباك ودريئة وصقر ، عندى كل شيء والحمد لله ، فإن كنت رياضيًّا حقًّا ولست مدعياً فسأريك كل شيء ، أتعرف أى رجل أنا ؟ إننى رجل ما إن أرى الأثر حتى أعرف الحيوان ، أعرف أين يرقد ؟ وأين يشرب أو يتمرغ ؟ وأبنى لنفسى مجثماً أصرف فيه ليلتى وأسهر وأراقب ، إذ ما الخير فى القعود بالدار ! لن يعود عليك منه إلا الأذى ! ثم إنك خليق بأن تسكر ، ويدخل عليك النساء ويشرعن فى الثرثرة ويأتى الأطفال ويصرخون فى وجهى ، وهذا حقيق بأن يفقد المرء عقله .

« أما الخروج فى الفجر فأمر يختلف ، وما عليك إلا أن تختار لنفسك موضعاً

تطوى أعواد القصب ثم تجلس عليها وتنتظر كالعثرة من الفتيان ، وإنك لتعرف كل ما يجرى فى الغابات ، وتتطلع إلى السماء ، وترقب حركة الكواكب وهى تدلك على الوقت ، ثم إنك تتلفت حولك ، وتسمع حفيفاً فى الغابة ، وتمضى فى الانتظار بصبر لا ينفد حتى يطرق أذنيك صوت قرقعة بين الشجيرات ، فتتوقع بينك وبين نفسك أن خنزيراً بريًّا قد أقبـــل ليتمرغ فى الطين ، وتصرخ صغار النسور ، وتصيح الديوك فى القرية أو ينقنق الإوز ، فإذا سمعت هذه النقنقة كان ذلك دليلاً على أن الليل لم ينتصف بعد ، وأنا أعلم كل شىء عن هذه الأمور ! وقد تسمع طلقة صادرة من بعيد ، مكان بعيد ، فتدفعك إلى التفكير ، ترى من ذا الذى أطلق النار ؟ أهو قوزاقى آخر مثلك كان يترصد حيواناً ؟ وهل قتله ، أو لعله لم يبلغ منه مقتلاً بل أصابه بجرح وقد أخذ الحيوان المسكين يعرج وهو يشق طريقه بين أعواد القصب مخلفاً وراءه أثر دمائه ؟ وكل ذلك لا جدوى منه ولا فائدة ! إنى أمقت ذلك ! آه لشد ما أمقته ! لماذا نصيب الحيوان بالأذى ؟ إنها لحماقة ، حماقة ! أو لعلك تفكر فى الأمر على نحو آخر فتقول : « ربما قتل أحد الأبركة شابًّا قوزاقيًّا أحمق ، ويمتلئ ذهنك بهذه الأفكار ، وقد جلست مرة ساهراً بجوار النهر ، فرأيت مهداً طافياً يسير مع التيار ، ولم يكن فيه من عيب إلا أن أحد أركانه قد خلع من موضعه ، وتواردت على الأفكار فى ذلك الحين ! ترى من يكون صاحب هذا المهد ؟ وذهب بى التفكير إلى أن بعض جنودكم الملاعين اقتحموا لا شك قرية من القرى وقبضوا على نسائها من الجحن ، وقتل جندى من أولئك الملاعين الطفل الرضيع ؛ إذ أمسك به من ساقيه وحطم رأسه على الجدار ! أتراهم لا يرتكبون مثل هذه الأفعال ؟ آه لقد تجرد الناس من الضمائر !

وطافت برأسى أفكار ملأت قلبى بالحزن والأسى ، أجل لقد ذهب بى الظن إلى

أنهم قذفوا بالمهد وطردوا الزوجة وأحرقوا المنزل ، على أن زوجها حمل بندقيته وعبر النهر إلى ناحيتنا وجاء ليسرقنا ، فما أكثر الأفكار التى تساورك وأنت تجلس فى مجثمك ! فإذا سمعت صوت أغصان تتكسر فى الدغل بدأ قلبك يشتد وجيبه فى أعماقك فتهتف « اسلكن هذا الطريق يا حسناواتى ! » ثم تقول بينك وبين نفسك : « سيشمون رائحتى » فتجلس ساكناً لا تريم وتشعر أن قلبك يخف ويخف ويخف حتى لتكاد تطير فى الهواء ، وقد حدث مرة فى هذا الربيع أن اقترب منى وليد لطيف لبعض الحيوان ، ورأيت شيئاً أسود فقلت « باسم الأب والابن » ، وكنت على وشك إطلاق النار عندما قبعت الخنزيرة ونادت صغارها قائلة : « حذار يا أطفالى ؛ فثمة رجل هنا » ، فجروا جميعاً يشقون طريقهم فى الغابة ، فوددت لو استطعت أن أعمل فيها أسنانى ! » .

وسأله أولينين : « وكيف تستطيع الخنزيرة أن تحذر أطفالها من وجود رجل فى مكان قريب ؟ »

« لم لا تفعل ؟ أتحسب ذلك الحيوان غبيًّا ؟ كلا ، إنها لأعقل من الإنسان وإن كنت تدعوها بالخنزيرة ! فهى تعرف كل شىء وإليك هذا الدليل على سبيل المثال : فقد يمر الإنسان على أثرك ويغيب عنه ، ولكن ما إن تصادف الخنزيرة أثرك حتى تتشممه ثم تهرب ! ، ألا يدلك هذا على أن فيها شيئاً من العقل ؟ إنك أنت نفسك لا تعرف رائحتك ولكنها تعرفها ! ثم إنى أحب أن أقول لك هذا أيضاً : أنت تريد قتل تلك الخنزيرة ، ولكنها تفضل أن تجول فى الغابات مبقية على حياتها ، إن لك شريعتك ، ولها شريعتها ، فهى خنزيرة ولكنها ليست أسوأ منك ! وكلنا من خلق الله ! آه يا صديقى ! إن الإنسان لأحمق ! أحمق ! أحمق » ، وكرر الشيخ هذا اللفظ عدة مرات ، ثم نكس رأسه وراح يفكر وغرق أولينين أيضاً

فى لجة من التفكير ، ثم هبط من الرواق ووضع يديه خلف ظهره ، وشرع يذرع الفناء روحة وجيئة ، واستيقظ يروشكا من سباته ، ورفع رأسه ثم أخذ يحدق مليًّا فى الفراشات التى كانت تحوم حول لهب الشمعة المشتعل ، فتحرق نفسها فيه .

وقال : ما أحمقكن ! ما أحمقكن ! إلى أين تطرن ؟ ما أحمقكن ! ما أحمقكن ! » ، ثم انتصب واقفاً وشرع يقصى الفراشات بأصابعه الغليظة .

ستحرقن أنفسكن أيتها الحمقاوات الصغيرات ! فلتطرن فى هذا الاتجاه ، فإن فى الفضاء متسعاً ، وكان يتكلم بحنان ويحاول أن يمسكها برقة من أجنحتها بأصابعه الغليظة ، ثم يتركها تطير ثانية ، « إنكن تقتلن أنفسكن ، وإنى لأشعر بالأسى من أجلكن ! »

وجلس مدة طويلة يثرثر ويرتشف الخمر من الزجاجة ، وكان أولينين يذرع الفناء روحة وجيئة ، فأدهشه أن يسمع فجأة صوت همس خارج الباب ، وحبس أنفاسه على غير وعى منه ، فسمع ضحكة امرأة وصوت رجل ثم صوت قبلة ، وعبث بقدميه فى الكلأ عامداً ، فأثار فيه حفيفاً ، وعبر إلى الناحية الأخرى من الفناء ، إلا أن السياج المصنوع من الأغصان المجدولة ما لبث أن صر صريراً ، ومر على الجانب الآخر من السياج قوزاق يرتدى السترة الجركسية الداكنة اللون وقبعة بيضاء من جلد الماعز (وكان هو لوكاشكا) ثم مرت بأولينين امرأة طويلة القامة تضع منديلاً أبيض على رأسها ، وبدا من خطواتها الثابتة أنها تقول : « لا شىء يربط بين أحدنا وبين الآخر » ، وشيعها بنظراته حتى رواق الدار ، بل رآها من خلال النافذة تخلع منديلها وتجلس ، وغشى الشاب فجأة شعور بالوحدة كئيب ، وهزته أشواق وآمال غامضة مبهمة ، وتملك قلبه حسدٌ من شخص ما .

وكانت الأنوار الأخيرة قد أطفئت فى المنازل ، وخمدت آخر الأصوات ،

ولاحت السياجات المصنوعة من الأغصان المجدولة تتألق ، هى والماشية مشرقة فى الأفنية ، وبدت سقوف المنازل وشجر الحور السامقة المهيبة جميعاً كأنها قد أخلدت لنوم مطمئن هنيء بعد طول عناء ، ولم يطرق أذنى الشاب إلا نقيق الضفادع المتصل يأتيه من البقاع الرطبة البعيدة ، وقد أخذت النجوم فى الشرق يقل عددها ، وبدا أنها تذوب فى الضوء المتكشف ، إلا أنها كانت فوق رأسه أشد كثافة وأكثر بعداً مما كانت عليه ، وكان الشيخ يغفو معتمداً رأسه على يده ، وصاح ديك فى الفناء المقابل له ، إلا أن أولينين ظل يذرع الفناء وقد شغله التفكير فى أمر من الأمور ، واتصل به صوت أغنية تنشدها أصوات مجتمعة ، فاتجه إلى السياج وراح ينصت ، وكان بعض الشبان القوزاقيين يغنون فى مرح وسرور وقد علا صوت على أصواتهم جميعاً .

وقال الشيخ مستيقظاً : « أو تعلم من الذى يغنى هناك ؟ إنه لوكاشكا الشجاع ، لقد قتل رجلاً من الججن ، وهو الآن يطرب ويبتهج . . ولكن فيم الابتهاج ؟ . . ياله من أحمق ! ياله من أحمق ! »

وسأله أولينين : « ألم تقتل أحداً من الناس قط ؟ »

وهم الشيخ فجأة على مرفقيه وأدنى وجهه من أولينين وصاح به : « أيها الشيطان ، ما هذا الذى تسألنيه ؟ لا تتحدث فى هذا الأمر ؛ فإن القضاء على مخلوق بشرى أمر خطير . . . إيه ! إنه أمر خطير جداً » ، ثم قال وهو ينتصب واقفاً : « طابت ليلتك يا صديقى ، لقد نلت كفايتى من طعامك وشرابك ، فهل لى أن أحضر غداً ولنخرج للصيد ؟ »

– أجل ، افعل

– فاستيقظْ مبكراً ، وإذا تأخرتَ فى النوم أوقعت عليك غرامة ! فأجاب

أولينين : « لا تخف ، سأستيقظ قبلك »

وبارح الشيخ الدار ، وانقطع الغناء ، إلا أن الأقدام والحديث المرح كان لا يزال مسموعاً ، وعاد الغناء مرة أخرى بعد أمد وجيز ، إلا أن مصدره كان أبعد مما كان ، وكان صوت يروشكا المرتفع يرن أيضاً .

وقال أولينين متنهداً يحدث نفسه وهو يعود إلى كوخه وحيداً : « يالهم من قوم ! يا لها من حياة ! »

الفصل السادس عشر

وانقطعت صلة العم يـروشكا بخدمة الجيش العامل ، وأقام وحده : ذلك أن زوجته كانت قد اعتنقت الأرثوذكسية منذ عشرين سنة ، وهجرته دون أن يعقب منها ولداً وتزوجت باشجاويشاً روسياً ، ولم يك يـروشكا مدعياً عندما تحدث عن نفسه قائلاً : إنه كان أشجع الشجعان وذوى الإقدام فى القرية وهو بعد شاب ، وكان كل من فى الكتيبة يعلم جرأته وبسالته فى صدر حياته ، وكان ضميره يحمل وزر قتل أكثر من روسى وأكثر من ججنى ، وألف يـروشكا السلب والنهب فى الجبال وكان يسرق الروس أيضاً ، وقد دخل السجن مرتين ، وقضى الشطر الأكبر من حياته يصطاد فى الغابات وكان يعيش فيها أياماً على الخبز وحده ، ولا يشرب إلا الماء القراح على أنه كان يضج بالمرح من الصباح إلى المساء عندما يكون بالقرية .

ونام يـروشكا بضع ساعات بعد أن غادر أولينين واستيقظ قبل أن ينبثق الفجر ، واستلقى فى فراشه يفكر فى الرجل الذى تعرف به فى الليلة السابقة ، لقد سره كثيراً ما رأى من سذاجة أولينين (والسذاجة عنده أن أولينين لم يبخل عليه

بكأس) ؛ كما سر من أولينين نفسه وتعجب من أمر الروس ؛ إذ كيف يبلغون من السذاجة والثراء الواسع هذا المبلغ . وما بالهم لا يعرفون شيئاً مع أنهم متعلمون؟ وراح يفكر فى هذه الأمور ، ويتدبر ما يمكن أن يحصل عليه من أولينين.

وكان كوخ العم يروشكا كبيراً حديث البناء ، إلا أن أثر غياب المرأة فيه كان واضحاً كل الوضوح : فقد كان من جميع نواحيه قذراً مضطرباً غاية الاضطراب على خلاف ما اتصف به القوزاق من نظافة ؛ إذ ألقيت سترة ملطخة بالدم على المنضدة ، وكنت ترى نصف فطيرة مصنوعة بالبندق بجوار غراب مشوه من غربان الزرع نتف ريشه واستخدمه الرجل فى تغذية الصقر ، وقد تبعثرت على الأرائك أخفاف من الجلد وبندقية وخنجر وكيس صغير وملابس مبتلة وخرق شتى ، وقام فى ركن من الأركان برميل من ماء آسن نقع فيه خف آخر ، وبجانبه بندقية ودريئة صيد ، وقد ألقيت شبكة على الأرض فيها بعض الدراج النافق ، وربطت فرخة منها من ساقها ، وكانت تتمشى قرب المنضدة تنقر بمنقارها فى الأقذار ، وكان ثمة قدر مكسورة قائمة فى الموقد غير المحمى فيها سائل فى لون اللبن ، ووقف فوق قمة الموقد باز يصرخ ويحاول قطع الحبل الذى ربط به ، وأقعى صقر متلبد الريش على حافة الموقد فى هدوء ينظر شزراً إلى الفرخة ويحنى رأسه من حين إلى حين ناحية اليمين وناحية اليسار.

وكان العم يروشكا فى قميصه قد انبطح على سرير صغير حشر حشراً بين الجدار والموقد وقد رفع ساقيه القويتين ، وأسند قدميه على الموقد ، وراح ينتف بأصابعه الغليظة الخدوش التى خلفها الصقر فى يديه ، وكان قد ألف أن يحمل الصقر من غير أن يرتدى قفازاً . وقد شاع فى الغرفة كلها — وخاصة قرب الشيخ — ذلك المزيج القوى غير الكريه من الروائح التى كانت تفوح دائماً أينما حل الشيخ .

وجاءه صوت حاد ينادى من النافذة عرف فيه صوت لوكاشكا « أويده – أيها العم ، » (هل أنت هنا أيها العم ؟)

وصاح الشيخ : « أويده ، أويده! أنا هنا ! ادخل أيها الجار ماركا ، ادخل يا لوكا ماركا ، ماذا يستطيع عمك أن يفعله من أجلك ؟ وهل أنت فى الطريق إلى النطاق ؟ »

وصفق الصقر بجناحيه عند سماعه صياح سيده ، وأخذ يجذب الحبل الذى ربط فيه .

وكان الشيخ مغرماً بلوكاشكا ، بل إن لوكاشكا كان هو الشخص الوحيد الذى نجا من احتقاره الشامل للجيل الجديد من القوزاق ، ثم إن لوكاشكا وأمه كانا –باعتبارهما من جيرانه الأقربين– يزودان الشيخ فى كثير من الأحيان بالخمر والقشدة المتخثرة وغيرهما مما يصنع فى البيوت ولا يتيسر لـيروشكا ، وكان العم يـروشكا الذى ترك نفسه طول عمره على سجيتها تستجيب لأى مؤثر– يعلل شغفه بالناس دائماً تعليلاً عملياً ، وقد جرى على أن يحدث نفسه فيقول : « حسن ، ولم لا ؟ إنهما مستطيعان أن يزودانى دائماً بما يزودانى من أشياء ، وسأعطيهما بعض اللحم الطازج أو طائراً من الطيور ولن ينسيا عمهما ، بل إنهما أحياناً سيحضران له كعكة أو قطعة من فطيرة » .

وصاح الشيخ فى بشر وأنس : « طاب صباحك يا ماركا ! إننى سعيد برؤيتك » ، ثم أسرع فدلى قدميه العاريتين وقفز من فراشه ، وسار خطوة أو خطوتين على أديم الكوخ الذى أخذ يصر ، ونظر إلى أصابع قدمه المتباعدة ، ثم ابتسم فجأة وقد سره منظر قدميه وضرب الأرض بكعبه العارى ، ثم ضربها مرة أخرى ، ثم قفز قفزة .

وسأله وعيناه الصغيرتان تتألقان : « أليست هذه القفزة رائعة ؟ »

فابتسم لوكاشكا ابتسامة خفيفة

وسأله الشيخ : « أو عائد أنت إلى النطاق ؟ »

– لقد جئتك بالجكير الذى وعدتك به عندما كنا فى النطاق .

فهتف الشيخ : « حفظك الله ! » ، ثم تناول السروال الممعن فى الفضفضة الذى كان ملقى على الأرض كما تناول صدرته وارتداهما ، وتمنطق بسير من الجلد حول وسطه وسكب شيئاً من الماء على يديه من جرة من الفخار ، ومسحها فى سروال قديم ، وسوى لحيته بقطعة من مشط ، ثم وقف أمام لوكاشكا وقال له : « إننى مستعد » .

وجاء لوكاشكا بكأس ومسحها ثم ملأها بالخمر وناول الشيخ إياها . .

وقال الشيخ وهو يقبل الخمر فى رزانة ووقار : « فى صحتك ! فى نخب الأب والابن ، ألا فلتنل كل ما تتمنى ، ولتكن دائماً بطلاً ، ولتكافأن بوسام الصليب »

وشرب لوكاشكا أيضاً قليلاً من الخمر بعد أن رتل صلاة من الصلوات ، ثم وضع الخمر على المنضدة .

ونهض الشيخ وجاء ببعض السمك المجفف ، ووضعه على العتبة ، وأخذ يضربه بعصاً حتى يلين ، ثم أخذه ووضعه فى طبق أزرق (كان هو الطبق الوحيد الذى عنده) ، ووضع الطبق على المنضدة .

وقال فخوراً : « عندى كل ما أحتاج إليه ، عندى طعام والحمد لله ، ثم أردف : «حسن ، وما أخبار موسييف ؟ »

وقص لوكاشكا على الشيخ : كيف أن الأومباشى أخذ منه بندقيته ، وكان من الواضح أنه يريد بذلك أن يعرف رأى الشيخ فى ذلك .

فقال الشيخ : « دعك من البندقية ؛ فإنك إن لم تهبها له عجزت عن أن تنال مكافأة » .

ولكنهم يقولون أيها العم : إن المرء لا ينال إلا مكافأة قليلة إذا كان لم يدخل بعد فى زمرة فرسان القوزاق ، ثم إن البندقية ثمينة تساوى ثمانين روبلاً .

– إيه ! دعها له ! فقد كان حدث لى خلاف مثل هذا مع الضابط كان يريد أن يأخذ جوادى ، فقال لى : « أعطنيه فأجعلك حامل علم ! ولكننى رفضت فلم أنل شيئاً ! »

– ولكنى مضطر أيها العم إلى شراء جواد ، ويقول الناس : إنك لا تستطيع الحصول على جواد من الجانب الآخر للنهر بأقل من خمسين روبلاً ، ولم تبع أمى بعد خمرنا .

فقال الشيخ : « لم نك نهتم بمثل هذا الأمر ؛ فإن عمك يروشكا كان قد سرق بالفعل ، وهو فى مثل سنك ، قطيعاً من الجياد انتهبها من النوغاى ، وساقها مجتازاً نهر ترك ، وكنا أحياناً نبيع جواداً أصيلاً لقاء نصف لتر أو أقل من الفودكا أو لقاء عباءة ! » .

فسأله لوكاشكا : « ولم كنتم تبيعونه بمثل هذا الثمن البخس ؟ »

فقال الشيخ بازدراء : « إنك لغبى يا ماركا ، غبى ، عجباً ، إنما يسرق المرء حتى لا يكون ممسكاً ! أما بالنسبة إليك فإنى لا أظن أنك لم تبلغ من المعرفة ما يتيح لك أن ترى كيف تسرق الجياد ؟ ما بالك لا تتكلم ؟ »

فأجاب لوكاشكا : « وماذا أستطيع أن أقول أيها العم ، يبدو أننا لسنا من الطراز الذى كنته »

فرد الشيخ مقلداً القوزاق الشاب : « إنك لغبى يا ماركا ، غبى ! لست من

هذا الطراز ! لم أك أيضاً من هذا الطراز من القوزاق وأنا فى مثل سنك » .

وسأله لوكاشكا : « وكيف ذلك ؟ »

وهز الشيخ رأسه فى ازدراء وقال : «كان عمّك يروشكا ساذجاً ، ولم أك أنفس على أحد شيئاً ! ولذلك كنت الصديق الحميم للججن جميعاً ، كان يأتى لزيارتى صديق حميم فأسقيه من الفودكا حتّى يسكر وأجعله يحس بالسعادة ، وأترك له فراشى ينام فيه ، فإذا ذهبت لزيارته حملت له هدية معى ! هكذا يجب أن يكون الأمر لا كما تفعلون اليوم ، إن كل ما تلهون به اليوم أيها الشباب هو أن تكسروا البذور وتلفظوا القشر ! »

وفرغ الشيخ من حديثه وقد غلب على لهجته الاستخفاف والازدراء وهو يقلد قوزاق اليوم وهم يكسرون بذور عباد الشمس ويلفظون القشر !

وقال لوكاشكا : « أجل ، إنى لأعلم ذلك ، وإنك لمحق كل الحق »

– وإذا شئت أن تكون شابًّا من الطراز القويم فكن من الزغيث لا من الفلاحين ؛ فإن الفلاح نفسه يستطيع أن يشترى جواداً ، ولا يكلفه ذلك إلا أن يؤدى الثمن ويأخذ الجواد .

ثم أخلد الرجلان إلى الصمت برهة قصيرة .

وقال لوكاشكا : « ألا فلتعلم أن الحياة كئيبة غاية الكآبة فى القرية وفى النطاق أيها العم ، ولا يستطيع المرء أن يجد مكاناً يذهب إليه ليلهو قليلاً ، ثم إن جميع الفتيان من زملائنا يستبد بهم الخوف ، وخذ نازاركا مثلاً : فقد ذهبنا منذ أيام إلى القرية وطلب منا كراى خان أن نشخص إلى النوغاى ؛ لنحصل على بعض الجياد ، ولكن لم يذهب أحد ، فكيف كان يمكن أن أذهب وحدى ؟ »

– هل نسيت عمك ؟ هل ظننت أن عودى قد ذوى وذبل ؟ . . .وى ! إننى

لم أبلغ هذا المبلغ ، أعطنى جواداً فأخرج من فورى شاخصاً إلى النوغاى .

فقال لوكاشكا : « أى نفع يرجى من هذه الشقشقة ؟ لخير لك أن ترشدنى إلى ما أفعله مع كراى خان ، فهو يقول : ما عليك إلا أن تأتى بالجياد إلى نهر ترك وأنا خليق بأن أجد لها مكاناً حتى لو جئتنى بقطيع كامل منها ! وإنك لتعلم أنه من الججن أيضاً ولا يمكنك من ثم الوثوق به »

– تستطيع أن تثق بكراى خان فإن أهل عشيرته كلهم كانوا من خيار القوم ، وكان أبوه من أصدقائى الصدوقين المخلصين ، فأنصت إلى عمك فإنه لم يخدعك ، دع كراى خان يقسم فلا ينالك منه ضر ، وإذا خرجت معه فلتكن غدّارتك مع ذلك معدة للانطلاق ، وخاصة عندما يحين الحين لقسمة الجياد ؛ فقد كاد رجل من الججن يقتلنى لهذا السبب عندما طلبت منه مرة عشرة روبلات ثمناً لجواد ، ولا بأس عليك إذا وثقت بإنسان ، ولكن لا تذهب إلى النوم دون أن تكون معك بندقيتك » .

وأنصت لوكاشكا فى انتباه إلى الشيخ .

ثم أخلد إلى الصمت لحظة وسأله : « وبهذه المناسبة أيها العم ، هل عندك شىء من الحشيشة المفتتة للحصى ؟ »

– ليس عندى منها شىء ، ولكنى سأعلمك كيف تحصل عليها ؟ إنك لفتى كريم ، ولا تنس شيخاً تقدمت به السن ، فهل لى أن أنبئك ؟

– أنبئنى أيها العم .

– أتعرف السلحفاة ؟ إنها للمعونة !

– أعرفها من غير شك !

– ابحث عن وجارها وحطه بسياج حتى لا تستطيع الدخول ، إنها ستأتى

وتلف حوله ثم تنطلق باحثة عن الحشيشة المفتتة للحصى ، وسرعان ما تعود حاملة شيئاً منها ، وتقتحم السياج ، فاحرص على أن تذهب إلى هناك فى الموعد المناسب صبيحة اليوم التالى تجد الحشيشة المفتتة للحصى ملقاة عند السياج المكسور ، فخذها حيثما شئت ، فلن يعوقك عائق أو يمنعك مانع ؟

– هل جربتها أنت نفسك أيها العم ؟

– أما عن تجربتها فإنى لم أجربها ، ولكنّ أناساً من الصالحين حدثونى بأمرها ، ولم أك أستعمل إلا رقية واحدة ، هى أننى كنت أردد أنشودة « السلام عليكم جميعاً ! » إذا امتطيت صهوة جوادي ، ولم يقتلنى أحد قط !

– ما أنشودة « السلام عليكم جميعاً » أيها العم ؟

– وى ! ألا تعرفها ؟ يا لكم من قوم ! لقد أصبت إذ سألت عمك أنصت وردد ما أقول :

السلام عليكم ! يا من تقيمون فى أورشليم
هاهو ذا ملككم
وإنا لنمتطى صهوة جيادنا
فتبكى صوفونيا
ويتحدث زكريا
ولا يزال الأب ماندريك كشأنه
يحب الناس جميعاً

وردد الشيخ عبارة : « يحب الناس جميعاً » ثم قال : « أو قد عرفت الأنشودة الآن ، إذن عليك بترديدها » .

فضحك لوكاشكا وقال :

– خل عنك أيها العم ، أمن أجل هذا لم يقتلك أحد قط ؟ لعل الأمر كان محض مصادفة !

– لقد بدأت تتذاكى أكثر مما ينبغى ! استظهر الأنشودة ورددها ؛ فلن تضار بشىء إذا فعلت ، وما عليك إلا أن تنشد « السلام عليكم جميعاً ! » فلا يصيبك مكروه ، ثم شرع الشيخ نفسه يضحك ويقول : « خير لك ألا تذهب إلى النوغاى يا لوكاشكا ! » .

– ولم لا ؟

– لقد تغيرت الظروف ، وأصبحتم طرازاً آخر من الرجال يختلف عمّا كنا ، لقد غدوتم أيها القوزاق من حثالة الناس بحق ، انظر عدد الروس الذين وطئوا ديارنا ! سيقدمونك إلى المحاكمة ، فهلم وكف عما اعتزمت ؛ فلست بالرجل الكفء لهذه المهمة ، لقد ألفت أنا وجيرشك . . . وكان الشيخ على وشك أن يبدأ برواية قصة من قصصه التى لا تنتهى ، وإذا بلوكاشكا ينظر إلى النافذة ويقاطعه قائلاً :

– لقد انبلج الصبح أيها العم ، وقد حق علىّ الرحيل ، فلتأت لزيارتنا يوماً .

– الله معك ! وإنى لذاهب للقاء رجل الجيش ؛ فقد وعدت أن أخرج معه للصيد ، ويبدو لى أنه فتى كريم .

الفصل السابع عشر

وانصرف لوكاشكا من كوخ يروشكا إلى داره ، وكان الضباب الندى يرتفع من الأرض ويشمل بغلالته القرية ، وكانت الماشية بعيدة عن الأنظار إلا أن صوتها كان مسموعاً من كل الجوانب ، وقد بدأت تتحرك ، وأخذت الديكة تتنادى بالصياح فى تكرار متزايد وإلحاح دائب ، وكان الضوء يشتد وأهل القرية قد بدءوا يستيقظون ، ولم يستطع لوكاشكا أن يتبين سياج فناء كوخه الذى غشيه الندى من جميع نواحيه ، أو مدخل الكوخ أو الحظيرة المكشوفة حتى اقترب منها تماماً ، ودخل لوكاشكا الكوخ ، وكانت أمه قد استيقظت ، ووقفت عند الموقد تلقى فيه الخشب ، أما أخته الصغيرة فكانت لا تزال مستغرقة فى النوم فى فراشها ، وسألته أمه فى هدوء : « إيه يا لوكاشكا ! هل أصبت من المرح واللهو كفايتك ؟ وأين قضيت الليل ؟ »

فأجابها ابنها متردداً وهو يمد يده إلى بندقيته ويخرجها من جرابها ويفحصها فحصاً دقيقاً : « لقد كنت فى القرية » .

وهزت أمه رأسها .

وصب لوكاشكا شيئاً من البارود فى خزانة البندقية ، وأخرج من جيبه كيسا أخذ منه بعض الخراطيش الفارغة ، وبدأ يملؤها وهو يدك كلاً منها دكًّا محكماً برصاصة لف حولها خرقة ، ثم اختبر الخراطيش الممتلئة بأسنانه وتفحصها ، وأعاد الكيس إلى جيبه .

وقال لها : « أماه ، قلت لك : إن حقائبى فى حاجة إلى إصلاح ، فهل تم إصلاحها ؟ »

– أى نعم ، فقد كانت أختك البكماء تصلح شيئاً فى الليلة الماضية ، أو قد حان موعد عودتك إلى النطاق ؟ إننى لم أكد أراك .

فأجابها لوكاشكا وهو يربط كيس البارود : « أجل ، لا مناص لى من الرحيل حالما أستعد ، وأين أختى البكماء ؟ هل هى فى خارج الكوخ ؟ »

أظن أنها تكسر شيئاً من الخشب ، لقد ظلت قلقة عليك ، وقد أشارت لى بما معناه « هل من سبيل إلى رؤيته ؟ » ووضعت يدها على وجهها هكذا ولقلقت بلسانها وضغطت على قلبها بيديها وكأنها تود أن تقول : « ليتنى أستطيع رؤيته » ، أو أدعوها إلى هنا ؟ لقد وقفت على قصة الأبركى بحذافيرها »

فقال لوكاشكا : « ناديها ، لقد وضعت بعض الشحم هناك فأتينى به ، إذ لابد لى من تشحيم سيفى » .

وخرجت العجوز ، وما إن انقضت بضع دقائق حتى جاءت أخت لوكاشكا الصماء البكماء ترقى الدرج المصرصر ثم دخلت الكوخ ، وكانت تكبر أخاها بست سنوات ، ولعلها كانت خليقة بأن تنشأ على صورته تماماً لولا سمات وجهها الخاملة التى كانت مع ذلك تتغير تغيراً غليظاً (شأنها فى ذلك شأن الصم والبكم جميعاً) .

كانت ترتدى قميصاً خشناً قد حفل بالرقع جميعاً ، وكانت قدماها عاريتين موحلتين وعلى رأسها منديل قديم أزرق اللون ، وكان عنقها وذراعها ووجهها كثيرة العضلات حتى لقد بدت أشبه بالرجال منها بالنساء ، ودلت ملابسها بل مظهرها كله على أنها قد ألفت القيام بأعمال الرجال الشاقة .

وأقبلت الفتاة تحمل ملء ذراعها من الخشب وألقت به بجانب الموقد ، ثم اتجهت إلى أخيها ولمست كتفه ، وقد افتر ثغرها عن ابتسامة سعيدة جعلت وجهها يتغضن كله ، وأخذت تشير إليه إشارات سريعة بيديها ووجهها وجسمها كله .

وأجابها أخوها وهو يومئ برأسه : « هذا صحيح ، هذا صحيح ، أيتها الفتاة الطيبة ستيبكا ، لقد جئت بكل شيء ، وأصلحت كل شيء ، يا لك من فتاة بارعة ! هاك ، ولتأخذى هذا جزاءً لك ! » . وأخرج من جيبه قطعتين من كعك الزنجبيل وأعطاها إياهما .

وتورد وجه البكماء من فرط السرور ، وأخذت تهتف هتافات غريبة معبرة عن فرحها وسرورها ، وأمسكت بكعك الزنجبيل ثم راحت تشير بيديها وتحرك جسمها فى أثناء الكلام حركات أسرع ، وكثيراً ما كانت تشير إلى ناحية ، وتمر بإبهامها على حاجبيها ووجهها ، وكان لوكاشكا يدرك ما تعنيه ، وظل يومئ برأسه وعلى شفتيه ابتسامة فاترة ، كانت ستيبكا تطلب منه أن يعطى الفتيات شيئاً من الحلوى وتنبئه بأنه يروق لهن : وأن إحداهن تحبه ، وهى ماريانكا خيرهن جميعاً ، وقد دلت على ماريانكا بإشارة سريعة إلى منزل هذه الفتاة ثم بإشارة إلى حاجبيها هى ووجهها وبالتلمظ بشفتيها وهز رأسها ، وقد عبرت عن حب ماريانكا بضغط يدها على صدرها وتقبيلها متظاهرة بأنها تعانق شخصاً ، وعادت أمها إلى الكوخ ، ورأت ما كانت ترمز إليه ابنتها البكماء ، فابتسمت وهزت رأسها ، وأرتها ابنتها كعك

الزنجبيل ، ثم عادت تصرخ بالصوت الذى عبرت به عن فرحها وسرورها .

وقالت الأم : « لقد أخبرت أولتيكا منذ أيام بأننى سأرسل إليهم خاطبة ، وقد تقبلت قولى بقبول حسن » .

ونظر لوكاشكا فى صمت إلى أمه ثم قال : « ولكن ما قولك فى بيع الخمر يا أماه ؟ إنى فى حاجة إلى جواد » .

وقالت الأم – وكان من الواضح أنها لا تريد أن يتدخل ابنها فى الشئون المنزلية – « سأحمله على عربة عندما يحين الوقت ، ولابد لى من إعداد البراميل ، وستجد فى الدهليز عندما تخرج حقيبة اقترضتها من الجيران ، ووضعت فيها بعض أشياء تعود بها إلى النطاق ، أو تفضل أن أضعها فى خرجك ؟ »

فأجابها لوكاشكا : « لا بأس ! وإذا عبر كراى خان النهر وجاء إلى هنا فابعثى به إلى فى النطاق ، فإنى لن أحصل على إجازة أخرى قبل انقضاء مدة طويلة ، وإن لى معه لشأناً » .

وأخذ يستعد للرحيل .

وقالت العجوز : « سأبعث به إليك ، ألم تك تمرح فى محل يامكا طول الوقت ؟ لقد خرجت فى الليل لأعنى بالماشية وخيل إلى أننى سمعتك تنشد بعض الأغانى » .

ولم يحر لوكاشكا جواباً ، بل خرج إلى الدهليز وألقى حقائبه فوق كتفه ورفع أطراف سترته ، وأخذ بندقيته ، ثم وقف لحظة على عتبة الدار .

وقال وهو يغلق الباب الذى خلفه : « إلى اللقاء يا أماه ! أرسلى لى برميلاً صغيراً مع نازاركا ؛ فقد وعدت به الرفاق وسيأتى أحدهم فى طلبه » .

وقالت العجوز وهى تتجه إلى السياج : « حفظك البارى يا لوكاشكا والله

معك ! سأبعث إليك بشيء من الخمر ، شيء من البرميل الجديد » ، ثم أردفت وهي تميل على السياج : « ولكن أنصت إلى » :

« لقد كنت تمرح هنا ، فلا بأس عليك ولا حرج ، وما الذى يمنع شاباً من أن يقضى وقتاً طيباً ؟ لقد وفقك الله وهذا جميل ، ولكنى أوصيك يا بنى بأن تلزم منذ الآن جانب الحذر ، ولا تمض فى طريق يصيبك منه الضرر ، وعليك قبل كل شيء أن ترعى حق رؤسائك عليك ، يجب أن تفعل هذا ، وسأبيع الخمر وأوفر لك المال اللازم لشراء الجواد ، وسأخطب لك الفتاة »

وأجابها ابنها وهو يقطب حاجبيه « حسن ! حسن ! »

وند من أخته البكماء صوت تسترعى به نظره ، وأشارت إلى رأسها ، ثم إلى راحة يدها بما يدل على أنها تعنى رأس ججنى حليقاً . ثم قطبت حاجبيها وتظاهرت بأنها تصوب بندقيتها . وصرخت وأخذت تهمهم وتهز رأسها فى سرعة ، وكان هذا معناه أن لوكاشكا يجب أن يقتل ججنيا آخر !

وأدرك لوكاشكا ما ترمى إليه ، فابتسم وحمل بندقيته وراء ظهره تحت عباءته وخطا فى خفة وسرعة نحو الضباب الكثيف . ووقفت العجوز عند الباب لحظة ، ثم عادت إلى الكوخ فى صمت ، وراحت تعمل من فورها .

الفصل الثامن عشر

وخرج لوكاشكا قاصداً إلى النطاق ، على حين كان العم يروشكا قد صفر لكلابه ، وتسلق السياج ، واتجه إلى مسكن أولينين سالكاً الدروب الخلفية ، وكان يكره لقاء النساء قبل خروجه للصيد أو القنص .

وكان أولينين لا يزال نائماً ، أما فانيوشا فقد كان بالرغم من استيقاظه يقلب بصره فى الغرفة ويقول بينه وبين نفسه : إن الوقت قد حان للنهوض ، وإذا بالعم يروشكا يفتح الباب ، وقد حمل بندقيته على كتفه ، وارتدى حلة الصياد الكاملة ، وصاح بصوته الجهورى : « هراوة ! إنذار ! لقد أطبق الجحن علينا ! إيفان ؟ جهز وعاء غلى الشاى لسيدك » . ثم صاح : وانهض أنت نفسك – وتيقظ فهذه هى طريقتنا يا صديقى ! وى ! لقد استيقظ الجميع حتى الفتيات ! انظر من النافذة انظر ، ها هى ذى ذاهبة لتملأ جرتها وأنت ما زلت فى فراشك ! »

واستيقظ أولينين وقفز من فراشه وهو يشعر بالنشاط والسرور لمرأى الشيخ وسماع صوته ثم صاح : « أسرع يافانيوشا ! أسرع ! »

وقال الشيخ : « أهكذا تخرج إلى الصيد ؟ إن غيرك من الناس يتناول فطوره وأنت لا تزال فى فراشك ! ثم نادى كلبه « ليام ! تعال ! »

وصاح فى صوت مرتفع كأن الكوخ قد امتلأ بجمهرة من الناس : « هل بندقيتك جاهزة ؟ »

وقال أولينين : « إنى أعترف بخطئى ولكن لا حيلة لى فى الأمر ! البارود يا فانيوشا والبواشير ! »

وصاح الشيخ : « غرامة ؟ »

وسأل فانيوشا وهو يكشر عن أنيابه ويقول بالفرنسية : « أتريد شيئاً من الشاى ؟ »

وصاح الشيخ فى فانيوشا كاشفاً عن جذور أسنانه : « لست منا ، فإن ثرثرتك أيها الشيطان لا تمت للغتنا بسبب ! »

وقال أولينين فى مرح وهو يلبس حذاءه العالى : « إن أول ذنب لحقيق بالغفران »

وأجاب يروشكا : « سنصفح عن الدنب الأول ، فإن تأخرت فى النوم مرة أخرى حكمنا عليك بغرامة قدرها سطل من الجكير ، ولن نصادف إلا أيلاً واحداً إذا ازداد الجو دفئاً »

وقال أولينين وهو يكرر الكلمات التى قالها الشيخ فى الليلة الماضية : « فإن اتفق ووجدناه كان أوسع منا حيلة ، ولن تستطيع أن توقعه فى حبائلك »

– أى نعم ، غالب الأمر بالضحك ! ولخير لك أن تصيب الأيل أولاً ثم تشرع فى الحديث ، والآن أسرع ! . وأردف يروشكا وهو ينظر من النافذة : « انظر ، هاهو ذا رب البيت نفسه يصل للقائك ، وقد ارتدى سترة جديدة لیدلك على أنه

ضابط ، آه من هؤلاء القوم ! آه من هؤلاء القوم ! » ، ومصداقاً لقوله دخل فانيوشا وأعلن أن رب البيت يريد لقاء أولينين.

وقال فانيوشا بالفرنسية فى تدبر وإمعان منذراً سيده بمغزى هذه الزيارة : « المال ! » ، ودخل رب البيت الغرفة فى أعقابه ، وهو يرتدى سترة جركسية على كتفيها أشرطة ضابط ، وينتعل حذاء جيد الصقل ، (وهذا شيء نادر من القوزاق) ، وراح يميل يمنة ويسرة ويرحب بنزيله بمجرد وصوله.

وكان إيليا فاسيلييتش حامل العلم قوزاقيًّا متعلماً ، فقد ارتحل إلى روسيا نفسها واشتغل بالتدريس ، وكان فوق هذا وذاك نبيلاً من النبلاءويحب أن يظهر بمظهر النبلاء إلا أن من يراه لا يملك إلا أن يشعر بأن وراء دعواه العريضة بأنه رجل مهذب ، وتكلفه وثقته بنفسه وطريقته الغريبة فى الكلام – شخصاً لا يفترق فى شيء عن العم يروشكا ، وكان من اليسير عليك أن تلمح ذلك أيضاً فى وجهه ويديه اللتين لوحتها الشمس وأنفه الأحمر ، ودعا أولينين الرجل إلى الجلوس.

وقال يروشكا وهو ينحنى له انحناءة رقيقة بدا لأولينين أنها تدل على التهكم والسخرية : « طاب صباحك أيها الأب إيليا فاسيلييفتش »

فقال حامل العلم وهو يومئ برأسه فى غير اكتراث : « طاب صباحك أيها العم ، إذن فقد سبقتنى إلى هنا »

وكان حامل العلم فى نحو الأربعين من عمره له لحية شهباء ، وكان ذاوى العود نحيلاً ، ومع ذلك فقد كانت تبدو عليه مسحة من وسامة ، وتشيع فى وجهه نضارة لا تناسب سنه ، وقد جاء الرجل لمقابلة أولينين ، وكان من الواضح أنه يخشى أن يحسبه أولينين من عامة القوزاق ، فأراد أن يشعره بما له من شأن منذ البداية.

وقال الرجل موجهاً الحديث إلى أولينين وهو يشير إلى الشيخ بابتسامة تنم عن

إعتزازه بنفسه : « هاك نَمْرودَنا العصرى . وإنى لأشهد أمام الله بأنه صياد عظيم ! وهو إمامنا فى كل شيء ، وهأنذا أرى أنه قد سرك التعرف به » .

وحدق العم يروشكا فى قدميه بنعلهما المصنوع من الجلد الغفل اللزج وهز رأسه متدبراً قدرة حامل العلم وعلمه ، وتمتم محدثاً نفسه : « نمرودنا العصرى ! ألا ما أعجب ما يفكر فيه من أمور ! » .

وأجاب أولينين : « أجل ؛ فنى نيتنا أن نخرج للصيد »

وقال صاحب العلم : « إنى لأدرك ذلك كل الإدراك يا سيدى ، ولكنّ لى معك شأناً صغيراً أريد أن أحدثك فيه » .

— ما الذى أستطيع أن أفعله من أجلك ؟

وأنشأ حامل العلم يقول : « أما وإنى أتوسم فيك أنك سيد مهذب ، وأحسب أننى أيضاً فى مصاف الضباط — فإننا نستطيع دائماً أن نتفاهم تفاهماً يبشر بالخير ، كما هو دأب السادة المهذبين . . . » (ثم سكت ونظر مبتسماً إلى أولينين وإلى الشيخ) ، « هذا إن شئت ووافقت أنا ، ذلك أن زوجتى امرأة حمقاء من نساء طبقتنا ، لم تستطع أن تفهم حديثك الذى حدثتها به البارحة ، ومن ثم فإنى مستطيع أن أؤجر مسكنى إلى أركان حرب الكتيبة لقاء ستة روبلات باستثناء الحظائر ، إلا أننى أستطيع دائماً أن أحرم نفسى إياها دون أن أتقاضى عنها أى مقابل ، ولكن بما أنك تريد فإننى — وأنا نفسى فى رتبة الضابط — أستطيع الاتفاق معك على كل شيء شخصيًّا ، بوصفى من أهل هذه الناحية ، بمقتضى ما توجبه العادات ، ومع ذلك فأنا قادر على الوفاء بالشروط من كل وجه . . . »

وتمتم الشيخ : « ما أوضح كلامه ! »

واسترسل حامل العلم فى حديثه ضارباً على هذه النغمة نفسها وقتاً طويلاً ،

وأدرك أولينين آخر الأمر ، وفى شىء من المشقة – أن حامل العلم يريد أن يؤجره مسكنه مقابل ستة روبلات فى الشهر ، ووافق أولينين على ذلك بسرور ، وقدم إلى ضيفه قدحاً من الشاى إلا أن حامل العلم رفض تناول القدح .

وقال : « إننا نرى بحسب تقاليدنا الحمقاء أن شربنا الشاى من قدح دنيوى شىء من المعصية وإن كنت بحكم تعليمى أستطيع بطبيعة الحال أن أفهم الأمر ، إلا أن زوجتى بما جبلت عليه من ضعف البشر . . . »

– لا بأس إذن ، ولكن ألا تتناول شيئاً من الشاى ؟

فأجاب حامل العلم : «سأحضر قدحى الخاص بى إذا سمحت لى بذلك » ، ثم خرج إلى مدخل الكوخ وصاح : « على بقدحى ! »

وما انقضت بضع دقائق حتى انفتح الباب وامتد ذراعٌ لوّحته الشمس يطل من كم وردى ويحمل قدحاً ، واتجه إليه حامل العلم وتناول القدح ثم أسر بشىء إلى ابنته ، وصب أولينين الشاى لحامل العلم فى قدحه الخاص به ، وصب لبروشكا فى قدح دنيوى .

وقال حامل العلم وهو يلهب شفتيه بالشاى الساخن ويأتى على قدحه كله : « على أننى لا أود أن أعطلك : ذلك أننى أيضاً مشغوف بصيد السمك ، وإنما جئت إلى هنا فى إجازة كما يقولون أروح بها عن نفسى من عناء العمل ، وأنا أيضاً تتملكنى الرغبة فى أن أجرب حظى لعل بعض خيرات نهر ترك تكون من نصيبى ، وإنى لأرجو أن تأتى أنت أيضاً وتزورنا وتشرب من خمرنا وفقاً لعادات قريتنا » .

ثم انحنى حامل العلم وصافح أولينين وخرج ، وبينما كان أولينين يتأهب للخروج سمع حامل العلم يصدر أوامره إلى أسرته فى لهجة حازمة متزنة ، وما لبث أن رآه بعد بضع دقائق يمر بالنافذة فى سترة مهلهلة وقد شمر سرواله حتى ركبتيه ولفع شبكة من

شباك صيد السمك على كتفه .

وقال العم يروشكا وهو يفرغ قدحه الدنيوى : « ياله من محتال ! أوقد صحت نيتك على أن تدفع له حقًّا ستة روبلات ؟ وهل سمع أحد قط بمثل ذلك ؟ إنك مستطيع أن تستأجر أحسن كوخ فى القرية لقاء روبلين ، يا للوغد ! وى ! إننى لأرضى بأن أؤجر لك كوخى بثلاثة روبلات ! »

وقال أولينين : « كلا ، سأبقى هنا »

« ستة روبلات ! إنك تلقى بمالك جزافاً ! » ، وتنهد الشيخ ثم أردف : « علينا بشىء من الجكير يا إيفان ! »

وخرج أولينين هو والشيخ قبل أن تحل الساعة الثامنة بعد أن تناولا شيئاً من الطعام وشربا قدحاً من الفودكا يستعينان بها على تحمل عناء الطريق ، وصادفا عند الباب عربة تجرها الثيران وكانت ماريانكا تجر الثيران بحبل ربطته فى قرونها وقد عصبت رأسها بمنديل أبيض أوشك أن يصل إلى عينيها ، وارتدت معطفاً فوق قميصها ، وانتعلت حذاءً عالياً وحملت فى يدها عسلوجاً طويلاً

وقال الشيخ متظاهراً بأنه على وشك الإمساك بها : « ياللجمال ! »

ورفعت ماريانكا عسلوجها كأنها تهم بضربه ، ثم نظرت إليهما بعينيها الجميلتين نظرة تنم عن المرح والسرور .

وشعر أولينين بالبشر يفيض به قلبه أكثر وأكثر .

ثم قال وهو يلقى ببندقيته على كتفه شاعراً بأن نظرات الفتاة مسلطة عليه : « والآن هيا بنا ، هيا بنا »

ورن خلفهما صوت ماريانكا وهى تنادى الثيران ، وأعقبته قرقعة العربة وهى تتحرك .

واسترسل يروشكا فى الحديث وهما يقطعان الطريق الذى امتد خلال المراعى خلف القرية ، ولم يك يستطيع أن ينسى حامل العلم فظل يهجوه .

وسأله أولينين : « فيم غضبك هذا الشديد عليه ؟ »

فأجابه الشيخ : «إنه لحقير وأنا لا أحب هذا منه ، إنه لتارك كل ما يملك من حطام الدنيا متى أدركه الموت ، فمن أجل من يقتصد إذن ؟ لقد شيد بيتين وانتزع من أخيه بستاناً آخر بدعوى قضائية وما أكثر دناءته فيما يتصدى له من كتابة المواثيق ! إن القوم يقصدونه من القرى الأخرى ويطلبون منه أن يكتب مواثيق ، فيتحقق لهم كل ما يخطه قلمه من هذه المواثيق ، وهو لا يبذل جهداً ، ولكن ترى من أجل من يقتصد ؟ إنه لم يرزق إلا غلاماً وهذه الفتاة ، فمن يبقى له بعد زواجها ؟ »

فقال أولينين : « إذن هو يقتصد ليفى بمهرها »

– أى مهر – الفتاة كثيرة الخطاب ، لأنها حسناء ، وقد بلغ من خبث الرجل أنه لا يريد زواجها إلا من غنى ، ويطلب فيها ثمناً غالياً ، ولأضرب لك مثلاً بلوكاشكا ، فهو قوزاقى من جيرانه ، وابن أخى ، وشاب مليح ، بل هو الذى قتل الججنى ، لقد ظل لوكاشكا يتودد إليها زمناً طويلاً ، ولكنه يأبى أن يزوجها إياه ، وقد اعتذر من ذلك بأعذار كثيرة ، وآخرها : «إن الفتاة صغيرة جداً» ، ولكنى أعلم ما يدور فى رأسه ! إنه يريد منهم أن يظلوا ينحنون له ويتملقونه ، ومع ذلك فإنهم سيفوزون بها للوكاشكا : ذلك أنه خير قوزاقى فى القرية ، إنه زغيّى ، وهو الذى قتل رجلاً من الأبركة وسينعم عليه بوسام» .

وقال أولينين : « ولكن كيف هذا ؟ لقد كنت أسير فى الفناء ليلة أمس فرأيت ابنة رب الدار وفتى من القوزاق يقبل كل منهما الآخر ! » .

وسكت الشيخ برهة قصيرة ثم صاح : « لا أصدقك ! »

وقال أولينين : « أقسم لك على ذلك »

وقال الشيخ يروشكا : « إنها لشيطانة » ، ثم غرق فى لجة من أفكاره وأردف : « ولكن أى قوزاق هو ؟ »

– لم أستطع أن أتبينه

– إذن ، أى نوع من القبعات كان يلبس ؟ أكانت قبعة بيضاء ؟

– أجل .

– وسترته حمراء ؟ وفى طولك تقريباً ؟

– كلا ، بل كان أطول منى قليلاً .

– وى ! لقد كان هو ! وانفجر يروشكا ضاحكاً ، واسترسل يقول : « لقد كان هو لوكاشكا نفسه ، إنه لوكاشكا ، ولكنى أسميه ماركا على سبيل المزاح ، إنه لوكاشكا نفسه وأنا أحبه ، فقد كنت أنا نفسى على شاكلته ، إذ أى فائدة ترجى من الاحتفال بأمرهم ؟ لقد جرت حبيبتى على النوم مع أمها وزوجة أخيها ، ولكننى أدبر أمر التسلل إليها ، كانت تنام فى الدور الأعلى وكانت أمها الحيزبون امرأة ماكرة غاية فى الخبث ، وما أكثر ما كانت تكرهنى ! وقد جريت على الذهاب إليها صحبة صديقى ، وكان اسمه جيرشك ، كنا نقبل فنقف تحت نافذتها . ثم أتسلق على كتفيه ، وأدفع النافذة ثم أبدأ فى تحسس طريقى ، كانت الفتاة تنام على أريكة قرب النافذة تماماً ، وقد حدث أن أيقظتها مرة فكادت تصرخ مستنجدة ، ذلك أنها لم تعرفنى ، وقالت : «من هناك ؟» فلم أستطع الإجابة ، بل إن أمها بدأت تتحرك إلا أننى خلعت قبعتى ودفعتها فوق فمها فعرفتها فى الحال ؛ لأنها كانت ممزقة ، وهرعت إلى ، لقد كنت أبلغ جميع ما أريد فى تلك الأيام» ، وأردف يروشكا

يقول بلهجته العملية : « فقد كانت توافيني بالقشدة المتخثرة والعنب وكل شيء ، ولم تك هذه الفتاة هي حبيبتي (الوحيدة) وهذه هي الحياة التي كنا نحياها ! » .

– وماذا بعد ؟

– ستتبع الآن الكلب ، ونحمل على طائر من الدراج فيحط على شجرة ، وعندئذ تستطيع أن تطلق عليه النار .

– لم لا تبذل محاولة في سبيل ماريانكا ؟

وقال الشيخ وهو يشير إلى كلبه المحبوب ليام : « راقب الكلب سأكشف لك الأمر الليلة .

وسكتا برهة قصيرة ثم استأنفا حديثهما سائرين مائة خطوة أخرى تقريباً ، وعاد الشيخ فتوقف وأشار إلى غصن كان يعترض الطريق .

وقال : « ما رأيك في هذا ؟ أتحسبه لا يدل على شيء ؟ » إن هذه العصا يجب ألا تكون موضعها هكذا ، إنها نذير شؤم ! »

– ولماذا تكون نذير شؤم ؟

وابتسم الشيخ في تهكم وسخرية وقال :

– آه ! إنك لا تدري شيئاً ، فاستمع إلي : عندما تعترض طريقك على هذا النحو فلا تخط في مواجهتها ، بل يجب أن تلتف حولها أو تبتعد عن الطريق هكذا ، وتقول : « أيها الأب والابن والروح القدس » ، ثم تمضي على بركة الله ، فلا يصيبك شيء ، وهذا هو ما كان الشيوخ يعلمونني إياه .

فقال أولينين : « كفى ، فما أسخف ما تقول ! وإني لأفضل أن تزيدني علماً بأمر ماريانكا ، أتراها تبادل لوكاشكا وداً بود ؟ »

وعاد الشيخ يقاطعه هامساً : « صه . . . والزم الآن جانب الهدوء ! وما عليك

إلا أن تنصت ، فسنلتف بالغابة » .

وأخذ الشيخ يسير فى هدوء فى نعله اللين ، وأم الطريق مجتازاً درباً ضيقاً إلى رتم الغابة البرى الكثيف ، وراح يلتف من حين إلى حين وقد قطب حاجبيه ناظراً إلى أولينين الذى كان يخشخش ويقرقع بحذائه الثقيل ، وكثيراً ما علقت بندقيته التى كان يحملها فى غير عناية بأغصان الأشجار التى نمت فى عرض الدرب .

وهمس الشيخ غاضباً : « لا تحدث مثل هذه الضوضاء ، وسر برفق أيها الجندى ! »

وكان يغشى الجوَّ شىء ينبئ بأن الشمس قد أشرقت ، وأخذ الضباب ينقشع إلا أنه كان لا يزال مكتنفاً لقمم الأشجار ، وقد بدت الغابة رفيعة الذرا تتسلط على من حولها تسلط الغالب القاهر ، وكان المنظر يتغير فى كل خطوة ، فإذا رأيت العشبة حسبتها شجرة وإذا رأيت عود القصب ظننته شجرة !

الفصل التاسع عشر

كان الهدوء مخيماً ، وكان الرجلان اللذان خرجا للصيد يسمعان الأصوات المنبعثة من القرية ، ثم انقطعت هذه الأصوات ، وعادا لا يسمعان إلا صوت الحسك يخشخش كلما جرت الكلاب تحته وكانت الطيور تتنادى من حين إلى حين ، وقد أدرك أولينين أن الخطر كان يجثم فى الغابة ، وأن الأبركة يختبئون دائماً فى مثل تلك المواضع ، على أنه كان يعلم أيضاً أن البندقية وقاية عظيمة للرجل الذى يسير على قدميه فى الغابة ، ولم يكن يحس بذلك عن خوف ، بل كان يحس بإحساس غيره من الناس الذين كانوا خليقين بأن يدركهم الخوف لو كانوا فى مكانه ؛ وأخذ ينظر إلى الغابة الرطبة الحافلة بالضباب ، وينصت إلى الأصوات النادرة الخافتة مرهف الحس ، ثم ينقل قبضته على بندقيته ويكابد شعوراً لذيذاً كان جديدًا عليه .

وكان العم يروشكا يسير أمامه ، ثم يقف وينعم النظر فاحصاً مدققاً فى كل بركة ألم بها حيوان وترك عندها أثراً مزدوجاً ، ويطلع عليه أولينين ، وكان لا يتكلم إلا فى

القليل النادر ، بل يهمس ببعض الملاحظات إلى أولينين من حين إلى حين ، وكان الطريق الذى يسلكانه قد شقته العربات مرة إلا أن العشب كان قد نما فوقه منذ وقت طويل ، فغطى الأخاديد ، وكانت غابة الدردار والدلب التى تكتنفها من الجانبين كثيفة جدًّا وقد غطتها النباتات المتسلقة حتى أصبح من المستحيل أن يتبين المرء شيئاً خلالها ، وكانت كل شجرة تقريباً قد لفتها الكروم البرية من أعلاها إلى أسفلها ، وامتد الحسك الداكن اللون امتداداً كثيفاً على الأرض ، وكانت شجيرات التوت وأعواد القصب السمراء المريشة تغطى كل ممر صغير فى الغابة ، وآثار الحوافر وآثار أقدام الدراج على هيئة الأقماع الصغيرة تؤدى فى بعض مواضع الطريق إلى الدغل ، وكان أولينين يأخذه العجب فى كل خطوة من قوة نماء هذه الغابة التى لم تسرح فيها البهائم قط ، ذلك أنه لم يك قد رأى ما يماثلها من قبل قط ، وقد بدت له الغابة ، والخطر الجاثم ، والشيخ بهمساته الغامضة ، وماريانكا بقامتها المعتدلة المليئة بالحيوية ، والجبال – كأنها جميعاً حُلم من الأحلام .

وهمس الشيخ وهو يلتفت خلفه ويشد قبعته على وجهه : « لقد استقر دراج على الشجرة ، فأغلق فمك ! دراج ! » ، ثم أشار إلى أولينين فى غضب ، وزحف إلى الأمام على أربع تقريباً ، ثم أردف : « إنه لا يحب طلعة الإنسان ! » .

وكان أولينين لا يزال خلفه عندما وقف الشيخ ، وأخذ يختبر شجرة من الأشجار ، وكان ثمة ديك من الدراج على الشجرة ينقنق فى وجه كلب كان ينبح عليه ، وقد رأى أولينين الطائر ، إلا أنه دوت فى تلك اللحظة طلقة كأنها طلقة مدفع من بندقية يروشكا الضخمة ورفرف الطائر بجناحيه مصعداً وفقد بعض ريشه ، ثم سقط على الأرض ، وأثار أولينين دراجاً آخر وهو يتجه نحو الشيخ ، ثم رفع بندقيته وصوبها وأطلق النار ، واستمر الدراج يحوم فى السماء لحظة ثم وقع على

الأرض بعد أن علق بالغصن فى أثناء سقوطه .

وصاح الشيخ وهو يضحك : « أحسنت يا فتى ! » ، فقد كان لا يستطيع أن يصيب طائراً فى جناحه .

والتقطا الديكين واستمرا فى طريقهما ، وأثارت أولينين الرياضة والمديح ، فظل يوجه الملاحظات إلى الشيخ .

وقاطعه يروشكا قائلاً : « قف ! تعال من هنا ، فقد شاهدت أثر الأيايل فى هذا المكان بالأمس » .

وانعطفا فى الدغل وسارا نحو ثلاثمائة خطوة ، ثم دلفا إلى ممر تغطيه أعواد القصب ، وقد طغى الماء على جزء منه ، ولم يستطع أولينين اللحاق بالصياد العجوز ، وسرعان ما وقف يروشكا على مسيرة نحو عشرين خطوة أمامه ، وهو يطاطئ رأسه ويومئ بذراعه ، ولحق به أولينين ، فتبين أن يروشكا كان يشير إلى أثر أقدام رجل .

— أو ترى هذا ؟

فقال أولينين وهو يحاول أن يتحدث بأقصى ما يستطيع من هدوء : « حسن ، إنها آثار أقدام رجل »

وطاف بذهن أولينين على غير إرادة منه « كاشف الطريق » لكوبر ، وتذكر الأبركة ، ثم لاحظ الطريقة الغامضة التى كان يسير بها الشيخ ، فأشفق من أن يسأله : وظل الشك يساوره ، هل هذا الغموض ينبعث من تهيب الخطر أو من رياضة الصيد نفسها ؟

وأجاب الشيخ ببساطة وهو يشير إلى العشب حيث كان أثر حيوان يبدو واضحاً أو يكاد : « كلا ، إنها آثار أقدامى أنا »

ومضى الشيخ فى طريقه ، وقد لازمه أولينين ، ثم هبطا إلى أرض منخفضة على مسيرة عشرين خطوة أو نحوها ، فبلغا شجرة كمثرى وارفة الظل ، ظهر تحتها على الأرض السوداء روث لبعض الحيوان ندى طرى ، وكان الموضع قد لفته الكروم البرية من جميع جوانبه فبدا كالمرفأ الأمين ظليلاً رطيباً .

وقال الشيخ وهو يتنهد : « لقد كان هنا هذا الصباح ؛ فإن المضجع لا يزال رطباً ندياً »

وطرق آذانهما فجأة صوتُ قرقعة مخيفة تدوى فى الغابة على مسيرة نحو عشر خطوات منهما ، وفزع كلاهما وأمسكا ببندقيتيهما إلا أنهما عجزا عن أن يبصرا شيئاً ؛ وإنما سمعا صوت الغصون تتكسر وظلا لحظة يسمعان طرقات ركض سريع متداركة ، تحول إلى دمدمة جوفاء أخذت تبتعد شيئاً فشيئاً ويتردد صداها فى دوائر تتسع وتتسع فى الغابة ، وشعر أولينين كأن شيئاً قد نهش قلبه نهشاً ، وراح يحدق النظر بلا جدوى فى الدغل الأخضر ، ثم التفت إلى الشيخ ، وكان العم يروشكا قد وقف ساكناً لا يريم وبندقيته لا تزال على كتفه ، وقد دفع بقبعته إلى الوراء ، وتألقت عيناه ببريق عجيب . وبدا فمه وأسنانه الصفراء البالية مكشراً عن أنيابه غضباً وكأنه قد جمد فى هذا الوضع !

وغمغم يقول : « أيل ذو قرون ! » ، وألقى ببندقيته إلى الأرض يائساً ، وأخذ يشد لحيته الشهباء : « لقد كان يقف هنا تماماً ، وكان ينبغى لنا أن نأتى إلى هنا سالكين الممر . . . ما أحمقنا ! ما أحمقنا ! » ، وجذب لحيته غضباً ، وعاد يقول : « غبى ! خنزير ! » ، وهو يشد لحيته شداً عنيفاً مؤلماً .

وبدا لهما أن شيئاً يطير خلال الضباب المخيم على الغابة ، وأخذ صدى صوت الأيل الهارب يبتعد ويبتعد فى الفضاء .

وكان الغسق قد حل عندما رجع أولينين جائعاً متعباً هو والشيخ ولكنه كان نشيطاً كل النشاط ، كان العشاء معدًّا ، فأكل هو والشيخ وشرب حتى شعر بالدفء والمرح ، ثم خرج إلى مدخل الكوخ ، وقد لاحت له الجبال مرة أخرى فى غروب الشمس ، وعاد الشيخ يقص عليه قصصه التى لا تنتهى عن الصيد والأبركة ومحبوباته وعن حياة المجازفة والمغامرة والاستهتار ، وأخذتماريانكا تدخل وتخرج مرة أخرى ، وتجتاز الفناء بقميصها الذى يكشف عن جمال قوامها العذرى الملىء بالحيوية .

الفصل العشرون

وخرج أولينين فى اليوم التالى وحده ، وذهب إلى الموضع الذى أثار فيه هو والشيخ الأيل ، ولم يلتف ليخرج من الباب ، بل تسلق السياج الشائك ، كما كان يفعل غيره من القوم جميعاً ، وقبل أن يتسع له الوقت لجذب الشوك الذى علق بسترته كان كلبه الذى سبقه قد أثار دراجين ، وما إن بلغ العوسج حتى كانت الدراج قد أخذت تستيقظ فى كل خطوة يخطوها (ولم يكن الشيخ قد أطلعه على ذلك الموضع بالأمس ، ذلك أنه قد عقد العزم على الصيد منه من خلف دريئته) ، وأطلق أولينين النار اثنتى عشرة مرة وقتل دراجات خمسة ، على أنه صعد خلال العوسج فى طلبها ، فأصابه من ذلك جهد كبير حتى غرق سريعاً فى لجة من العرق ، ونادى كلبه ليبتعد عن الدراريج ، ورفع زناد بندقيته ووضع بعض الرصاص فوق الخردق الصغير ، وطرد البعوض بكم سترته الجركسية الواسع وشق طريقه ببطء إلى البقعة التى كانا فيها بالأمس ، على أنه كان من المستحيل كبح جماح الكلب ، فقد وجد الآثار فى الطريق نفسه ، وقتل أولينين دراجين آخرين ، وكاد

النهار ينتصف عندما حصل عليها واقترب من المكان الذى كان يبحث عنه . وكان النهار مشرقاً أبلج والسكون مخيماً والجو قائظاً أشد القيظ ، وقد جفت رطوبة الصباح حتى فى الغابة ، وغطت حشود غفيرة من البعوض وجهه وظهره وذراعيه أوكادت ، وتحول لون كلبه من اللون الأسود إلى اللون الرمادى ، وغطى البعوض سترة أولينين ، وقد أنفذت فيها الحشرات زباناتها ، وكان أولينين مستعداً أن يهرب منه ، وأخذ يشعر بأنه من المستحيل عليه أن يقيم فى هذه القرية فى الصيف ، كان على وشك أن يعود أدراجه ، ولكنه تذكر أن غيره من الناس قد راض نفسه على احتمال هذا الألم ، فعقد العزم على أن يصبر عليه ، واستسلم للبعوض ينهشه نهشاً .

والعجيب فى الأمر أنه ما إن حل الظهر حتى أصبح الشعور لذيذاً ممتعاً حقاً . بل إن أولينين قد أحس بأن هذه الغابة تفقد بعض طبيعتها وفتنتها لولا هذا الجو الزاخر بالبعوض الذى يكتنفه ، وهذه العجينة من البعوض المختلطة بالعرق التى لوثت يده بها وجهه ، وهذا الالتهاب المتواصل الذى سرى فى جسمه كله ، لقد كانت هذه الأسراب الغفيرة من البعوض تناسب كل المناسبة هذه الخضرة البرية البالغة النمو ، وتلك الأسراب من الطير والوحش التى كانت تملأ الغابة ، وهذا الورق القاتم من أوراق النبات ، وهذا الجو الرطب العطر ، وهذه القنوات المليئة بالماء العكر تأخذ من نهر ترك وتشق طريقها فى كل مكان ، وهى تترقرق تحت أوراق الأشجار الحانية عليها ، حتى لقد بدا له ذلك الشىء الذى خاله نفسه أول الأمر فظيعاً لا يحتمل ، رضياً مقبولاً .

وجال أولينين فى المكان الذى صادف فيه الأيل بالأمس فلم يجد شيئاً ، وشعر بالحاجة إلى الراحة ، وكانت الشمس قد اعتلت كبد السماء فوق الغابة وأخذت تصب أشعتها العمودية صباً على ظهره ورأسه كلما خرج إلى ممر من الممرات أو إلى

الطريق العام ، وكانت الدراريج السبعة من الثقل بحيث أصابه من جرها ألم شديد فى وسطه ، ووجد آثار الأيل ، فزحف تحت شجيرة إلى الدغل حيث كان الأيل تماماً ورقد فى مربضه ، واختبر أوراق الشجر القائمة حوله والمكان الذى خلف فيه عرق الأيل آثاره ، وروثه الجاف ، وطابع ركبتيه وقطعة الأرض السوداء التى ركلها ، وآثار أقدامه التى خلفها بالأمس ، وشعر بالراحة والهدوء ، فلم تعد تطوف بذهنه أفكار أو تتملك نفسه رغبات ، وغمره فجأة شعور غريب بفرح لم يدر له سبباً ، وحبٌ لكل شىء تفيض به نفسه ، حتى إنه جرى على عادة ألفها فى طفولته ، وأخذ يرسم إشارة الصليب ويتوجه بالحمد إلى شخص ما ، وقال يحدث نفسه فى وضوح وجلاء على حين غرة : « هأنذا ديمترى أولينين ، كائن أتميز كل التمييز عن كل كائن سواى ، وأرقد الآن وحدى ، ولا يعلم إلا الله أين أرقد حيث ألف أيل أن يقيم فتى خبيراً وسيماً ، لعله لم ير قط وجه إنسان ، وفى مكان لم يسبق لكائن حى أن جلس فيه أو مرت بمخيلته مثل هذه الأفكار .

هأنذا أجلس وحولى أشجار عتيقة وأشجار غضة قد تزينت إحداها بكروم العنب البرية ، والدراريج تصفق بجناحيها ويدفع بعضها البعض ، ومن يدرى ؟ ربما كانت تشم ريح أخواتها التى لقيت حتفها .

وتحسس أولينين دراريجه وأنعم النظر فيها ومسح الدم الحار الذى علق بيده فى سترته ، ولعل أبناء آوى قد شمت الرائحة هى أيضاً ، فاتجهت وجهة أخرى ، وقد علت وجهها علامات السخط والغضب ، وحام البعوض فى الجو وأخذ يطن فوق رأسه ، ويطير بين أوراق الشجر وهى تبدو له كأنها الجزائر الضخمة ، بعوضة ، اثنان ، ثلاث ، أربع ، مائة ، ألف ، مليون ، وكلها يطن مفصحًا عن شىء ما ، وكل بعوضة منها ديمترى أولينين تتميز عن سواها كما أتميز أنا عن غيرى ، وتخيل

بوضوح ماكان يطنّ به البعوض مفصحاً عما فى نفسه : « من هنا ! من هنا يا رفاق ! هاكم شخصاً نستطيع أن نأكله ! »

كان البعوض يطن ويلتصق به ، وقد تبين لأولينين أنه لم يكن نبيلاً روسيًّا أو واحداً من علية القوم فى موسكو أو صديق فلان أو قريب علان ، وإنما كان بعوضة أو دراجاً أو أيلاً كتلك التى تعيش حوله الآن ، « لسوف أعيش زمناً ثم أقضى ، كمثل البعوض تماماً ومثل العم يروشكا ، ولسوف ينمو العشب فوق قبرى ثم ينقضى الأمر كما قال بحق !

واسترسل فى التفكير : « ولكن ماذا لو نما العشب فوق قبرى ؟ يجب أن أعيش بالرغم من ذلك ، وأن أكون سعيداً ، فالسعادة هى كل ما أتمنى ، ودعك مما أنا عليه الآن – حيوان كسائر الحيوان سوف ينمو العشب فوق قبرى ، ثم ينقضى الأمر ، أو صورة نفخ فيها الله الواحد الأحد منه ، ومع ذلك يجب أن أعيش خير عيشة ولكن ، كيف يجب إذن أن أعيش لأنعم بالسعادة ؟ ولم لم أك سعيداً من قبل ؟ وراح أولينين يستعيد حياته الماضية ، وشعر بالاشمئزاز من نفسه ، وبدا لعينه أنه كان نهماً أفظع النهم يؤثر نفسه على غيره ، ولو أنه يرى الآن أنه لم يك يطلب حقًّا شيئاً لنفسه ، وظل يقلب بصره فى أوراق الشجر والضوء يسطع من خلالها ، وفى الشمس الغاربة والسماء الصافية ، وشعر بالسعادة تغمره كما كانت تغمره من قبل سواء بسواء .

وراح يتحدث بينه وبين نفسه : « لم أنا سعيد الآن ؟ وما الذى كنت أعيش من أجله ؟ ألا ما أكثر ما كنت أطلبه لنفسى ! وما أكثر ما دبرت ! ولكنى لم أحقق لها إلا الحزن والأسى ! وهأنذا الآن لا أحتاج لشىء حتى أكون سعيداً » ، وبدا على حين غرة أن ضوءاً جديداً قد تكشف له فقال يحدث نفسه : « هذه هى السعادة ،

والسعادة هى أن يعيش المرء لغيره ، وهذا أمر واضح جلى ، إن الرغبة فى السعادة متأصلة فى قلب كل إنسان ، ومن هنا كانت أمراً مشروعاً ، فإن حاول المرء أن يحققها بالأثرة أى بالسعى فى طلب الثروة أو المجد أو النعيم أو الحب – فقد يحدث من الظروف ما يجعل تحقيق هذه الرغبات مستحيلا ، والنتيجة إذن هى أن هذه الرغبات ليست مشروعة ، ولكن الحاجة إلى السعادة ليست كذلك ، ولكن ما الرغبات التى يمكن تحقيقها فى جميع الأحوال بالرغم من الظروف الخارجية ؟ ألحق هى أم الإيثار ؟ »

وبلغ به السرور والحماسة مبلغهما عندما اكتشف الحقيقة الجديدة كما بدت له حتى إنه انتصب واقفاً وأخذ يسعى نافد الصبر فى طلب شخص يضحى بنفسه من أجله ، ويقدم له شيئاً من الخير ويضفى عليه حبه ، واسترسل يحدث نفسه : « ما دام المرء لا يريد شيئاً لنفسه فلم لا يعيش لغيره ؟ »

وحمل بندقيته معتزماً العودة إلى الدار سريعاً ليفكر فى الأمر ملياًّ وليجد فرصة يصنع فيها الخير ، وشق طريقه خارجاً من الدغل .

وما إن خرج إلى الممر حتى تلفت حوله ، وكانت الشمس قد توارت خلف قمم الأشجار ، وازدادت برودة الجو ، وبدا المكان فى عينيه غريباً كل الغرابة يختلف هو والريف المحيط بالقرية ، وأن يد التغيير قد امتدت إلى كل شىء ! يستوى فى ذلك الجو وطبيعة الغابة ! وكانت السماء قد تسربلت بالغيوم وأخذت الرياح تهمهم فى قمم الأشجار ، فلم يعد يتبين من حوله إلا أعواد القصب والأشجار الذاوية المتكسرة ، ونادى كلبه الذى كان قد ابتعد عنه يطارد بعض الحيوان ، وارتد صوته إليه كأنه فى صحراء ، وغمره فجأة شعور مروع بالخوف ، فتملكه الفزع : ذلك أنه تذكر الأبركة وحوادث القتل التى رويت له ، وكان يتوقع فى كل لحظة

أن ينقضّ عليه واحد منهم من خلف شجرة ، وأن واجبه يقتضيه فى هذه الحالة أن يدافع عن نفسه وأن يموت وإلا كان جباناً ، وتوجه بفكره إلى الله وإلى الحياة الآخـرة ، وكان قد ترك التفكير فيها منذ زمن بعيد ، وكانت الطبيعة تحيط به من كل جانب كئيبة صارمة ، موحشة ، فحدث نفسه قائلاً : « وهل من الخير أن يعيش المرء لنفسه والمنية تترصد له فى كل لحظة ، وأن يموت دون أن تقدم يداه شيئاً من الخير ، ولا يدرى أحد من أمر وفاته شيئاً ؟ » وسار فى الاتجاه الذى خيل إليه أنه يؤدى إلى القرية ، ولم يعد يفكر فى الصيد ؛ فقد شعر بأن قواه قد خارت ، وأخذ يحدق النظر فاحصاً مدققاً فى كل لحظة أن يقع فى مأزق يعرض حياته للخطر ، وهام على وجهه طويلاً ثم وقع على قناة ممتلئة بالماء الرملى البارد يجرى من نهر ترك ويصب فيها ، وقرر أ ن يسير بمحاذاتها حتى لا يضل طريقه مرة أخرى ، وسار دون أن يدرى إلى أين تقوده القناة ؟ وإذا بأعواد القصب تقرقع من خلفه فجأة ، فارتعد وأمسك ببندقيته ، ولم يلبث أن غمره شعور بالخزى ؛ فقد كان الكلب يلهث بشدة ، وقد ثارت مشاعره جميعاً ثم ألقى بنفسه فى الماء البارد وأخذ يلعقه .

وشرب أولينين أيضاً ثم سار فى أعقاب الكلب فى الاتجاه الذى اختاره لنفسه ظنًّا منه أنه يقوده إلى القرية ، ولكنه أحس بالرغم من صحبة الكلب أن كل شىء حوله ينذر بالشر ، فقد كانت القرية تزداد ظلمة ، والريح تزداد عتوًّا فى قمم الأشجار العتيقة المتكسرة ، وكانت الطيور الكبيرة تحوم حول أعشاشها فى تلك الأشجار صائحة صارخة ، وقل الزرع ، وتكاثرت من أمامه أعواد القصب المخفحفة وبسائط الأرض الرملية الممحلة تغطيها آثار الحيوانات البرية ، واقترن عويل الرياح وزمجرة رتيبة مملولة تبعث الكآبة فى النفس ، وبدأ يطغى عليه شعور بالغم شديد ، ووضع يده خلف ظهره يتحسس دراريجه ، فوجدها تنقص واحداً ،

انفلت من حزامه وضاع ولم يبق إلا عنقه ورأسه الداميان عالقين بحزامه ، وغمره شعور قوى بالفزع لم يكابده قط فى حياته ، فراح يصلى لله ، وكان أخشى ما يخشاه أن يقضى دون أن تقدم يداه شيئاً من الخير أو البر ، واستبدت به الرغبة فى الحياة ، الحياة فى سبيل مأثرة عظيمة يبذل فيها نفسه .

الفصل الحادى والعشرون

وأحس فجأة كأن الشمس قد أضاءت ظلمات نفسه ، وطرق أذنه حديث باللغة الروسية ، وسمع صوت جريان نهر ترك فى سرعة ويسر . ورأى على بعد خطوات منه صفحة النهر الداكنة المتحركة ورمال ضفتيه وبطاحه الندية العسجدية ، والفيافى البعيدة ، وبرج المراقبة فى النطاق وقد برزت معالمه فوق صفحة الماء ، وجواداً مسرجاً مقيداً بشكال بين العوسج ، ثم الجبال ممتدة أمامه ، وبدا قرص الشمس الأحمر لحظة من خلال سحابة ، وقد تألقت أشعتها الأخيرة على طول النهر ، وفوق أعواد القصب وعلى برج المراقبة وعلى زمرة من القوزاق ، واسترعى انتباهه قوام لوكاشكا القوى الفتى .

وشعر أولينين مرة أخرى بفيض من السعادة الكاملة يغمره دون أن يجد لذلك سبباً ظاهراً ، وكان قد بلغ نقطة حراسة « نزنه – بروتوتسكى » على نهر ترك أمام قرية هادئة على الضفة الأخرى من النهر ، واقترب أولينين من القوزاق ، ولكنه لم يجد بعد مبرراً يدعوه إلى تقديم شىء من الخير لأى إنسان ، فدخل الكوخ ، على أن

هذه الفرصة لم تتهيأ له أيضاً فيه ، واستقبله القوزاق فى برود ، وما إن دخل الكوخ المشيد باللبن حتى أشعل لفافة تبغ ، ولم يعره القوزاق من الالتفات إلا قليلا ، لأنه كان يدخن لفافة تبغ ، فضلاً عن أنهم كانوا مشغولين بشىء آخر فى تلك الليلة : فقد جاء بعض الأعداء الججن من أقارب الرجل الأبركى الذى قتل ، إذ هبطوا من الجبال ومعهم كشاف يفتدون قريبهم الذى لقى مصرعه ، وكان القوزاق ينتظرون قدوم قائدهم من القرية ، وكان أخو القتيل رجلاً طويل القامة بديع التكوين له لحية صغيرة صبغها باللون الأحمر ، وكان بالرغم من سترته وقبعته المهلهلتين رابط الجأش مهيباً كأنه ملك ، وكان وجهه شديد الشبه بوجه الأبركى القتيل ، ولم يتنزل بالنظر إلى أحد ، بل لم يلق نظرة واحدة على الجثة ، ولكنه جلس القرفصاء فى الظل ، وأخذ يبصق وهو يدخن غليونه الصغير

وكان من حين إلى حين يلقى ببعض الأوامر فى صوت أجش فيطيعها زميله فى احترام ، وكان من الجلى أنه رجل زغيثى لقى الروس من قبل أكثر من مرة فى ظروف متباينة أشد التباين ، فلم يعد فيهم مايثير دهشته أو اهتمامه ، وتوجه أولينين إلى الجثة وكان يرمقها بعينه عندما قال أخو القتيل شيئاً فى حدة وغضب ناظراً إلى ما وراء أولينين فى هدوء واحتقار ، وأسرع الكشاف فغطى وجه القتيل بسترته ، وأخذ أولينين بملامح وجه الزغيثى المهيبة الصارمة ، وراح يتحدث إليه ويسأله من أى قرية هو؟ ولكن الججنى أهمل النظر إليه أوكاد ، بل بصق فى احتقار وأولاه ظهره !

وتملك أولينين العجب الشديد من أن الججنى لا يهتم لأمره ، ولم يجد عذراً يبرر به مسلك الرجل إلا غباءه أو جهله بالروسية ، فالتفت إلى الكشاف الذى كان يؤدى أيضاً مهمة المترجم ، وكان الكشاف مهلهل الثياب كصاحبه إلا أنه لم يك

أحمر الشعر بل أسوده ، متململاً متبرماً ، ذا أسنان لامعة ناصعة البياض ، وعينين سوداوين متألقتين ، واشترك الكشاف فى الحديث عن طيب خاطر وطلب منه لفافة تبغ ، وأنشأ يقول فى روسيته الركيكة :

«كانوا خمسة إخوة ، وهذا هو ثالث من قتله الروس ، ولم يبق منهم إلا اثنان» ، ثم قال مشيراً إلى الججنى : «إنه زغيثى ، زغيثى عظيم ! لقد كان هذا القتيل ، هذا الرجل المسجى جالساً على الضفة المقابلة بين أعواد القصب عندما لقى أحمد خان مصرعه على أيديهم ، ورأى كل ما حدث ، رآهم يلقون به فى القارب ويأتون به إلى شاطئ النهر ، وقد لزم الرجل مكانه من ضفة النهر حتى جن الليل ، وكان يريد قتل الشيخ إلا أن الآخرين حالوا بينه وبين ما يريد» .

وشخص لوكاشكا إلى المتحدث ثم جلس

وسأله : «من أى قرية أنت ؟»

وأجاب الكشاف وهو يشير إلى ممر جبلين فيما وراء نهر ترك خيم عليه الضباب الضارب إلى الزرقة : «إننى من قرية تقوم هنا لك بين الجبال ، أتعرف سويوق صو؟ إنها على مسيرة ثمانية أميال أو نحوها وراء ذلك الممر»

وسأله لوكاشكا فى لهجة نمت عن زهوه بمعرفة الرجل : «أتعرف كراى‌خان من سويوق صو؟ إنه صديقى الحميم»

وأجابه الكشاف : «إنه جارى»

«إنه لرجل عظيم !» ويبدو أن الاهتمام قد بلغ بلوكاشكا مبلغه فأخذ يحادث الكشاف بالتترية .

وسرعان ما أقبل ضابط قوزاق برتبة الملازم الأول على صهوة جواده تصحبه حاشية من رجلين من القوزاق وكان هذا الضابط كبير القرية ، وحيا الضابط ،

الحديث العهد بخدمة الجيش القوزاق ، قائلاً : « نعمتم بالعافية » ولكن أحداً لم يرد التحية على ما هو مألوف فى الجيش الروسى بعبارة « وأنتم يا صاحب السعادة » وإن كان بعضهم قد أجاب على تحيته بحنى رءوسهم ونهض بعضهم ومنهم لوكاشكا ووقفوا وقفة انتباه ، وأجاب الأومباشى : إن كل شيء على مايرام فى نقطة الحراسة ، وقد بدا كل هذا مضحكاً فى نظر أولينين حتى لكأن هؤلاء القوزاق إنما يلعبون لعبة الجنود !

على أنه سرعان ما حلت أساليب السلوك المألوفة محل هذه الإجراءات الرسمية ، وشرع الضابط ، وكان قوزاقيًّا مندفعاً شأنه فى ذلك شأن إخوانه ، يحدث المترجم بالتترية فى طلاقة ، وكتبوا وثيقة سلموها إلى الكشاف وتلقوا منه شيئاً من المال ، ثم اقتربوا من الجثة .

وسأل الضابط « من منكم لوكا جافريلوف ؟ »

وخلع لوكاشكا قبعته وتقدم منه

لقد أبلغت القائد صنيعك ، ولا أعلم ما قد يسفر عنه هذا ، وأوصيت لك بوسام ، إنك لأصغر من أن ترقى إلى رتبة الأومباشى ، أو تعرف القراءة ؟

– كلا ، لا أعرفها .

وقال الضابط وقد عاد يلبس لبوس القائد : « إنك لتبدو للعين فتى وأى فتى ، ضع قبعتك على رأسك ، من أى فرع من آل جافريلوف تنتسب ؟ أمن فرع « العريض ؟ »

وأجاب الأومباشى : « بل هو ابن أخيه »

وقال وهو يلتفت إلى القوزاق : « أعرف هذا ، أعرف هذا ، هلموا مدوا إلى إخوانكم يداً ! »

وطفح البشر على وجه لوكاشكا وبدا أكثر وسامة مما كان ، وابتعد عن الأومباشى ثم وضع قبعته على رأسه ، وجلس بجوار أولينين .

وأنزلت الجثة إلى القارب ، وهبط أخو الججنى القتيل إلى الشاطئ . وأفسح له القوزاق الطريق على غير وعى منهم ، وقفز الججنى إلى القارب ، وابتعد عن الشاطئ بركلة قوية من ساقه ، ثم ألقى للمرة الأولى على مابدا لأولينين نظرة سريعة على القوزاق ، ثم سأل زميله فجأة سؤالاً ، فأجابه صاحبه إجابة ما ، ثم أشار إلى لوكاشكا ، فنظر الججنى ، ثم أشاح عنه فى بطء وحدق فى الضفة المقابلة ولم تك النظرة تنم عن الحقد ، بل عن احتقار الرجل الذى لا يبالى ، ثم فاه بملاحظة أخرى .

وسأل أولينين الكشاف القزم « ماذا يقول ؟ »

فأجاب الكشاف : « أنتم تقتلون منا ، ونحن نقتل منكم ، وهكذا دواليك ! » ، وكان من الجلى أنه أجاب هذه الإجابة بعد تدبر وروية ، وافتر ثغره عن ابتسامة كشفت عن أسنانه البيض اللامعة وهو يقفز إلى القارب .

وجلس أخو القتيل بلا حراك محدقاً النظر فى الضفة المقابلة ، وبلغ من حقده وازدرائه أنه لم يجد شيئاً على هذه الضفة من النهر يثير فضوله ، وكان الكشاف يقف فى طرف من القارب يضرب الماء بمجدافه فى هذه الناحية تارة وفى تلك تارة أخرى ، ويدير القارب بمهارة ولا يكف عن الحديث لحظة ، وأخذ القارب يصغر ثم يصغر منحرفاً عبر النهر ، وغاب صوت الرجلين عن الأسماع أو كاد ، ونزلا آخر الأمر على الضفة الأخرى وهما لا يزالان باديين للأنظار حيث كان جواداهما فى انتظارهما ، وهناك حملا الجثة من القارب ووضعاها بعرض أحد السرجين (وإن كان الجواد قد جفل لذلك) وركبا جواديهما وسارا خبباً يشقان طريقاً مرّا فيه بقرية

خرج منها جماعة من الناس يتطلعون إليهما .

أما القوزاق على الضفة الأخرى للنهر فقد كانوا فى غاية السرور والمرح ترن ضحكاتهم فى كل جانب ، ودخل الضابط هو وشيخ القرية الكوخ المشيد باللبن ليروحا عن نفسيهما ، وحاول لوكاشكا عبثاً أن يضفى سيماء الرصانة والوقار على وجهه الضاحك وهو جالس ومرفقاه على جانبيه إلى جوار أولينين يقشط عصاً كانت بين يديه .

وقال فى فضول مصطنع : « لماذا تدخن ؟ أو ترى فى التدخين متعة ؟ »

وكان من الجلى أن السبب الوحيد الذى دعاه إلى الحديث هو مالا حظه من أن أولينين كان يشعر بالحرج والعزلة بين القوزاق .

فأجاب أولينين : « ليس التدخين إلا عادة فلم تسأل ؟ »

لو أن واحداً منا دخن لوقع فى المتاعب ، ثم مضى لوكاشكا يقول :

« انظر هناك ، إن الجبال ليست بعيدة عنا ، ولكنك لا تستطيع الوصول إليها ، فكيف تعود وحدك ؟ لقد بدأ الليل يسدل أستاره ، وسأصحبك إذ شئت ، ولكن عليك أن تستأذن الأومباشى »

ونظر أولينين إلى وجه القوزاق المرح وحدث نفسه قائلاً : « ياله من فتى ! » . وتذكر ماريانكا والقبلة التى كان قد سمعها بجوار الباب ، ورثى لحال لوكاشكا وافتقاره إلى الثقافة ، وهتف فى قرارة نفسه « يالها من فوضى ! رجل يقتل آخر ، ويشعر بالسعادة والرضا كأنه أتى عملاً عظيماً ! ألا يوجد من ينبهه إلى أنه ما من سبب يدعوه إلى الفرح ، والابتهاج ، وأن السعادة ليست فى القتل ، بل فى التضحية بالنفس ؟ »

وقال رجل من القوزاق كان قد شيع القارب الذاهب موجهاً الحديث إلى

لوكاشكا : « خير لك ألا تلتقى أنت وهو مرة أخرى يا صديقى ! ألم تسمعه يسأل عنك ؟ »

ورفع لوكاشكا رأسه وقال « ابنى فى العماد ؟ » ، وهو يقصد بهذه العبارة الجحجنى القتيل .

إن ابنك فى العماد لن يعود إلى الحياة مرة أخرى ، ولكن الأحمر هو أخو ابنك فى العماد !

فأجاب لوكاشكا « فليحمد الله على أنه قد نجا بنفسه دون أن يمسسه ضر ! »

وسأله أولينين : « فيم سرورك ؟ هب أن القتيل أخوك ، أكان ذلك يسرك ؟ »

ونظر القوزاقى إلى أولينين بعينين ضاحكتين ، ويبدو أنه أدرك كل ما كان يريد أن يقوله له ، ولكنه كان يعتقد أنه فوق هذه الاعتبارات .

حسن ، إن هذا يحدث أيضاً ، ألا ترى أن بعض رجالنا يقتلون أحيانا ؟

الفصل الثاني والعشرون

ورحل الضابط وشيخ القرية على متن جواديهما ، وطلب أولينين من الأومباشي أن يأذن للوكاشكا بإجازة ، وهو قد فعل ذلك رغبة منه فى إرضاء لوكاشكا وتفادياً من أن يجتاز وحده الغابة المظلمة ، فأذن له الأومباشي ، وظن أولينين أن لوكاشكا إنما كان يريد أن يلقى ماريانكا ، وسره أيضاً أن يصحب هذا القوزاقى الأنيس البشوش ، وقد جمع فى مخيلته بين لوكاشكا وماريانكا على غير وعى منه ، ووجد فى التفكير فيهما متعه ، ثم حدث نفسه قائلا : « إنه يحب ماريانكا ، ولو كنت منه لأحببتها أيضاً » ، وطغى عليه شعور جديد قوى بالحنان وهما يسيران صوب ديارهما مخترقين الغابة المظلمة ، وأحس لوكاشكا أيضاً بفيض من السعادة يغمره ، ووصل بين قلبي هذين الشابين اللذين يختلف كل منهما وصاحبُه تمام الاختلاف — شيء أقرب ما يكون إلى الحب ، وكانا فى كل مرة يتبادلان فيها النظرات يشعران برغبة فى الضحك .

وسأل أولينين : « من أى الأبواب تدخل ؟ »

من الأبواب الوسطى ، ولكنى سأصحبك حتى المستنقع ، وليس أمامك ما تخشاه بعد ذلك »

وضحك أولينين

أتظن أننى خائف ؟ عد أدراجك ، وشكراً جزيلاً لك ، فإنى أستطيع أن أمضى فى الطريق وحدى

وقال لوكاشكا إرضاء لكبرياء أولينين : « لا عليك وما الذى أستطيع أنا أن أفعله ؟ وما حيلتك فى الخوف ؟ حتى نحن يتملكنا الخوف ! » ثم ضحك هو أيضاً .

إذن تعال معى إلى منزلى ، سنتجاذب أطراف الحديث ونشرب كأساً ، ويمكنك أن تعود فى الغد

وضحك لوكاشكا قائلاً : أتظن أننى لا أستطيع أن أجد مكاناً أقضى فيه ليلتى ؟ ولكن الأومباشى طلب منى أن أعود »

« سمعتك تغنى الليلة الماضية ، ورأيتك أيضاً »

حسن . . . وهز لوكاشكا رأسه

وسأله أولينين : « أصحيح أنك على وشك الزواج ؟ »

أمى تود أن أتزوج ، ولكنى لم أحصل بعد على جواد .

ألست فى الخدمة العاملة ؟

كلا ، وما تزال الشقة بينى وبينها بعيدة ، فقد التحقت بالجيش لتوى ، ولم أحصل بعد على جواد ، ولا أستطيع الحصول عليه ، ولذلك فإن الزواج لا يتم .

وكم يكلف الجواد ؟

كنا نساوم على جواد فى الناحية الأخرى من النهر ذلك اليوم ، ورفض القوم أن يبيعوه بستين روبلاً من الفضة مع أنه لم يك إلا جواداً نوغائيًّا ، وقال أولينين فجأة :

هل لك أن تكون « مراسلىّ » ؟ (والمراسلة جندى يلتحق بخدمة ضابط فى أثناء الحملات) « سأدبر لك الأمر وأعطيك جواداً ، فإن عندى فى الحق جوادين ، ولست فى حاجة إليهما جميعاً »

وضحك لوكاشكا وهو يردد قول أولينين : « لست فى حاجة إليهما جميعاً ، ولم تمنحنا هدية ؟ سندبر أمرنا بأنفسنا بمعونة الله »

وقال أولينين : « لا تقل هذا ! أتراك لا تريد أن تكون مراسلىّ ؟ » ، قال أولينين ذلك وقد سره أن طرأت له فكرة إعطاء لوكاشكا جواداً ، وإن كان قد شعر بالضيق والحرج ، دون أن يدرى لذلك سبباً ، ولم يدر ماذا يقول عندما حاول أن يتكلم ؟ .

وكان لوكاشكا أول من قطع حبل السكوت الذى ساد بينهما فسأل : « أتملك منزلاً فى روسيا ؟ »

ولم يستطع أولينين أن ينكر فى جوابه أنه يملك عدة منازل لا منزلاً واحداً .

وسأله لوكاشكا فى براءة : « هل هو منزل كبير ، أكبر من منزلنا ؟ »

فأجاب أولينين : « أكبر بكثير ، إنه عشرة أضعاف منزلكم ، ثم هو من ثلاث طبقات »

وهل عندك جياد كجيادنا ؟

عندى مائة جواد ، يساوى كل منها ثلثمائة روبل أو أربعمائة ، ولكنها ليست كجيادكم ، ثلثمائة روبل فضى ! إنها جياد سريعة العدو ، ومع ذلك فإننى أفضل عليها الجياد التى رأيتها هنا

وقال لوكاشكا ، وقد بدا أنه لا يزال يضحك : « حسن وهل جئت إلى هنا بمحض اختيارك أو حملت على المجىء ؟ » . وأردف يشير إلى طريق كانا يمران به

« انظر ، لقد ضللت الطريق فى هذا الموضع ، وكان يجب عليك أن تنعطف إلى اليمين »

فأجاب أولينين : « لقد جئت بمحض اختيارى ، كنت أود مشاهدة نواحيكم وأن اشترك فى حملة »

فقال لوكاشكا : « إنى لأود أن أشترك فى حملة يوماً ما » . وأردف وهو يرهف السمع «أتسمع أبناء آوى تعوى ؟» .

وسأل أولينين : «قل لى ، ألا تشعر بشىء من الفزع إذا قتلت إنساناً» ؟

وما الذى يدعو إلى الفزع فى ذلك ؟ . وكرر لوكاشكا قوله : ولكن بودى أن أشترك فى حملة ، بودى ذلك !

ربما ذهبنا معاً ، فإن سريتنا سترحل قبل حلول العيد ، وكذلك سريتكم ذات مائة الرجل .

وما الذى حملك على المجىء إلى هنا ؟ إنك تملك منزلاً وجياداً وعبيداً ولو كنت فى مكانك ما فعلت شيئاً إلا أن ألهو وأطرب ! مارتبتك » ؟

إننى من طلبة الكلية الحربية ، ولكنهم أوصوا بترقيتى إلى رتبة ضابط

هذا جميل إلا إذا كنت تفاخر بمنزلك ، ولو كنت مكانك ما تركته ، أجل فإنى ماكنت لأرحل أبداً إلى أى مكان ، أو تروق لك الإقامة بيننا ؟ »

فأجاب أولينين : « أجل ، تروق لى »

وكان الليل قد ادلهم قبل أن يقترب الرجلان من القرية وهما يتحدثان على هذا النحو ، وكانت حلكة الغابة الشديدة لا تزال تلفها فى ردائها الكئيب ، والرياح تئن فى قمم الأشجار ، وقد لاح فجأة أن أبناء آوى كانت تصرخ من خلفها تماماً مولولة تقهقه منتحبة ، ولكنهما كانا قد بدأا يسمعان أصوات النساء ونباح الكلاب

تنساب من القرية أمامها ، وبرزت لعينيها معالم الأكواخ ، وكانت الأضواء تتألق ، وامتلأ الجو بتلك الرائحة الخاصة المعهودة فى دخان الكازياك ، وانتاب أولينين وبخاصة فى تلك الليلة – شعورٌ بأن فى هذه القرية موطنه وأسرته ، بل سعادته جميعاً ، وأنه لم يذق من قبل طعم السعادة ولن يذوقه أبداً فى أى مكان كما ذاقه فى هذه القرية القوزاقية ، وبلغ شغفه بكل إنسان – وخاصة لوكاشكا – مداه فى تلك الليلة ، ووصل الرجلان إلى الدار ، وما كان أشد دهشة لوكاشكا عندما أخرج أولينين من الحظيرة جواداً كان قد اشتراه من جروزنايا وقاده بيديه ، ولم يك هذا الجواد هو الجواد الذى ألف أن يركبه ، بل كان جواداً آخر لا بأس به وإن كانت السن قد تقدمت به وأعطى لوكاشكا إياه .

وقال لوكاشكا : « لماذا تهدى إلى هدية ؟ إننى لم أؤد لك شيئاً بعد ! » .

فأجاب أولينين : « إنها هدية لا تذكر ، خذها فلسوف ترد لى الهدية يوماً . . وسنخرج فى حملة على العدو معاً » .

وتملكت الحيرة لوكاشكا .

وقال دون أن ينظر إلى الجواد : « ولكن ماذا تعنى بهذه الهدية ، وإنك لتعلم أن الجواد باهظ الثمن ؟ .

– خذه ، خذه ! فإن لم تفعل أسأت إلى ، فانيوشا ! خذ الجواد الأشهب إلى منزله .

فأمسك لوكاشكا برسن الجواد .

– شكراً لك إذن ! ولا أنكر أن هذا أمر لم أكن أتوقعه .

وكان أولينين سعيداً سعادة غلام فى الثانية عشرة من عمره .

– اربطه هنا ، إنه جواد أصيل وقد اشتريته من جروزنايا ، وهو يجيد العدو !

إلينا بشيء من الجكير يا فانيوشا . تعال بنا ندخل الكوخ .

وجاء فانيوشا بالخمر ، وجلس لوكاشكا وأخذ طاس الخمر بين يديه .

وقال وهو يأتى على الطاس : « سأجد بعون الله وسيلة أرد بها دينك ما اسمك »

— ديمترى أندرييفتش

— بارك الله فيك يا ديمترى أندرييفتش ، سنكون صديقين حميمين ، والآن حقت عليك زيارتنا ، صحيح أننا ربما لا نكون من الأثرياء ، ولكننا نعرف كيف نقوم بالواجب علينا لصديق حميم ، وسأخبر أمى بالأمر ؛ لعلك تحتاج إلى شيء من القشدة المختمرة أو العنب ، وإذا جئت إلى النطاق سرنى أن أصحبك إلى القنص أو أجتاز معك النهر أو أرافقك إلى أى مكان شئت ! إنى أذكر الآن ذلك الخنزير البرى الكبير الذى أصبته منذ أيام فحسب وتقاسمته أنا والقوزاق ، ولو قد عرفت ما انطوت عليه جوانحك لأعطيتك إياه .

— لا عليك ! وشكراً لك ، إن ثمة أمراً آخر أريد أن أفصح لك عنه إن شئت ، ثم أردف لوكاشكا خافضاً صوته : « لى صديق حميم اسمه كراى خان وقد طلب منى أن أكمن أنا وهو بجانب الطريق حيث يهبط القوم من الجبل ، أفلا نذهب معاً ؟ لن أخونك ، بل سأكون مريداً لك » . .

— أجل ، سنذهب معاً ، سنذهب فى يوم من الأيام .

ويظهر أن لوكاشكا استعاد هدوءه تماماً ، وأدرك موقف أولينين منه ، وعجب أولينين لما بدا من هدوئه وانطلاقه على سجيته ، بل أحسّ بأن فى ذلك شيئاً لا يرضيه كل الرضا ، وتحدث الرفيقان طويلاً ، وكان الوقت متأخراً عندما صافح لوكاشكا أولينين وتركه ، ولم يكن الفتى ثملاً (ذلك أن الخمر لم تنل منه قط) ؛ وإنما كان قد عبّ من الخمر عبًّا حتى امتلأ بها جوفه ، وأطل أولينين من النافذة ؛

ليرى ما عساه أن يصنع ، وخرج لوكاشكا متمهلاً وقد خفض رأسه ، ثم قاد الجواد إلى خارج الباب ، وهز رأسه فجأة ، وقفز على ظهره كأنه القط ، وجمع أعنة الرسن بين يديه وصرخ صرخة ثم ركض ومضى فى الطريق .

وكان أولينين قد توقع أن لوكاشكا سيمضى إلى ماريانكا يقاسمها أفراحه ، على أن لوكاشكا لم يمض إليها ، ومع ذلك فقد طابت نفس أولينين كما لم تطب من قبل قط ، واستخفه الفرح كأنه غلام حدث ، ولم يستطع أن يكتم عن فانيوشا أنه أعطى لوكاشكا الجواد ، بل صارحه بالسبب الذى دعاه إلى ذلك ، كما صارحه بمذهبه الجديد فى السعادة .

ولم يوافق فانيوشا على هذا المذهب ، بل هتف بالفرنسية : « إن الوفاض قد خلا من النقود ! ، ولذلك كان ذلك كله هراء فى هراء ! » .

وعاد لوكاشكا إلى داره وقفز مترجلاً عن جواده ، وسلمه إلى أمه وطلب منها أن تطلقه يرعى مع القطيع القوزاق العام . ذلك أن الواجب كان يقتضيه أن يعود إلى النطاق فى تلك الليلة نفسها ، وتعهدت أخته البكماء بأن تعنى بالجواد ، وأشارت بيديها إشارات تدل على أنها لو رأت الرجل الذى وهب له الجواد لجثت تحت قدميه ! واكتفت العجوز بهز رأسها عندما سمعت قصة ابنها ، وقالت فيما بينها وبين نفسها : إن ابنها قد سرق الجواد ، ولذلك قالت لابنتها الصماء : أن تأخذه إلى حيث يرعى القطيع قبل انبلاج الصبح .

وعاد لوكاشكا وحده إلى النطاق ، وهو يتأمل فى صنيع أولينين ، ولم يكن الجواد فى رأيه أصيلاً ، إلا أنه كان يساوى أربعين روبلاً على الأقل ، وقد سرته هذه الهدية ، على أنه لم يدرك السبب الذى حدا بأولينين إلى أن يهب له الجواد ، ولذلك لم يخالجه أى شعور بالشكر أو العرفان بالجميل ، بل أحسّ على العكس من

ذلك ، بوساوس امتلأت بها نفسه : فقد خشى أن يكون لطالب الحربية مآرب أخرى خبيثة ، وعجز لوكاشكا عن أن يتبين كنه هذه المآرب ، أو يعلل السبب الذى حمل رجلاً غريباً عنه أن يهب له جواداً يساوى أربعين روبلاً من غير مقابل إلا العطف والبر !

كان الأمر يبدو فى نظره مستحيلاً ، ولو أنه كان ثملاً لجاز ذلك ! من يدرى ؟ ربما أراد أن يتظاهر بالكرم ، إلا أن طالب الحربية لم يك ثملاً . فلاشك إذن أنه أراد أن يرشوه ليأتى أمراً إدًّا . وحدث لوكاشكا نفسه : « ياله من خداع ! أجل لقد حصلت على الجواد وسنرى بعد ذلك ما يكون . » ثم استرسل فى تفكيره : « لست بالغر الساذج ، وسنرى لمن تكون الغلبة ؟ » ، وأحس لوكاشكا وهو يقلب الأمر على هذا النحو أن الحيطة واجبة ، وتغير لذلك قلبه نحو أولينين . ولم يقل لأحد من الناس كيف حصل على الجواد ؟ وقال لبعضهم : إنه اشتراه وراوغ آخرين فلم يجبهم إجابه صريحة .

على أن الحقيقة سرعان ما انكشفت وذاع الأمر فى القرية ، وتملكت الحيرة أم لوكاشكا وماريانكا ، كما تملكت إيليا فاسيلييفتش وغيره من القوزاق عندما علموا بأمر الهدية التى أهداها أولينين للوكاشكا من غير سبب ، وبدءوا يلزمون جانب الحذر حيال طالب الحربية ، إلا أن أفعاله أثارت فيهم بالرغم من هذه المخاوف الاحترام الكبير لما بدا من طيبته وثرائه .

وقال أحدهم : « هل سمعت أن طالب الحربية الذى يقيم عند إيليا فاسيلييفتش قد نفح لوكاشكا جواداً يساوى خمسين روبلاً ؟ لا شك أنه غنى ! »

وأجاب ثان فى عبارة وجيزة مفيدة : « أجل ، لقد سمعت بهذا ، ولا شك أنه

أدى له خدمة عظيمة ، وسنرى ما يكون من أمره ، إيه ! إن حظ ذلك «المنتشل» لعظيم » !

وقال ثالث : « إن طلبة الحربية هؤلاء قوم يتسمون بالمكر والدهاء ، وسترون أنه سيشعل النار يوماً فى منزل أو يرتكب شيئاً من هذا القبيل ! »

الفصل الثالث والعشرون

وسارت حياة أولينين فى نظام رتيب يبعث فى النفس الملالة والسأم ، وكان اتصاله بالرؤساء من الضباط أو برفاقه قليلاً ، وكان مركز طالب الحربية الغنى فى القوقاز ممتازاً بوجه خاص من هذه الناحية ، فلم يك يخرج لعمل أو لتدريب ، ولقد أوصوا بترقيته إلى رتبة ضابط مكافأة له على اشتراكه فى الحملة ، وتركوه وشأنه إلى أن تتم ترقيته ، وكان الضباط ينظرون إليه نظرتهم إلى رجل من علية القوم ، ويعاملونه باحترام ، أما هو فلم يك يستهويه لعب الورق أو ولائم اللهو والقصف التى كان يقيمها الضباط ويتخللها غناء الجنود ، كان قد خبر هذه الولائم عندما كان فى الفصيلة ، ولذلك كان أولينين أيضاً يتحاشى الاجتماع بالضباط ومشاركتهم فى حياتهم بالقرية .

وكانت حياة الضباط الذين يعسكرون فى قرية قوزاقية قد انطبعت منذ زمن بعيد بطابعها الخاص ، وكما أن طالباً حربيًّا أو ضابطاً قد جرى على أن يشرب الجعة بانتظام عندما يكون فى حصن ، ويلعب الورق ويتحدث فى المكافآت التى تمنح

نظير الاشتراك فى الحملات ، كذلك كان غيره فى القرى القوزاقية يشرب الجكير بانتظام مع ضيوفه ، ويقدم الحلوى والشهد إلى الفتيات ، أو يتسكع خلف القوزاقيات ، ويقع فى شراك حبهن ، وكثيراً ما يتزوج منهن ، أما أولينين فقد كان يلتزم دائماً نهجه الخاص ، ويأنف بطبيعته من انتهاج المسلك الشائع المعروف ، وهكذا كان شأنه أيضاً فى هذه القرية فإنه لم يهبط إلى صخب الحياة التى كان يحياها ضباط الجيش القوزاقى

وأصبح من أيسر الأمور لديه أن يستيقظ فى الفجر ، ويشرب الشاى وينظر من مدخل كوخه نظرة إعجاب بالجبال والصبح وماريانكا ، ثم يرتدى سترة مهلهلة من جلد الثور ونعلاً من الجلد الغفل الندى ، ويتمنطق بمدية ويحمل بندقيته وبعض لفافات من التبغ وشيئاً من الطعام فى كيس صغير ، وينادى كلبه ، وما إن تجاوز الساعة الخامسة بقليل حتى يكون قد شرع فى الخروج إلى الغابة فيما وراء القرية ، ويعود فى الساعة السابعة مساء أو نحوها جائعاً منهوك القوى تتدلى من حزامه خمسة دراريج أو ستة (أو يعود بحيوان آخر أحياناً) ، من غير أن يمس كيسه الذى احتوى الطعام ولفافات التبغ ، ويستطيع المرء أن يدرك أن الأفكار التى فى رأسه قد بقيت ساكنة سكون لفافات التبغ فى الكيس متى علم أنه ما من فكرة واحدة قد تحركت فى رأسه طوال تلك الساعات الأربع عشرة .

وكان يعود وقد تجددت روحه المعنوية وقويت وغمره شعور بالسعادة الكاملة ، ولم يكن يستطيع أن يقول فيم كان يفكر طوال هذا الوقت ؟ ترى أكان ذلك الذى يتراءى له أفكاراً أم ذكريات أم أحلاماً ؟ الحق أن ذلك كله كان يراوده فى غالب الأحيان ، وكان يوقظ نفسه ويتساءل عما كان يفكر فيه ، فيرى نفسه رجلاً قوزاقيًّا يعمل فى كرمة مع زوجته القوزاقية أو أحد الأبركة فى الجبال أو خنزيراً بريًّا يهرب من

نفسه ، وكان طوال هذا الوقت يحدق النظر ويترقب ظهور دراج أو خنزير برى أو أيل .

ولم تك تمر أمسية من الأمسيات إلا يجالسه العم يروشكا وكان فانيوشا يأتى لهما بإبريق من الجكير ، فيتجاذبان أطراف الحديث فى هدوء ، ويشربان ، ثم يفترقان ويمضى كل منهما إلى فراشه ناعم البال راضى النفس ، وفى اليوم التالى يذهب أولينين إلى القنص مرة أخرى ، ويعود منه وهو متعب ، ولكن فى صحة وعافية ، ويجلسان جلستهما من جديد يتحدثان ويشربان كفايتهما ، وينعمان بالسعادة كما نعما بها من قبل ، وكان أولينين يقضى أحياناً سحابة يومه فى منزله إذا كان اليوم يوم راحة أو عطلة منصرفاً إلى مراقبة ماريانكا ، وكان يتابع على غير وعى منه كل حركة من حركاتها من نافذته أو مدخل كوخه متابعة النهم الظمآن ! وكان يضمر لها الاحترام ويحبها (أو هكذا خيل إليه) حبه لروعة الجبال والسماء سواء بسواء ، ولم يفكر قط فى أن يرتبط معها بعلاقة ما ، وبدا له أنه لا يمكن أن تقوم بينها وبينه علاقة كالتى قامت بينها وبين لوكاشكا القوزاقى ، وناهيك بالعلاقة التى كثيراً ما كانت تقوم بين الضباط الأثرياء والفتيات القوزاقيات الأخريات .

ودار بخلده أنه لو حاول أن يفعل ما يفعله زملاؤه الضباط لترك استمتاعه الكامل بالتأمل ووقع فى لجة من العذاب وخيبة الرجاء والندم .

زد على ذلك أنه كان قد أحرز نجاحاً بإنكاره لذاته حيالها إنكاراً فاضت له نفسه بالسرور ، على أنه كان فوق هذا كله يخشى ماريانكا بوجه من الوجوه ، ولا يغريه شىء أبداً بأن يلقى على مسامعها فى خفة وطيش كلمة من كلمات الحب .

ودخل على أولينين على غير انتظار فى يوم من أيام الصيف ، وكان قد لزم داره ولم يخرج للقنص فى ذلك اليوم – شابٌ فى مقتبل العمر من معارفه فى موسكو ،

كان قد قابله فى مجتمع من المجتمعات الراقية .

وأخذ يقول له فى لغته المسكوفية التى خالطتها الفرنسية : « آه يا عزيزى ، يا صديقى العزيز ! لشد ما سرنى إذ علمت بوجودك هنا ! » واسترسل وهو يمزج ملاحظاته بالكلمات الفرنسية : « قالوا أولينين ! أى أولينين هذا ؟ ثم غمرنى فيض من السرور . . فانظر كيف يجمع القدر بيننا هنا ! والآن كيف حالك ؟ كيف ؟ ولماذا ؟ » ، وروى له الأمير بيليتسكى قصته كلها ، روى كيف التحق بالكتيبة مؤقتاً ، وكيف عرض عليه القائد العام أن يجعله أركاناً لحربه ؟ وكيف أنه سيتسلم أعباء وظيفته بعد الحملة ، وإن كان شخصيًّا لا يكترث بها البتة .

وقال بيليتسكى : « إن الإقامة هنا فى هذه الحفرة تقتضى من المرء على الأقل أن يحقق لنفسه مستقبلاً ، كأن يحصل على وسام أو رتبة ، أو ينقل إلى الحرس ، وهذا أمر لا غنى عنه لا لشخصى بطبيعة الحال ، بل من أجل أقاربى وأصدقائى ، لقد استقبلنى الأمير استقبالا حسناً جدًّا ، وإنه لرجل بلغ النهاية فى دماثة الخلق » ، واسترسل يقول وهو لا يكف عن الحديث : « لقد أوصوا بمنحى وسام سانت أنَّا مكافأة لى على الحملة ، ولذلك سأبقى هنا قليلاً حتى نشرع فيها ، إن الإقامة هنا لممتعة ، وى من النساء هنا ! ولكن كيف تسير أمورك ؟ لقد أخبرنى رئيسنا اليوزباشى ستارتسيف ، وهو كما تعلم مخلوق غبى طيب القلب . . قال لى : إنك تعيش كالهمجى المتوحش لا تلقى أحداً ! وإنى لأدرك كل الإدراك السبب الذى يدعوك إلى عدم الاختلاط بذلك الطراز من الضباط الذين يقيمون هنا ، ويسرنى غاية السرور الآن أننا سوف نلتقى من حين إلى حين ، وقد نزلت فى منزل الأومباشى ، وهناك فتاة رائعة اسمها أوستنكا ! ولا أنكر عليك أنها جذابة تهفو لها القلوب »

وأخذت تتدفق من فم بيليتسكى الكلمات الفرنسية والروسية وهو يتحدث عن ذلك العالم الذى ظن أولينين أنه قد تركه إلى الأبد .

وكان الاعتقاد السائد عن بيليتسكى أنه شاب دمث الخلق ، ولعل ذلك كان شأنه حقًا ، إلا أن أولينين كان يراه سمجاً كل السماجة بالرغم من وجهه السمح الوسيم ، وبدا له أنه قد ملأ رتيه بتلك الأقذار التى نبذها أولينين ، وكان أشد ما يضايقه أنه لا يستطيع - بل لم تكن له القدرة - على صد هذا الرجل الذى جاء من ذلك العالم ، وخيل إليه أن ذلك العالم القديم الذى كان ينتمى إليه له حقٌ عليه ملح لا يستطيع له ردًا ، وشعر أولينين بالسخط على بيليتسكى والسخط من نفسه هو ، على أنه أخذ يدخل فى حديثه بالرغم منه عبارات فرنسية ، ويبدى اهتمامه بالقائد العام وبأصدقائهما فى موسكو ، وكان هو وبيليتسكى هما الوحيدان اللذان يستطيعان الحديث بالفرنسية فى هذه القرية القوزاقية ، ولذلك كان أولينين يتحدث عن زملائهما الضباط وعن القوزاق بلهجة تنم عن الاحتقار ، وكان يتودد إلى بيليتسكى ، ووعده بأن يزوره ودعاه إلى زيارته ، على أن أولينين لم يذهب لزيارة بيليتسكى .

أما فانيوشا فقد كان من ناحيته راضياً عن بيليتسكى ويقول عنه : إنه سيد مهذب بمعنى الكلمة .

ولم يلبث بيليتسكى أن سلك فى حياته المسلك المعهود فى ضابط غنى يقيم فى قرية قوزاقية .

وما انقضى على ذلك شهر حتى رأى أولينين أن صاحبه قد أصبح كواحد من النزلاء القدامى فى القرية : ذلك أنه كان يحمل الشيوخ على السكر ، ويقيم الحفلات الليلية ، ويحضر بشخصه الحفلات التى كانت تقيمها الفتيات ، ويتفاخر

١٧٩

بمغامراته ، بل تمادى فى ذلك إلى حد حمل النساء والفتيات أن ينادينه بيا جدى لغير ما سبب معروف ! وألفه القوزاق الذين كانوا يأنسون بالرجل الذى يحب الخمر والنساء ويفهمونه حق الفهم ، بل هم قد آثروه على أولينين الذى كان يبدو فى نظرهم غامضاً كاللغز !

الفصل الرابع والعشرون

كانت الساعة الخامسة صباحاً وقد وقف فانيوشا فى مدخل الكوخ يشعل وعاء غلى الشاى ويستخدم فى التهوية على النار ساق حذاء طويلة ، وكان أولينين قد ركب جواده ، وذهب يستحم فى نهر ترك (وقد ابتدع حديثاً ضرباً جديداً من ضروب اللهو هو أن يأخذ جواده للاستحمام فى النهر) ، وكانت ربة داره فى الكوخ الصغير ، وأخذ الدخان الكثيف للنار المتقدة يتصاعد من المدخنة ، وكانت الفتاة تحلب الجاموسة فى الحظيرة ، وصاحت فى صوت ينم عن نفاد صبرها : «ألا يمكن أن تقف هذه الشقية ساكنة ؟» . وتلا ذلك صوت الحلب المنتظم الرتيب .

وانطلق من الطريق أمام المسكن صوت حوافر جواد تقعقع فى خفة ونشاط ، وبلغ أولينين الباب ممتطيـاً الصهوة العارية لجواد مليح أشهب فى دكنة ، وكان الجواد لا يزال مبلـلاً يتألق ، وبدا رأس ماريانكا الجميل من الحظيرة ، وقد عصبته بمنديل أحمر ، ثم عاد واختفى ، وكان أولينين يرتدى قميصاً من الحرير الأحمر ، وسترة جركسية بيضاء ، وقد تمنطق بسير من الجلد حمل فيه خنجراً ، ووضع على

رأسه قبعة عالية ، وجلس على ظهر جواده المبتل المربل فى شيء من الرشاقة يعيها بعض الوعى ، وحمل بندقيته على ظهره ، وانحنى ليفتح الباب ، وكان شعره لا يزال مبتلاً وقد أضاء وجهه بنضرة الشباب والعافية ، وكان يظن فى نفسه أنه وسيم خفيف الحركة كالزغيثى أو هو أشبه ، إلا أنه كان فى ذلك واهماً ، فإن نظرة واحدة من قوزاق خبير كانت كفيلة بالحكم عليه بأنه ما زال بعدُ جنديًا ، جنديًّا فحسب .

وما إن أدرك أن الفتاة قد أخرجت رأسها حتى مال على جواده فى رشاقة تسترعى النظر ، وفتح الباب على مصراعيه ، وشد اللجام ولوح بسوطه ودخل الفناء ، ثم صاح فى مرح دون أن ينظر إلى باب الحظيرة : « أوقد أعِدّ الشاى يافانيوشا ؟ » . ورأى والسرور يشيع فى نفسه كيف أن جواده الأصيل ، وهو يضم قائمتيه الخلفيتين ويضرب بهما فى الهواء يجذب اللجام وتنتفض كل عضلة من عضلاته قد أخذ يتوثب على طين الفناء الصلب متحفزاً لطى السور فى قفزة خاطفة ، وأجاب فانيوشا بالفرنسية : « إنه معد » ، وشعر أولينين بأن رأس ماريانكا الجميل لا يزال يطل من الحظيرة ، إلا أنه لم يلتفت ليتملى منه بنظرة ، وعلقت بندقيته بالباب وهو يقفز مترجلاً عن جواده فترنح ترنح الأخرق الغليظ الحركة ونظر فى وجل صوب الحظيرة فلم ير أحداً ولكنه كان لا يزال يسمع صوت الحلب .

ودخل الكوخ ثم خرج منه بعد قليل ، وجلس يحتسى قدحاً من الشاى فى ذلك الجانب من المدخل الذى لم تكن أشعة الشمس قد أدركته بعد وجاء معه بغليونه وحمل كتاباً . وكان ينوى ألا يبرح داره قبل أن يحين موعد الغداء ، وأن يكتب بعض الخطابات التى طال به إرجاؤها ، إلا أنه شعر لأمر ما بالعزوف عن ترك مكانه

من المدخل ، وأحجم عن العودة إلى الكوخ كما لو كان سجناً ، وكانت ربة الدار قد حملت موقدها ، وعادت الفتاة بعد أن ساقت الماشية إلى الخارج ، وأخذت تجمع الكزياك ، وتكومه على طول السياج ، وواصل أولينين القراءة دون أن يفهم حرفاً مما كان يقرأ فى الكتاب المفتوح أمامه ، وظل يرفع بصره عنه وينظر إلى الغادة الفتية التى كانت تروح وتغدو فى الفناء ، وكان يخشى دائماً أن تفوته حركة من حركاتها سواء أخطرت فى ظلال الصباح الندية التى يلقيها المنزل أم خرجت فى الضوء المبكر البهيج ينساب وسط الفناء فيتألق قوامها الممشوق فى ضوء الشمس مشرقاً فى ثوبها الزاهى ويلقى ظلاً أسود . وكان يسره أن يرى كيف تنحنى بقوامها إلى الأرض فى يسر ورشاقة وكيف يلتف ثوبها الوحيد ، وهو قميص وردى اللون ، بصدرها فى ثنيات ، ثم يهبط مسترسلاً على ساقيها الجميلتين ؟ وكيف كانت ترفع قامتها فيفضح قميصها المشدود معالم ثدييها الفتيين الخفاقين ؟ وكيف كان باطن قدميها النحيلتين فى خفها الأحمر البالى يلمس الأرض فلا يتغير شكله ؟ وكيف أن ذراعيها القويتين وقد شمرت عن ساعديها أخذتا تجهدان عضلاتهما وهما تستعملان الجاروف كما لو كانتا فى سورة من غضب ؟ وكيف أن عينيها السوداوين العميقتين كانتا ترمقانه أحياناً وتعبران عن سرورها وإحساسها بجمالها وإن كانت تقطب ما بين حاجبيها البديعين ؟

وقال بيليتسكى وهو يدخل الفناء مرتدياً سترة ضابط قوقازى : « ألا قل لى يا أولينين : هل استيقظت منذ وقت طويل ؟ »

وأجابه أولينين وهو يمد يده لمصافحته : « بيليتسكى ! ما بالك قد استيقظت مبكراً كل هذا التبكير ؟ »

— لم يكن لى بد من ذلك ، فقد حملت حملاً على الخروج من الدار ! ذلك

أننا سنقيم الليلة حفلة راقصة ، ثم أردف وهو يلتفت إلى الفتاة : « ستأتين طبعاً إلى منزل أوستنكا يا ماريانكا » . وعجب أولينين من أن بيليتسكى قد استطاع أن يتحدث مع هذه الفتاة بمثل هذه السهولة ، ولكن ماريانكا حنت رأسها ، كأنها لم تسمعه ، وألقت الجاروف على كتفها ، وسارت صوب الكوخ الصغير فى خطواتها الثابتة التى تشبه خطوة الرجل ، وصاح بيليتسكى من وراء ظهرها : « إن الفتاة العزيزة لخجول ، أجل إنها خجول وأردف يقول مبتسماً فى طرب وسرور وهو يرتقى درج المدخل بسرعة ، خجول منك »

– كيف تقول : إنكم ستقيمون حفلة راقصة ثم تحمل حملاً على الخروج من الدار ؟

– ستكون الحفلة عند أوستنكا ، فى بيت ربة الدار التى أقيم فيها ، وأنت مدعو لحضورها ، وأنت تعلم أن حفلة الرقص قوامها فطيرة وجمع من الفتيات .

– ولكن ما الذى نفعله هناك ؟

وابتسم بيليتسكى ابتسامة العارف ، وغمز بعينيه ، وهو يطوح رأسه فى اتجاه الكوخ الصغير الذى غابت فيه ماريانكا عن الأنظار .

وهز أولينين رأسه وصبغت حمرة الخجل وجهه ثم قال : « ياللك من فتى عجيب ! »

– كن على سجيتك ولا تتظاهر !

وقطب أولينين حاجبيه ، ولاحظ بيليتسكى ذلك ، فابتسم متحبباً إليه وقال : « لا ينطلى هذا على ، ماذا تعنى ؟ أتقيم معها فى منزل واحد ! هذه الفتاة الرائعة ، هذه الفاتنة ، المكتملة الحسن ؟ »

وأجاب أولينين : « عجيبة الحسن ! إننى لم أر بعد قط امرأة بلغت من الحسن هذا المبلغ ! »

وقال بيليتسكى وهو لا يدرك الموقف تمام الإدراك : « حسن إذن ! »

وأجاب أولينين : « قد يكون الأمر غريباً . ولكن لماذا لا أقول الحق ، إن النساء فيما يظهر لا وجود لهن فى حياتى منذ أقمت هنا ، ولا أكتمك أن فى ذلك الخير كل الخير ! إذ ما الذى يجمع بيننا وبين نساء من هذا القبيل ؟ أما يروشكا . . فإن أمره ليختلف هو وذلك فإن ما يجمعنى به ضرب من ضروب الشغف بشىء هو الصيد » .

— على رسلك ! يجمعك بهن ! وأى شىء يجمع بينى وبين أماليا إيفانوفنا ؟ إنه هو هذا الشىء نفسه ! قد تقول : إن حظهن من العفة ليس عظيماً ، ولكن هذا شىء آخر . . ثم أردف بالفرنسية : «فى الحرب : أفعل كما يفعل الناس فى الحرب» .

وأجاب أولينين : « ولكننى لم أعرف قط امرأة على شاكلة أماليا إيفانوفنا . وليس لى أى علم بالسلوك الذى ينتهج فى معاملة نساء من هذا الطراز ، إن المرء لا يستطيع أن يحترمهن . أما هؤلاء فإننى أحترمهن » .

— حسن ، استمر فى احترامهن ! فمن ذا الذى يريد أن يمنعك من ذلك ؟

ولم يجب أولينين ، والظاهر أنه كان يريد أن يتم ما بدأه من حديث ، فقد كان قريباً كل القرب من قلبه .

— «إنى لأعلم أنى شاذ . . ! » — وكان من الواضح أن الحيرة تتملكه — «ولكن حياتى قد تبلورت تبلوراً لا أرى معه داعياً لنبذ مبادئى ، ثم إننى فوق هذا لا أستطيع أن أعيش على نحو ما تعيش ، ناهيك بما أنعم به من سعادة بفضل

الطريقة التي انتهجتها فى حياتى هذه ، ولذلك فإنى ألتمس ، بل أرى فيهن شيئاً يختلف بالمرة وما تسعى إليه أنت » .

ورفع بيليتسكى حاجبيه وهو لا يصدق ما يسمع : « على كل حال تعال عندى الليلة ، فستكون ماريانكا موجودة ، وسأعرف كلاً منكما بالآخر ، أرجوك أن تأتى ، وإذا شعرت بالسأم أمكنك الانصراف ، أفلا تأتى ؟ »

– أحب أن أحضر ، ولكنى لا أخفى عليك أننى أخشى أن ينال منى الإغراء مناله !

وصاح بيليتسكى : « واهاً لك ! حسبك أن تأتى ، وسأسهر عليك ، أفلا تأتى ؟ وهل تعدنى بشرفك ؟ »

– أود أن آتى ، ولكننى لا أفهم حقًّا ما الذى نفعله ؟ وأى شأن يكون لنا ؟

– أرجوك ، بل أتوسل إليك ، أفلا تأتى ؟

وقال أولينين : « أجل ، ربما أتيت » .

– واعجبى لك ! نساء فاتنات لا يراهن المرء فى مكان آخر ثم تعيش كالراهب ! يا لها من فكرة ! لماذا تفسد حياتك ، ولا تنتفع بما فى يدك . هل سمعت بأن سريتنا قد أنفذت إلى فوزدفينسكايا ؟

وقال أولينين : « ليس هذا أمراً قريب الاحتمال ، فقد علمت بأن السرية الثامنة هى التى ستوفد إلى تلك البلدة » .

– كلا ، فقد تلقيت خطاباً من أركان الحرب ، وهو يقول : إن الأمير نفسه سيشترك فى الحملة ، ولشد ما يبهج قلبى أننى سألقاه ! فقد سئمت هذا المكان . سمعت أننا سنقوم بغزوة عما قريب ، فقال بيليتسكى وهو يضحك :

– لم أسمع شيئاً من هذا ، ولكننى سمعت أنه قد أنعم على كرينوفيتسين بوسام

سانت أنّا مكافأة له على غزوة قام بها ، وكان ينتظر أن ينعم عليه برتبة ضابط ، إنها لصدمة أو هى أقرب ، أليس كذلك ؟ وقد ذهب الرجل إلى مقر القيادة لبحث الأمر . .

وكان الغسق قد بدأ يقترب ، وأخذ أولينين يفكر فى الحفلة ، فقد كانت الدعوة التى تلقاها تقلق باله ، وأحس برغبته فى الذهاب ، ولكن ما كان ينتظر أن يحدث فى الحفلة بدا لعينيه غريباً سخيفاً ، بل مثيراً للفزع بعض الشىء ، فقد أدرك أن الحفلة لن يكون فيها رجال من القوزاق ولا نساء من العجائز ، بل سيقتصر حضورها على الفتيات ، فما الذى عساه أن يحدث ؟ وكيف يكون سلوكه ؟ وأى الموضوعات يطرق ؟ وأى علاقة تربطه بأولئك الفتيات القوزاقيات الآبدات ؟» .

وكان بيليتسكى قد حدثه بأمر علاقات كثيرة غريبة ماجنة إلا أنها تتسم بالتحفظ ، وبدا له أن من الغريب أن يفكر فى أنه سيكون هناك ويضمه كوخ واحد مع ماريانكا . وربما اضطرته الحال إلى التحدث إليها ، وظهر له استحالة ذلك عندما تذكر جلالها وبهاءها ، ولكن بيليتسكى كان يتحدث فى الأمر كأنه سهل كل السهولة ميسور غاية اليسر ، فقال يحدث نفسه : « أمن الممكن أن يعامل بيليتسكى ماريانكا بهذه الطريقة نفسها ؟ إن هذا الأمر يثير الاهتمام ، كلا ، كلا ! . . خير لى ألا أذهب ، فإن الأمر غاية فى البشاعة ، مبتذل أشد الابتذال ، ثم هو فوق ذلك كله – لا يؤدى إلى شىء ! » ، على أن القلق عاد يساوره فيما عساه يحدث ، أضف إلى ذلك أنه أحس كمن ارتبط بوعد ، وخرج أولينين دون أن يستقر على رأى فى السبيل الذى يسلكه ، إلا أنه سار حتى بلغ منزل بيليتسكى ودخله .

وكان الكوخ الذى يقيم فيه بيليتسكى شبيهاً بكوخ أولينين ، فقد كان مرتفعاً عن

الأرض نحواً من خمس أقدام ، يقوم على أعمدة خشبية ، ويتألف من غرفتين ، وكان فى الغرفة الأولى – وقد دخلها أولينين مرتقياً « قلبة » السلم الشديد التحدر – فرش من الريش وطنافس وبطاطين ووسائد ، نسقت فى ذوق تنسيقاً جميلاً على الطريقة القوزاقية . وامتدت بطول الجدار الرئيسى ، وعلقت فوق الجدران الجانبية الكئوس الصغيرة والأسلحة من النحاس ، فى حين كان البطيخ والقرع ملقى على الأرض تحت أريكة ، أما الغرفة الأخرى فقد كان فيها موقد كبير بنى بالآجر ومنضدة وأرائك وأيقونات طائفية ، وها هنا كان يقيم بيليتسكى بفراش معسكره وحقيبته وصناديقه ، وكانت أسلحته معلقة على الجدار وخلفها طنفسة صغيرة ؛ ووضعت على المنضدة أدوات زينته وبعض الصور ، وقد أُلقىَ قفطان من الحرير على أريكة ، وكان بيليتسكى نفسه مستلقياً على فراشه بملابسه الداخلية ، منتعشاً صبيح الوجه ، يقرأ رواية الفرسان الثلاثة .

وقفز من سريره :

– أرأيت كيف دبرت الأمور ؟ تدبير جميل ، أليس كذلك ؟ إننى لسعيد كل السعادة بقدومك ، إن القوم يعملون بكل جد ونشاط ، أتعرف ممّ صنعت الفطيرة ؟ من الدقيق وحشيت بلحم الخنزير والعنب ، ولكن ليس هذا كل ما فى الأمر ! انظر إلى الحركة القائمة فى الخارج !

والحق أنهما ما إن أطلا من النافذة حتّى شاهدا هرجاً ومرجاً غير عاديين فى الكوخ ، وكانت الفتيات يدخلن ويخرجن مسرعات ، ساعيات إلى شىء حيناً ، وإلى شىء آخر حيناً ، وصاح بيليتسكى : « أو تفرغن منها قريباً ؟ »

– قريباً جداً ! ولم ؟ هل أصاب الجوع جدنا ؟ . . وعلت قهقهتّن من الكوخ .

ودخلت أوستنكا إلى كوخ بيليتسكى طلباً لبعض الصحاف ، وكانت فتاة ممتلئة الجسم صغيرة ، وردية اللون مليحة وقد شمرت عن ساعديها .

وصرخت الفتاة منفلتة من بيليتسكى : « إليك عنى وإلا حطمت الصحاف ! » ، وصاحت وهى تضحك فى وجه أولينين : « يحسن بك أن تقبل وتساعدنا ، ولا تنس أن تأتى ببعض المنعشات للفتيات » (ومعنى « المنعشات » الخبز المطيب والحلوى)

– أوحضرت ماريانكا ؟

– طبعاً ! وقد جاءت بالدقيق .

وقال بيليتسكى : « هلا علمت أنه لو تعهد أحد أوستنكا فألبسها الملابس الأنيقة وعمل على نظافتها وصقلها لبزت كل ما عندنا من حسان ! أو لم تر قط المرأة القوزاقية التى تزوجت أميرالاياً ؟ لقد كانت جذابة ! بورشتشيفا هذه ، ألا ما أروع محياها وأجل سناها ! ترى من أين أتوا بها ؟ . . »

– لم أر بورشتشيفا ، على أنى لأحسب أنه ما من لباس أفضل من اللباس الذى ترتديه هنا .

وقال بيليتسكى وهو يتنهد تنهد الرضا : « إنى لخير من يندمج فى أى نوع من أنواع الحياة . ولأذهبن لأرى ما يفعلن » . وألقى قفطانه على كتفيه . وخرج مسرعاً وهو يقول : « وعليك أن تدبر أمر المنعشات » .

وأوفد أولينين مراسلة بيليتسكى لشراء الخبز المطيب والشهد ، ثم خطر له فجأة أن إعطاء النقود أمر كريه (يشبه الرشوة) حتى إنه لم يجب جواباً شافياً على سؤال المراسلة : « كم من الخبز المطيب بالنعناع ؟ وكم من المطيب بالشهد ؟ »

– كما تشاء .

وسأله الجندى العجوز سؤالا له مغزى : « هل أنفق النقود كلها ، إن النعناع أغلى ، لأن ثمنه ستة عشر كوبكاً » .

فقال له أولينين : « أجل ، أجل ، أنفقها كلها » ، ثم جلس بجوار النافذة وقد عجب لوجيب قلبه يضرب بشدة كأنه يتهيأ لارتكاب جريمة خطيرة ، وطرقت أذنيه أصوات صراخ وصياح فى كوخ الفتيات عندما دخله بيليتسكى ، ثم لم يلبث أن رآه بعد بضع دقائق يقفز إلى الخارج ويهبط الدرج مسرعاً مشيعاً بالصرخات والضجيج والضحك ، وقال : « لقد طردت » .

ودخلت أوستنكا بعد قليل ودعتِ ضيفيها فى جلال ورصانة أن يتفضلا بدخول الكوخ معلنة أن كل شىء قد تم إعداده .

ودخلا الغرفة فرأيا أن كل شىء كان معدًّا حقًّا ، وقد أخذت أوستنكا تعيد ترتيب الوسائد بحذاء الجدار ، وغطيت المائدة بغطاء صغير لا يناسبها ، وكان عليها قنينة من الجكير وبعض السمك المجفف ، وشاعت فى الغرفة رائحة الدقيق والعنب ، واحتشدت ست فتيات أو نحو ذلك فى ركن خلف الموقد . وكن يرتدين صدارتهن الأنيقة ، ولا يغطين رءوسهن بالمناديل ، ورحن يتهامسن ويتهاتفن ويضوضين ضاحكات .

وقالت أوستنكا وهى تدعو ضيفيها إلى المائدة : « أتوسل إليكما أن تكرما شفيعتى القديسة ! » .

ورأى أولينين ماريانكا بين تلك الجماعة من الفتيات يزينهن الحسن بلا استثناء ، وأحس بالضيق والألم للقائها فى هذه الظروف المبتذلة المستهجنة ، وانتابه شعور بالحمق والاستهجان ، فصح عزمه على أن يفعل ما يفعله بيليتسكى . وتقدم بيليتسكى إلى المائدة مصطنعاً شيئاً من الوقار ، ولكن فى ثقة ويسر ، وشرب قدحاً

من الخمر فى صحة أوستنكا ، ودعا الآخرين إلى أن يحذوا حذوه ، وقالت أوستنكا : إن الفتيات لا يشربن .

وانطلق صوت بين الجميع قائلاً : « بل قد نشربها ممزوجة بقليل من الشهد » .

ودعا أولينين المراسلة الذى كان قد وصل لتوه يحمل الشهد والكعك المطيب بالأفاويه إلى الدخول ، ونظر (بدافع الحسد أو الاحتقار) إلى السيدين اللذين كانا ، فى رأيه ، يعربدان ، وسلم لهما فى عناية وأمانة قطعة من قرص الشهد والكعك ملفوفين فى قطعة من الورق الخشن ، وراح يتحدث بالتفصيل عن الثمن وعما تبقى من النقود ، إلا أن بيليتسكى صرفه ، ومزج الشهد بالخمر فى الأقداح ونثر فى كرم الأرطال الثلاثة من الكعك المطيب على المائدة ، ثم جر الفتيات من ركنهن بالقوة ، وحملهن على الجلوس إلى المائدة وأخذ يوزع الكعك بينهن ، ولاحظ أولينين على غير وعى منه ، كيف أن يد ماريانكا الصغيرة التى لوحتها الشمس قد أطبقت على كعكتين مستديرتين ، مطيبتين بالنعناع ، وكعكة سمراء اللون لم تعرف ماذا تفعل بها ؟ وكان الحديث متنافراً لا تجانس فيه يدور حيناً وينقطع حيناً آخر على الرغم مما كان فى مسلك أوستنكا وبيليتسكى من انطلاق ويسر ورغبتهما فى إنعاش الجماعة ، واضطرب أولينين وحاول أن يفكر فى شىء يقوله شاعراً بأنه كان يثير فضول الجماعة ، بل لعله كان يبعث فيهم السخرية ،وينقل عدوى خجله إلى الآخرين ، وصبغت الحمرة وجنتيه ولاح له أن ماريانكا بوجه خاص كانت تشعر بالضيق ، وقال يحدث نفسه : لا شك أنهن ينتظرن منا أن نعطيهن شيئاً من النقود ، فكيف نفعل هذا ؟ وما أسرع وسيلة لفعله والخروج من المأزق ؟ » .

الفصل الخامس والعشرون

وقال بيليتسكى موجهاً الحديث إلى ماريانكا : «كيف لا تعرفين من يسكن عندك ؟ »

وأجابت ماريانكا وهى تلقى نظرة إلى أولينين : « وكيف أعرفه وهو لا يزورنا أبداً ؟ »

ودب الخوف فى قلب أولينين ولم يدر لذلك سبباً ، واحمر وجهه خجلاً ، وقال وهو لا يكاد يعى ما يقول : « إننى أخاف أمك ، فقد نهرتنى بشدة فى المرة الأولى التى دخلت فيها داركم » .

وانفجرت ماريانكا ضاحكة ، ثم قالت وهى ترمقه بنظرة ثم تتحول عنه : « وكان هذا كافياً لإلقاء الرعب فى قلبك ! »

وكانت هذه هى المرة الأولى التى يرى فيها أولينين وجهها المليح كله ، ذلك أنه كان إلى ذلك الحين يرى وجهها وقد غطاه منديلها حتى عينيها ، وما من عجب فى أنها كانت تعد فتنة القرية .

وكانت أوستنكا فتاة مليحة صغيرة ممتلئة الجسم وردية اللون ، لها عينان عسليتان ضاحكتان ، وشفتان تفترّان دائماً عن ابتسامة ، ولا تكف عن الثرثرة لحظة ، أما ماريانكا فكانت على العكس من ذلك : لم تك على التحقيق حلوة لطيفة بل جميلة ، وربما كانت ملامحها تبدو للأنظار شديدة الشبه بملامح الرجال ، تكاد تغلب عليها الخشونة ، لولا قوامها السمهرى وجسمها البديع التكوين وصدرها الممتلئ وكتفاها المكتنزتان ، ناهيك بالنظرات القاسية بل الحنون تشع من عينيها الداكنتين المستطيلتين فى ظل ظليل من حاجبيها الأسودين ! ولولا التعبير الرقيق الذى ينطق به فمها وابتسامتها ، وكان يندر أن تبتسم ، فإذا ابتسمت كانت ابتسامتها فاتنة أخاذة دائماً ، وكانت تبدو للعين وقد شاعت أمارات القوة والصحة الفتية فى أوصالها ، كانت كل الفتيات مليحات ، ولكن الفتيات أنفسهن وبيليتسكى والمراسلة ، إذ أقبل بالكعك المطيب – كانوا جميعا على غير وعى منهم يرمقون ماريانكا بنظراتهم ، وكان كل من يوجه الحديث إلى الفتيات إنما يتوجه إليها وهو مدرك ، فقد كانت تبدو بينهن كالملكة السعيدة المعتزة بنفسها .

وحاول بيليتسكى أن يحفظ للحفلة بهجتها ، فأخذ يثرثر بلا انقطاع ، ويحمل الفتيات على أن يدرن الجكير على الموجودين ، ويعبث معهن ، وظل يلقى الملاحظات المبتذلة باللغة الفرنسية متحدثاً بجمال ماريانكا إلى أولينين ويشير إليها بقوله : « صاحبتك » ، ويهيب به أن يحذو حذوه ، وكان أولينين يزداد ضيقاً على ضيق ، وراح يفكر فى عذر يبيح له الانصراف والإفلات وإذا ببيليتسكى يعلن أنه ينبغى على أوستنكا – فى يومها هذا الموعود – أن تقدم الجكير إليه وإلى صاحبه وأن تشفع ذلك بقبلة ، فوافقت بشرط أن يضعا شيئاً من النقود فى طبقها كما هى العادة فى الأفراح .

وقال أولينين بينه وبين نفسه ، وهو ينهض متهيئاً للانصراف : « أى شيطان دفعنى إلى حضور هذه الحفلة التى تتقزز منها النفس ؟ »

– إلى أين أنت ذاهب ؟

فقال وهو ينوى الهرب : « سألتمس بعض التبغ ، ولكن بيليتسكى أمسك يده وقال بالفرنسية : « معى بعض النقود » وأخذ أولينين يتحدث بينه وبين نفسه فى مرارة وقد ضايقه ما وقع فيه من ارتباك : « وهكذا ينبغى للمرء هنا أن يدفع بعض المال وليس فى وسعه أن ينصرف ، أحقاً أننى لا أستطيع أن أحذو حذو بيليتسكى ؟ لقد كان من الواجب على أن أمتنع عن الحضور ، أما وقد حضرت فإنه يجب على ألا أفسد عليهم مرحهم ، يجب أن أشرب كما يشرب القوزاق » ، ثم تناول الطاس الخشبية (وكانت تسع نحو ثمانية أكواب) وملأها أوكاد بالجكير ثم شربها حتى الثمالة ، ونظرت إليه الفتيات وهو يشرب وقد نالت منهن الدهشة وتملكهن الفزع أوكاد فقد بدا لهن الأمر عجيباً يجاوز الحد ، وجاءت أوستنكا لكل منهما بكأس أخرى وقبلتهما جميعاً .

وقالت وهى تشخشخ بالروبلات الفضية الأربعة التى وضعها الرجلان فى طبقها : « تعالين أيتها الفتيات ، ولننعم الآن بشىء من اللهو والمرح » ، ولم يعد أولينين يشعر بالحرج والارتباك وانطلق لسانه وراح يثرثر .

وقال بيليتسكى لماريانكا وهو يمسك بيدها : « والآن يا ماريانكا لقد حان دورك فاسقينا وامنحينا قبلة » .

فقالت وكأنها تتهيأ لضربه : « أجل ، سأمنحكما قبلة ويا لها من قبلة ! »

وقالت فتاة من الفتيات : « تستطيعين أن تقبلى جدنا من غير عطاء » .

وقال بيليتسكى مقبلاً الفتاة وهى تناضل : « هاكم فتاة عاقلة » ، وألح موجهاً

الخطاب إلى ماريانكا : « كلا يجب أن تقدمى له الخمر ، وقدمى كأسا إلى الساكن عندك » .

وأخذها من يدها وقادها إلى الأريكة وأجلسها بجوار أولينين .

وقال وهو يدير رأسها ليراه من جانب : « ما أجملها ! »

ولم تقاوم ماريانكا ، ولكنها أدارت عينيها المستطيلتين إلى أولينين وهى تبتسم ابتسامة الفخر والزهو .

وردد بيليتسكى قوله : « ما أجملها من فتاة ! » ، وبدا فى نظرة ماريانكا ما يؤيد ذلك وكأنها تقول : « أجل ، انظر مقدار ما أنا فيه من حسن وجمال » .

وأخذ أولينين ماريانكا بين ذراعيه . وهو لا يعى ما يفعل ، وهم بتقبيلها ، فتخلصت من بين ذراعيه وكادت تطرح بيليتسكى أرضاً ، ثم دفعت الغطاء عن المائدة وقفزت إلى الموقد بعيداً عنه ، وكثر الصياح والضحك ، ثم همس بيليتسكى بشىء إلى الفتيات ، فهرعن فجأة إلى الممر وهو فى صحبتهن وأغلق من ورائهن الباب .

وسألها أولينين : « لم قبلت بيليتسكى وأبيت أن تقبلينى ؟ »

فقالت وهى تعض على شفتيها وتقطب حاجبيها : « هكذا ، لا أريد ، وحسب ! » ، ثم أردفت وهى تبتسم : « إنه جدى » واتجهت إلى الباب وبدأت تقرعه : « لم أغلقتم الباب أيها الملاعين ؟ »

فقال أولينين وهو يدنو منها : « حسن ، دعيهم حيث هم ولنبق نحن هنا »

وقطبت الفتاة حاجبيها ودفعته بيده فى صرامة ، وبدا لأولينين مرة أخرى حسنها الذى تحف به المهابة والجلال فثاب إلى رشده ، وشعر بالخجل مما كان يفعل ، ومضى إلى الباب وبدأ يجذبه بنفسه .

– بيليتسكى ! افتح الباب ! وكف عن حمقك !

وأطلقت ماريانكا مرة أخرى ضحكة مشرقة سعيدة ، وقالت : « آه ! إنك خائف منى ؟ »

– خائف حقاً ، وكيف لا أخاف وأنت صارمة شكسة كأمك ؟

– أولى بك أن تنفق المزيد من وقتك مع يروشكا ، فإن ذلك كفيل بأن يجعل الفتيات يقعن فى شرك هواك ! » ، وابتسمت وهى تنظر إليه نظرة مستقيمة نافذة ، فلم يدر بماذا يجيب ؟

وزل لسانه فقال : « وإذا جئت لزيارتك ؟ »

فأجابت وهى تطوح رأسها : « هنا يختلف الأمر ! »

ودفع بيليتسكى الباب فى تلك اللحظة فانفتح ، وقفزت ماريانكا مبتعدة عنه ، واصطك فخذها وهى تبتعد برجل أولينين ، فخطرت له أفكار راح يديرها بينه وبين نفسه : « إنه لمن العبث أن أفكر فى جميع ماكنت أفكر فيه من الحب وإنكار الذات ولوكاشكا ، وإنما السعادة هى كل شىء ، والحق هو أن تدرك السعادة » ، ثم أمسك بماريانكا بقوة لم يعهدها فى نفسه وقبل وجنتها وخدها ، ولم تغضب ماريانكا ، بل انفجرت مقهقهة ، وهرعت إلى الفتيات الأخريات .

وكان فى ذلك ختام الحفلة ، فقد عادت أم أوستنكا من عملها ونهرت الفتيات ثم صرفتهن جميعاً .

الفصل السادس والعشرون

وقال أولينين بينه وبين نفسه وهو يسير فى الطريق إلى منزله : « أجل ، وحسبى أن أرخى العنان قليلاً فأقع صريعاً فى حب هذه الفتاة القوزاقية » ، وأوى إلى فراشه وهذه الأفكار تلازمه ، وكان يظن أنها لا تلبث أن تتبدد جميعاً ، فيعود إلى حياته التى كان يحياها من قبل ، إلا أن هذه الحياة لم تعد ، وتغيرت علاقته بماريانكا وانهار الحاجز الذى كان يفصل بينهما ، وأصبح أولينين يحييها كلما التقيا .

وعاد رب الدار ليحصل الإيجار ، وسمع بثراء أولينين وكرمه ، فدعاه إلى كوخه ، ورحبت الزوجة به ، وأصبح أولينين منذ يوم الحفلة يختلف إلى كوخهم فى معظم الليالى ، ويجلس معهم حتى ساعة متأخرة من الليل ، وكان فى ظاهر الأمر يعيش فى القرية حياته المعهودة ، إلا أن كل شىء فى دخيلة نفسه كان قد تغير ، وراح يقضى أيامه فى الغابة ، فإذا بلغت الساعة الثامنة أو نحوها وبدأ الغسق ينشر ظلاله مضى وحده أو صحبة العم يروشكا لزيارة مضيفيه ، وألفه القوم حتى إن الدهشة كانت تتملكهم إذا هو غاب عنهم ، وكان يدفع ثمن ما يحتسيه من خمر

بسخاء ، وعرف بالهدوء والاتزان ، وكان فانيوشا يأتى له بالشاى ، فيجلس فى ركن من أركان الغرفة قرب الموقد ، ولم تكن الزوجة العجوز تلقى بالاً إليه ، بل كانت تمضى فى عملها ، وكان القوم يتحدثون وهم يحتسون الشاى أو الجكير عن الشئون القوزاقية أو عن الجيران أو عن روسيا ، وكان أولينين هو الذى يتحدث ، والآخرون يسألون ، وكان يأتى أحياناً بكتاب ويقرأ لنفسه . وكانت ماريانكا تجلس القرفصاء كالعنز البرية طاوية قدميها تحتها ، على الرف الذى يعلو الموقد حيناً ، وفى ركن مظلم من أركان الغرفة حيناً آخر ، ولا تشترك فى الحديث إلا أن أولينين كان يرى عينيها ووجهها ويسمعها تتحرك أو تكسر بذور عباد الشمس ، ويحس بأنها تنصت بكيانها كله إذا تحدث ، ويشعر بوجودها وهو يقرأ لنفسه ، وكان يخيل إليه أحياناً أنها تحدق النظر فيه ، فإذا التقت نظراته ونظراتها المشرقة لزم الصمت على غير وعى منه ، وأخذ يرمقها بعينيه ، فلا تلبث أن تخفى وجهها ، فيتظاهر بأنه مستغرق فى الحديث مع الزوجة ، مع أنه كان ينصت طول الوقت إلى أنفاسها المترددة وإلى كل حركة من حركاتها مؤملاً أن تنظر إليه مرة .

وكانت الفتاة بصفة عامة تتألق وتتودد إليه فى حضرة الغير ، فإذا جمعتهما الظروف منفردين غلبها الحياء والخشونة ، وكان يزورهم أحياناً قبل أن تعود ماريانكا إلى المنزل ، فيسمع فجأة وقع أقدامها الثابتة ، ويلمح شعاعاً من قميصها القطنى الأزرق إذ تمر بالباب المفتوح ، وكانت تدلف إلى وسط الكوخ وتبتسم له عيناها ابتسامة رقيقة لا تكاد تلحظها العين ، فيشعر بالسعادة والخوف جميعاً .

ولم يك أولينين يلتمس فيها شيئاً أو يرغب فى شىء ، إلا أنه كان يزداد إحساساً بضرورة وجودها بالنسبة إليه .

وأوغل أولينين فى الحياة القوزاقية إيغالا حتى لكأن ماضيه قد أصبح شيئاً غريباً

عنه كل الغرابة ، أما المستقبل وخاصة ما يخرج منه عن المحيط الذى يعيش فيه فلم يك يثير فيه أى اهتمام ، وكان إذا تلقى خطابات من أقاربه وأصدقائه فى وطنه ساءه منهم ما تجلى من ضيقهم ويأسهم وهم يعدونه رجلاً ضالاً ، فى حين أنه كان فى قريته يرمى بالضلالة من لا يعيش على سنته ، وكان مؤمناً بأنه لن يندم أبداً على الخروج عن بيئته الماضية واستقراره فى هذه القرية مخلداً إلى مثل هذه الحياة التى تتميز بالعزوف والطرافة ، وكان يشعر بالسعادة أيضاً عندما يخرج فى الحملات ، وينزل فى حصن من الحصون ، إلا أنه كان يرى زيف حياته الماضية فى مثل هذا الموضع ، وفى كنف العم يروشكا . وفى الغابة وفى كوخه الذى فى طرف القرية ، وخاصة عندما كان يفكر فى ماريانكا ولوكاشكا .

ولقد أثار هذا الزيف من قبل سخطه وحنقه ، إلا أن هذا الزيف قد بدا له الآن خسيساً تعجز اللغة عن وصف خسته ودناءته وما يثيره فى النفس من سخرية : ذلك أنه أصبح يحسّ بقدر من الحرية والرجولة يزداد يوماً عن يوم ، وبدا القوقاز لعينيه مختلفاً أشد الاختلاف عما رسمه خياله ، ولم يأنس فيه شيئاً قط مما صورته له أحلامه ولا وجد شيئاً من الأوصاف التى سمعها وقرأها ، وقال يحدث نفسه :

« وليست العلة فى ذلك هى العباءات القوقازية أو الوهاد ، أو بكوات أمالات ، أو الأبطال والأوغاد ، وإنما العلة فى الناس يحيون كما تحيا الطبيعة ، فهم يموتون ، ويولدون ، ويتزوجون ، ثم تزداد المواليد بينهم ، وهم يقاتلون ، ويأكلون ويشربون ، ويفرحون ويموتون ، من غير أن يحد من حريتهم قيد اللهم إلا تلك القيود التى تفرضها الطبيعة على الشمس والعشب ، وعلى الحيوان والشجر ، تلك هى شريعتهم ولا شريعة أخرى تتحكم فى أمرهم » .

ومن ثمة فإنه إذا قارن نفسه بهؤلاء القوم تجلى له ما ينعمون به من جمال وقوة

وحرية ، وأثار مرآهم فى نفسه الشعور بالخجل والرثاء لحاله . وكثيراً ما فكر جديًّا فى أن ينبذ كل شىء وينخرط رسميًّا فى زمرة القوزاق ويتزوج امرأة قوزاقية (إلا ماريانكا فقد نزل عنها للوكاشكا) ، ويقيم مع العم يروشكا . يخرج للقنص وصيد السمك معه ، ويذهب مع القوزاق فى حملاتهم ، ثم راح يسأل نفسه وهو يستحثها وينحى باللائمة عليها :

« ترى أى سبب ذلك الذى يحول بينى وبين ما أريد ؟ وفيم الانتظار ؟ أو أخشى الإقدام على عمل هو فى رأيى عين العقل والصواب . أو تكون رغبتى فى أن أغدو قوازقياً بسيطاً ، أعيش قريباً من الطبيعة ، لا أضر أحداً ، بل أفعل الخير للآخرين – أشد حمقاً من أحلامى الماضية تلك الأحلام التى كانت تمدنى بالأمل أن أصبح وزيراً أو أميرالاياً ! » وكأنما أحس فى أعماقه بصوت يهيب به أن انتظر ولا تتخذ قراراً ، وكان الذى يثنيه عن عزمه شعوراً غامضاً بأنه لا يستطيع أن يعيش كما يعيش يروشكا ولوكاشكا ، ذلك أن رأيه فى السعادة كان يخالف رأيهما ، كان يرده عن اتخاذ القرار ما تخيله من أن السعادة فى إنكار الذات ، ثم إن المعروف الذى صنعه مع لوكاشكا ظل يبعث فى نفسه الغبطة والسرور ، وما فتئ يترقب الفرص التى تتيح له أن يبذل نفسه فى سبيل الآخرين ، ولكنها لم تواته ، وكان ينسى أحياناً هذا السبيل الذى اكتشف أنه يوصل إلى السعادة ، ويحس فى نفسه القدرة على أن ينهج نهج يروشكا ، ولكنه كان لا يلبث أن يراجع نفسه ويبادر بالتعلق بفكرة إنكار الذات عن وعى وتدبر ، وعلى هذا الأساس كان ينظر إلى جميع الناس وإلى سعادة الآخرين نظرة هادئة حافلة بالعزة والفخار .

الفصل السابع والعشرون

وأقبل لوكاشكا ممتطياً صهوة جواد للقاء أولينين قبيل موسم جنى العنب تماماً ، وكان الرجل يبدو أكثر اندفاعاً من أى وقت آخر .

وسأله أولينين وهو يجيبه مازحاً : « أو قد عزمت على الزواج ؟ »

ولم يجب لوكاشكا جواباً مباشراً ، وقال : «لقد بادلت بجوادك فى الناحية الأخرى من النهر ، وهذا هو الجواد وأى جواد ! إنه من فصيلة كاباردا من حظيرة لوف[1] وأنا خبير بالجياد» .

واختبر الرجلان الجواد الجديد وسارا به فى نصف دائرة حول الفناء ، وكان الجواد أصيلاً عريقاً فى الأصالة حقاً ، خصيًّا بين الأسود والأحمر ، له جسم عريض طويل ، وفراء ناعم ، وذيل حريرى غليظ ، أما معرفته وجُمته الجميلتان الناعمتان فسمة الجواد الأصيل ، وقد بلغ من حسن تغذيته أن المرء يستطيع « أن ينام فوق ظهره » على حد تعبير لوكاشكا ، وكانت حوافره وعيناه وأسنانه بديعة

(١) كانت حظيرة لوف تزرعة لوف من أحسن حظائر الجياد فى القوقاز .

التكوين بارزة المعالم بروزاً لا تجده إلا فى الجياد العريقة ، ولم يسع أولينين إلا أن يعجب بالجواد ، ذلك أنه لم يكن قد رأى مثل هذا الجمال فى القوقاز .

وقال لوكاشكا وهو يربت على عنقه : « يا لمشيته ويا لخطوته ! لقد بلغ من ذكائه أنه إنما يعدو وراء سيده . »

وسأله أولينين : « أوقد اضطررت إلى دفع مال كثير لإتمام هذه المبادلة ؟ »

وأجاب لوكاشكا مبتسماً : « لم أعد ما دفعته ، فقد أخذت الجواد من صديق عزيز » .

وقال أولينين : « يا له من جواد فائق الحسن ! كم تأخذ ثمناً له ؟ »

وأجاب لوكاشكا مرحاً : « لقد عرضوا على مائة وخمسين روبلاً ثمناً له ، ولكننى سأعطيكه من غير مقابل ، وما عليك ، وحسبى كلمة منك فيكون لك ، سأخلع عنه سرجه ثم هو بعد ذلك لك ، وكل ما أطلبه منك أن تعطينى جواداً من أى نوع أستعين به فى أداء خدمتى » .

– كلا ؛ فإن هذا مستحيل

فقال لوكاشكا وهو يفك حزامه ويخرج منه خنجراً من خنجرين كانا معلقين فيه : « إذن فهاك هدية جئتك بها ، لقد حصلت عليها من الضفة الأخرى للنهر » .

– آه ! شكراً لك .

– وقد وعدت أمى بأن توافيك هى نفسها ببعض العنب .

– لا موجب لهذا قط ، ولسوف نسوى ما بيننا من حساب فى يوم من الأيام ، وأنت ترى أننى لم أعرض عليك نقوداً فى مقابل الخنجر .

– وكيف تعرض على نقوداً ونحن صديقان حميمان ؟ إن صلتى بك كصلتى بكراى خان الذى يقيم فى الناحية الأخرى للنهر سواء بسواء ، لقد أخذنى الرجل إلى

بيته وقال : « اختر ما تشاء ! » ، فأخذت هذا السيف ، وهى عادة ألفناها .

ثم دخلا الكوخ وشربا كأساً .

وسأله أولينين : « أوتقضى فى القرية بعض الوقت ؟ »

– كلا ، وإنما جئت أودعك ، ذلك أنهم قد بعثوا بى من النطاق لألحق بسرية فيما وراء نهر ترك ، وأنا راحل الليلة مع زميلى نازاركا .

– ومتى يكون الزفاف ؟

وأجاب لوكاشكا فى تردد : « سأعود لعقد الخطبة ، ثم أرجع إلى السرية مرة أخرى » .

– وى ! ولا ترى خطيبتك ؟

– إن القول ما قلت ، وما جدوى النظر إليها ؟ وإذا اتفق أن خرجت فى حملة فاسأل فى سريتنا عن لوكاشكا الفحل ، فما أكثر الخنازير البرية هناك ! لقد قتلت منها اثنين ، وسآخذك معى .

– وداعا ، وكان الله معك !

وامتطى لوكاشكا جواده ، ولم يزر ماريانكا بل أخذ يضرب فى الطريق حيث كان نازاركا فى انتظاره ، وسأله نازاركا وهو يغمز بعينه فى اتجاه منزل يامكا « هلا زرناها ! »

فقال لوكاشكا : « لا بأس ، وهاك جوادى فخذه إليها ، وأعطه شيئا من الدريس ، إن لم أوافك بعد قليل ، ومهما يكن من شىء فإنى سأبلغ السرية قبل أن ينبلج الصبح » .

– ألم يعطك طالب الحربية شيئاً آخر ؟

فقال لوكاشكا وهو يترجل عن الجواد ويسلم زمامه إلى نازاركا :

– أحمد الله على أنى أوفيت له الدين بخنجر ؛ فقد كان على وشك أن يطلب منى الجواد .

ومرق فى الفناء كالسهم ماراً بنافذة أولينين نفسها ثم بلغ النافذة من كوخ « الصول » ، وكان الظلام حالكاً ، وقد راحت ماريانكا التى كانت لا ترتدى إلا قميصها – تمشط شعرها استعداداً للنوم .

وهمس القوازقى : « هذا أنا »

وكانت ماريانكا تنظر نظرات من لا يبالى بشىء أبداً ، على أنه ما إن سمعت اسمها حتى أشرق وجهها فجأة وفتحت النافذة وأطلت منها يتنازعها الخوف والفرح جميعاً .

ثم قالت : « ماذا ؟ ماذا تريد ؟ »

وهمس لوكاشكا : « افتحى ! دعينى أدخل لحظة ؛ فقد برح بى الانتظار » .

وأخذ رأسها بين يديه من خلال النافذة وقبلها ، ثم قال : « افتحى بالله عليك »

– ما هذا الهراء ؟ لقد قلت لك : إننى لن أفتح ، هل أتيت لتقضى بيننا وقتاً طويلاً ؟

ولم يجب بل مضى يقبلها ولم تعاود هى سؤاله .

وقال لوكاشكا : « إنى لأستطيع أن أطوقك بذراعى على خير وجه من خلال النافذة » .

وطرق سمعها صوت أمها وهى تنادى قائلة : «عزيزتى ماريانكا ، من هذا الذى معك ؟ » .

وخلع لوكاشكا قبعته حتى لا ينكشف أمره وربض بجوار النافذة .

وهمست ماريانكا : « اذهب وأسرع ! » ، ثم أجابت أمها : « لقد حضر لوكاشكا وهو يسأل عن أبي » .

– ابعثي به إلينا .

– لقد مضى وهو يقول : إنه فى عجلة من أمره .

والحق أن لوكاشكا مال بقامته ومر بالنافذة فى خطاً واسعة ، ثم اجتاز الفناء عدواً ، ويمم شطر منزل يامكا دون أن يراه أحد إلا أولينين ، وشرب الفتى هو ونازاركا طاسين من الجكير ثم ركبا جواديهما إلى نقطة الحراسة ، وكانت الليلة دفيئة ظلماء هادئة ، ولزم الرفيقان الصمت فلم تك تسمع إلا وقع حوافر جواديهما ، ثم راح لوكاشكا يغنى أنشودة عن « المنجال القوزاقى » ، ولكنه كف عن الغناء قبل أن يتم البيت الأول منها ، ثم سكت لحظة والتفت إلى نازاركا قائلاً :

– إنها رفضت السماح لى بالدخول !

وأجاب نازاركا : « حقاً ؟ لقد كنت أعلم أنها لن تسمح لك بذلك . أو علمت ما قالت لى يامكا ؟ لقد بدأ طالب الحربية يختلف إلى دارهم . ويتمشدق العم يروشكا بأنه حصل على بندقية من طالب الحربية ، ليصل بينه وبين ماريانكا » .

وقال لوكاشكا غاضباً : « إن الشيطان العجوز يكذب ! فليست الفتاة من هذا الطراز ، وإذا لم يعقل هذا الشيطان العجوز لسانه ألهبت جنبيه » ، ثم راح ينشد أغنيته الأثيرة عنده :

من حديقة سيده المحبوبة

فى قرية إسماعيلوفو

طار صقر ذكى الفؤاد من قفصه مرة

وانطلق فى إثره صياد شاب يمتطى جواداً

وأومأ بيده إلى الصقر الذكى الفؤاد

« تعال أيها الصقر ، تعال إلى يدى اليمنى

وإلا شنقنى القيصر المسيحى

شنقنى على نصب عال

فأجاب الصقر الذكى الفؤاد :

« لم تعرف كيف تحتفظ بى فى قفصك الذهبى

ولم تعرف كيف تبقينى على يدك اليمنى ؟

وسأطير الآن إلى البحر الأزرق ، بعيداً ، بعيداً جداً

وأصيب هنالك إوزة بيضاء تنعم بها نفسى

وآكل من لحم الإوزة اللذيذ ملء بطنى » !

الفصل الثامن والعشرون

كانت حفلة الخطبة تجرى فى منزل « الصول » ، وقد عاد لوكاشكا إلى القرية ولكنه لم يأت لزيارة أولينين ، ولم يذهب أولينين لحضور حفلة الخطبة مع أنه دعى لها ، كان حزيناً حزناً لم يعرف له مثيلاً قط مذ حل بهذه القرية القوزاقية ، فقد رأى لوكاشكا فى أحسن ملابسه يمر فى وقت مبكر من المساء صحبة أمه ، وشغل باله لما أظهره لوكاشكا حياله من برود ، ولزم أولينين كوخه وبدأ يسجل فى يومياته .

وكتب يقول : « لقد أعملت الفكر أخيراً فى أمور كثيرة ، وحل بى من التغير شىء كثير ، وعدت إلى المثل المأثور الذى يقول : إن السبيل الوحيد إلى السعادة هو أن تحب ، تحب حبًّا خالصاً يقوم على إنكار الذات ، تحب كل إنسان وكل شىء ، فتبسط جناح الحب لله فى كل اتجاه ، فمن استظل به رعيته ، وقد رعيت بهذه الطريقة فانيوشا والعم يروشكا وماريانكا »

ودخل العم يروشكا الغرفة وأولينين يتم هذه العبارة

لقد كان يروشكا فى أسعد حالاته ، وكان أولينين قد ذهب لزيارته قبل ذلك

ببضع ليال ، فوجده يسلخ فى مهارة جثة خنزير برى بسكين صغير فى فناء كوخه ، وقد أشرق محياه بالسعادة والعزة ، وكانت الكلاب (ومنها ليام كلبه المدلل) قابعة بجواره ترقب مايفعل وتهز ذيولها هزًّا رفيقاً ، وصغار الصبية يرمقونه فى احترام من خلال السياج ، حتى لقد كفوا عن معاكسته كما هو شأنهم ، أما جاراته اللائى لم يعاملنه بوجه عام فى سخاء مذكور — فقد أخذن يحيينه ، ووافته إحداهن بإبريق من الجكير وثانية بشىء من القشدة المتخثرة ، وثالثة ببعض الدقيق ، وجلس يروشكا فى اليوم التالى فى مخزنه مسربلا بالدم ، يوزع أرطالا من لحم الخنزير ؛ ليقبض الثمن نقداً تارة وخمراً تارة أخرى ، وقد أشرق وجهه وكأنه يقول : « لقد وهب الله لى حظًّا فأصبت خنزيراً بريًّا ، وهأنذا يسعى الناس إلى ! » وكانت النتيجة الطيبة لذلك أنه راح يشرب ويشرب أربعة أيام سويا لم يغادر القرية فيها قط ، ثم إنه وجد ما يشربه فى حفلة الخطبة أيضاً »

وأقبل على أولينين مفرطاً فى الشراب متورد الوجه مهوش اللحية غير أنه كان يرتدى صدرة حمراء جديدة موشاة بشريط ذهبى ، وحمل معه قيثارة روسية[1] حصل عليها من الضفة الأخرى للنهر ، وكان قد وعد أولينين بهذه الجلسة منذ زمن بعيد ، وشعر بأن نفسه قد تهيأت لها ، وقد ساءه أن يجد أولينين مقبلاً على الكتابة .

وهمس : « اكتب ، اكتب يا صديقى » كأنما خيل إليه أن روحاً قد حلت بينه وبين الورق فلا ينبغى أن يفزعها فتهرب ، وجلس الرجل فى رفق وسكون على الأرض ، وكانت مكانه المفضل إذا سكر ، والتفت أولينين خلفه وأمر بإحضار شىء من الخمر واستمر فى الكتابة ، ووجد يروشكا أن إقباله على الشراب وحيداً أمر ثقيل على النفس ، وكانت به رغبة فى الحديث .

---

(١) البلالايكا

– لقد حضرت حفلة الخطبة فى بيت الصول ، ويالهم من قوم خنازير عافتهم نفسي ولذلك جئت إليك !

وسأله أولينين وهو يواصل الكتابة : « ومن أين لك بهذه البلاليكا ؟ »

فأجابه وهو لا يزال ملتزماً غاية الهدوء : « لقد اجترت النهر يا صديق ، ومن هناك حصلت عليها ، وإنى لمن أرباب هذه الآلة الموسيقية ، أعزف عليها الأغانى من كل نوع ، ويستوى عندى أن تكون من أغانى التتر أو القوزاق أو السادة أو الفلاحين » ، ونظر إليه أولينين مرة ، وابتسم له ، ثم واصل الكتابة .

وشجعت ابتسامته الشيخ

فقال فى حزم مفاجئ : « هيا ، وكف عن الكتابة يا بنى ، كف عنها ، واكشف لى عن خبيئة نفسك ، إن بعض الناس أساء إليك ، ولكن دعهم وشأنهم ، ابصق عليهم ؛ فما جدوى الكتابة والاستمرار فيها ؟ وما الخير الذى يرجى منها ؟ »

وحاول الرجل أن يقلد أولينين ، فأخذ ينقر على الأرض بأصابعه الغليظة ، ويقلب سحنة وجهه الكبير سخرية وازدراء « وما الخير الذى يرجى من كتابة المغالطات ؟ أولى بك أن تمرح وتلهو لتظهر أنك رجل »

ولم يكن للكتابة فى رأسه إلا تعليل واحد هو التحايل القانونى وانفجر أولينين ضاحكاً وحذا يروشكا حذوه ، ثم انتصب واقفاً وراح يظهر براعته فى العزف على البلاليكا ، وينشد أناشيد تترية .

– لِمَ تكتب أيها الصديق الكريم ؟ أولى بك أن تنصت إلى ما أغنيه لك ؛ فإنك لن تسمع إذا ثويت فى القبر أغنية واحدة أخرى ، فدع الهم وامرح !

وأنشد أول ما أنشد أغنية من تأليفه تصحبها رقصة :

آه ! دى دى دى ، دى دى دى
أين كان عندما رأوه
رأوه فى خباء بالسوق
يبيع الدبابيس ؟

ثم أنشد أنشودة تعلمها من صديقه الباشجاويش السابق :

ولم أجد يوم الثلاثاء إلا التنهد والأنين
وبحت لها بحبى كله يوم الأربعاء
وانتظرت ردها يوم الخميس
ثم جاء الرد متأخراً فى يوم الجمعة
فتبددت آمالى جميعاً
واعتزمت عزم الرجال
أن أنتحر يوم السبت
إلا أننى فى سبيل خلاص نفسى
عدلت عن رأيى فى صباح الأحد

ثم أنشد مرة أخرى :

آه ! دى دى دى ، دى دى دى
أين كان عندما رأوه ؟

وأنشد بعد ذلك وهو يغمز بعينه وراح يهز كتفيه على وقع النغم :

لأقبلنك وأضمك إلى صدرى
وأحيطك بالشرائط الحمر ،
وأناديك بالرشيقة الصغيرة ،

بالله عليك أيتها الرشيقة الصغيرة ،

هلا أصدقتنى القول ! أو تحبيننى جدًّا ؟

وهزته النشوة هزاً جعله يقفز على حين غرة ، وراح يرقص وحده فى أرجاء الغرفة .

وأنشد الرجل الأغانى من قبيل : « دى ، دى ، دى » وهى « أغانى السادة » — ليطرب بها أولينين ، ولكنه ما إن شرب ثلاثة أقداح أخرى من الجكير حتى تذكر أيامه الماضية ، وبدأ ينشد أغانى قوزاقية وتترية خالصة ، وارتجف صوته فجأة فى غمرة أغنية من أغنياته المحببة إلى قلبه ، وكف عن الغناء ، إلا أنه واصل النقر على أوتار البلاليكا .

ثم قال : « أواه يا صديق العزيز ! »

وقد بلغ من غرابة صوته أن أولينين التفت إلى الخلف ، فرأى الشيخ يبكى ، وكانت الدموع تترقرق فى عينيه وقد جرت دمعة على خده ، وقال وقد فاضت شجونه وكف عن العزف : « إيه يا أيام شبابى ، لقد وليت ولن تعودى ! » وصرخ بغتة فى صوت مدو دون أن يكفكف دموعه : « اشرب ، ما بالك لا تشرب ؟ »

وكانت ثمة أغنية تترية واحدة تثير أشجانه بوجه خاص ، كانت كلماتها قليلة ، ولكن موضع الفتنة فيها يكمن فى مرجعها الحزين : « أى داى ، دالالاى ! » وقد ترجم يروشكا كلمات الأغنية فقال : « ساق شاب أغنامه من القرية إلى الجبال ، وجاء الروس فأحرقوا القرية وقتلوا رجالها عن بكرة أبيهم ، وسبوا النساء جميعاً وعاد الشاب من الجبال ، فوجد مكان القرية خراباً يباباً وقد خلا من أمه وإخوته وبيته ولم تبق إلا شجرة واحدة ، وجلس الشاب تحت الشجرة يبكى « أنت هنا (وحيدة) وأنا وحيد مثلك ! » ، وبدأ ينشد : « أى داى ، دالالاى ! » وراح

الشيخ يردد هذا المرجع الحزين الذى تتفطر له القلوب .

وما إن انتهى يـروشكا من ترديد هذا المرجع حتى تناول بغتة بندقيته التى كانت معلقة على الجدار ، وهرع إلى الفناء وأطلق ماسورتى البندقية جميعاً فى الهواء ، ثم راح ينشد مرة أخرى فى صوت زاد حزناً على حزن ، أنشودته : «أى داى ، دالالاى ، آه ! آه » ! ثم كف عن الغناء .

وتبعه أولينين إلى المدخل ، وتطلع إلى السماء المرصعة بالنجوم فى الاتجاه الذى ومضت فيه الطلقات ، وكانت تنبعث من دار الصول أضواء وأصوات ، وأخذت الفتيات يتزاحمن حول المدخل والنوافذ ويهرعن رائحات غاديات بين الدار والكوخ الصغير ، واندفع بعض القوزاق من المنزل وانطلقوا يسعلون بشدة مرددين صدى المرجع من أغنية العم يـروشكا وطلقاته .

وسأله أولينين : « لم لم تبق فى حفلة الخطبة ؟ »

فغمغم الشيخ ، وكان من الواضح أن أمراً ما قد ساءه هناك : « دعك منهم دعك منهم ! ، فإنى لا أحبهم ، لا أحبهم ! تباً لهؤلاء القوم ! عد .. إلى الكوخ ! دعهم يمرحون وحدهم ، ولنخرج نحن وحدنا » .

ودخل أولينين الكوخ

ثم سأل الصياد : « وكيف حال لوكاشكا أهو سعيد ؟ ألا يأتى لزيارتى ؟ »

وهمس الشيخ : « من ؟ لوكاشكا ؟ لقد كذبوا عليه وقالوا : إننى أصل بين حبيبته وبينك ، ولكن ما قيمة الفتاة ؟ ستكون لنا إذا رغبنا فيها ! ولنغدق عليها المال فتكون لنا ، وسأدبر لك الأمر ، وإنى لفاعل » .

– كلا أيها العم ، إن المال لا يفعل شيئاً إذا كانت لا تحبنى ، ويجمل بك ألا تتكلم هكذا

وقال العم يروشكا فجأة – وقد أخلد للبكاء مرة أخرى : « إنهم لا يحبوننا أنا وأنت ، فنحن يتيمان » .

وشرب أولينين أكثر مما ألف وهو ينصت إلى كلام الشيخ ، ثم حدث نفسه قائلاً : « إذن فصديقى لوكاشكا سعيد الآن » ، ولكنه كان بالرغم من ذلك يشعر بالحزن ، وأفرط الشيخ فى الشراب فى تلك الليلة حتى وقع على الأرض ، واضطر فانيوشا إلى استدعاء الجنود لمساعدته ، ثم بصق وهم يجرون الشيخ إلى الخارج ، وقد استبد به الغضب من الصياد لسوء مسلكه حتى نسى أن يقول شيئاً بالفرنسية .

الفصل التاسع والعشرون

كان ذلك فى شهر أغسطس ، وقد ظلت السماء أياماً خالية من الغيوم ، والشمس ترسل أشعتها المحرقة فترهق الأنفاس ، والرياح الحارة تثير منذ الصباح البــاكر عاصفة من الرمال الساخنة تنبعث من الكثبان ومن الطريق ، وتحملها فى الهواء فوق الحلفاء والأشجار والقرى .

وكان العشب وأوراق الشجر قد غطاها الغبار ، وتعرت الطرق والسبخات الجافة ، وأخذت ترن تحت وقع الأقدام ، وكان الماء قد انحسر عن نهر ترك منذ وقت بعيد ، وسرعان ما أخذ يفيض من البرك ، وتعرت ضفاف البركة القريبة من القرية مما كان يعلوها من غرين بفعل أقدام الماشية فى رواحها وغدوها ، وكنت تسمع على مدار اليوم رشاش الماء وصراخ البنين والبنات وهم يستحمون ، وكانت الكثبان الرملية والحلفاء قد أخذت تجف فى السهوب ، وكانت الماشية تهرب إلى الحقول فى النهار وهى تخور ، وفرت الوحوش إلى مهاد القصب البعيدة وإلى التلال القائمة فيما وراء نهر ترك ، وقد احتشدت الهوام وبعوض الجرجس فى سحب كثيفة

فوق الأرض المنخفضة والقرى ، والتفت قنن الجبال المكللة بالجليد بغلالة من الضباب الرمادى اللون ، وكان الهواء قد تخلخل وغدا خانقاً ، وسرت إشاعة بأن الأبركة عبروا النهر الذى كان قد اضمحل ماؤه فى ذلك الوقت ، وأخذوا يعيشون فى هذا الجانب منه ، وكانت الشمس تغرب فى كل ليلة شعلة حمراء متوهجة ، كما كان هذا الوقت هو أكثر أوقات السنة ازدحاماً بالعمل ، فقد كان القرويون جميعاً يحتشدون فى حقول البطيخ وفى الكروم ، وكانت الكروم قد غطاها عشب كثيف أخضر ملتف فباتت منه فى ظل رطيب ظليل ، وكنت ترى فى كل مكان عناقيد العنب الناضجة المثقلة بحملها تطل عليك من بين الأوراق العريضة الشفافة ، وسارت العربات تقعقع فى بطء وتمهل على طول الطريق المغبر من أثر الكروم وقد علتها أكداس من العنب الأسود ، وكنت ترى فى التراب عناقيد العنب التى هصرتها العجلات ، وكان الأولاد والبنات فى قمصانهم التى لطخها عصير العنب يركضون وراء أمهاتهم وقد حملوا العنب فى أيديهم وحشوا به أفواههم ، وكنت تلقى فى الطريق باستمرار عمالاً فى ثياب مهلهلة وقد لفعوا سلال العنب على أكتافهم القوية . وكانت الفتيات القوزاقيات وقد عصبن رءوسهن بمناديلهن حتى العيون — يسقن الثيران الخصية المشدودة إلى العربات المملوءة بالثمار ، وكان الجنود الذين يمرون بهن مصادفة يسألونهن شيئاً من العنب فيتسلقن العربات دون أن يوقفنها ويأخذن ملء أذرعتهن من العنب ، ويلقين به فى أهداب سترات الجنود .

وكان بعض الأسر قد بدأت فعلاً فى عصر الثمار ، وملأت الهواء رائحة قشور حبات العنب الفارغ ، وكنت ترى الأحواض الحمراء القانية فى ملاحق المبانى القائمة فى الأفنية ، وقد شمر العمال من النوغاى سراويلهم ولطخ العصير أرجلهم ، وحشرت الخنازير القابعة نفسها بين القشور الفارغة وأخذت تتمرغ فيها .

وكانت السقوف المسطحة للأكواخ الصغيرة مغطاة بعناقيد العنب السوداء التى كانت تجف فى الشمس ، وازدحمت الغربان والعقاعق حول الأسطح تلتقط الحب وتحوم من مكان إلى مكان .

وكان القوم يجمعون ثمار جهادهم طول السنة وقد بدا عليهم المرح ، وكان المحصول هذا العام جيداً وافراً فوق المعتاد ، وكان ينبعث من الكروم الخضر الظليلة ، ومن ذلك البحر الطامى من العنب ، بل من كل مكان – ضحكات وغناء ومرح وأصوات نساء ، وتلوح للعين بوارق من ثيابهن الزاهية اللون .

وكانت ماريانكا جالسة فى عز الظهيرة بكرمة الأسرة متظللة بشجرة خوخ . تخرج غداء الأسرة من تحت عربة حل جوادها وقد جلس الصول (وكان قد عاد من المدرسة) أمامها مفترشاً غطاء جواد . وراح يغسل يديه صابًّا الماء عليهما من إبريق صغير ، وكان أخوها الصغير قد خرج لتوه من البركة مباشرة ووقف يلهث ويمسح وجهه بكميه العريضين ، وينظر قلقاً إلى أخته وأمه منتظراً غداءه

وكانت الأم العجوز – وقد شمرت كميها عن ساعديها القويين اللذين لوحتهما الشمس – تعد العنب والسمك الجاف والقشدة المخثرة والخبز على منضدة ترية مستديرة صغيرة منخفضة ، ومسح يديه وخلع قبعته ورسم علامة الصليب واقترب من المنضدة وتربعت الأم وابنتها وجلستا بقرب المنضدة ، وكان الجو حتى فى الظل حارًّا شديد القيظ وغشيت الكرمة رائحة كريهة ، وانطلقت الريح الدفيئة القوية التى تهز رءوس أشجار الكمثرى والخوخ والتوت المتناثرة فى أنحاء الكرمة هزات مطردة رتيبة ، إلا أنها عجزت عن أن تلطف من حرارة الجو

ورسم الصول إشارة الصليب مرة أخرى ثم تناول من خلفه إبريقاً صغيراً من الجكير كان قد غطى بورقة من أوراق العنب وشرب من مبسمه وناوله المرأة

العجوز ، ولم يك يرتدى من الملابس إلا قميصاً حله عند عنقه فكشف عن صدره الأشعث القوى العضلات ، وكان البشر يعلو وجهه النحيل الماكر ، ولم يبد فى حركة من حركاته أو كلمة من كلماته أى أثر لما ألفناه من لؤمه وخسته ؛ فقد كان ظاهر البشاشة يجرى على طبعه وسجيته . وقال وهو يمسح لحيته المبللة : «ترى . أأنتهى من القطفة التى وراء الحظيرة الليلة ؟» فأجابت زوجته : «سندبر الأمر إن لم يعقنا الجو» ، ثم أردفت : «إن آل دمكين لم ينتهوا بعد من جنى نصف محصولهم ، أما أوستنكا فتعمل بمفردها هناك وتنهك قواها» .

وقال الشيخ مزهوًّا : وماذا تنتظرين منهم ؟

وقالت العجوز وهى تناول الفتاة الإبريق : «هاك ، وخذى جرعة يا عزيزتى ماريانكا» ثم أردفت : «سيتوفر لنا بإذن الله ما نسد به نفقات حفلة الزفاف» .

وقال الصول وهو يقطب ما بين حاجبيه تقطيباً رفيقاً : «لن يكون الزفاف إلا بعد فترة من الوقت» .

ونكست الفتاة رأسها

وقالت الزوجة : «ولم لا نتحدث بالزفاف ؟ لقد تم الاتفاق ثم إن الوقت قد أزف»

فقال الصول : «لا تسبقى الحوادث وترسمى الخطط قبل الأوان ، فإن الذى أمامنا الآن هو جنى المحصول»

وسألته العجوز : «هل رأيت جواد لوكاشكا الجديد ؟ لقد بادل بالجواد الذى أعطاه إياه ديمترى أندريفتش» .

فقال الصول : «كلا ، لم أره ، ولكنى تحدثت مع الخادم اليوم فقال إن سيده قد تلقى ألف روبل أخرى»

وقالت العجوز : « إنه ليرفل فى النعيم ، وما من وصف آخر أستطيع أن أصفه به » .

وكانت الأسرة كلها تشعر بالغبطة والرضا ، فقد كان العمل يسير سيراً حسناً والعنب أوفر وأجود مما توقعوا ، وألقت ماريانكا ببعض العشب إلى الثيران ، وطوت صدارتها واتخذت منها وسادة ، واستلقت تحت العربة على العشب الرطيب الذى وطئته الأقدام ، ولم تك ترتدى إلا منديلا عصبت به رأسها وقميصاً أزرق من النسيج المطبوع باهت اللون ، إلا أنها كانت تشعر بحرارة لا تحتمل ، فقد كان وجهها متقداً ولا تدرى أين تضع قدميها ؟ وقد غامت عيناها من النوم والتعب ، وانفرجت شفتاها على غير إرادة منها وأخذ صدرها يعلو ويهبط وهى تتنفس تنفساً عميقاً .

وكان الموسم الذى يزدحم فيه العمل كل سنة – قد حل منذ أسبوعين ، وامتلأت حياة الفتاة الآن بالكد الثقيل المتواصل ، وكانت تنهض فى الفجر وتغسل وجهها بالماء البارد وتلف نفسها بشال وتهرع عارية القدمين لتعنى بالماشية ، ثم تبادر فتنتعل خفها وترتدى صدارها وتحمل حزمة من الخبز ، وتسرج الثيران الخصية وتسوقها إلى الكروم حيث تقضى فيها اليوم بطوله تقطف العنب من الكروم وتضعه فى السلال ثم تحمله ، ولا يتخلل هذا إلا ساعة واحدة تستريح فيها ، وكانت تعود إلى القرية فى المساء مشرقة لا تحس تعباً وهى تجر الثيران الخصية وراءها من رسنها أو تسوقها أمامها بعصاً طويلة ، وكانت إذا ما فرغت من العناية بأمر الماشية أخذت بعض بذور عباد الشمس فى كم قميصها الواسع وذهبت إلى ناصية الطريق ؛ لتكسرها وتلهو بعض اللهو مع غيرها من الفتيات ، فما إن يحل الغسق حتى تعود إلى الدار وتتناول العشاء مع والديها ومع أخيها فى ملحق الكوخ الصغير المظلم ، ثم

تذهب إلى الكوخ مكتملة الصحة خالية من الهم ، وتتسلق فتجلس على رف الموقد حيث تأخذ فى الإنصات إلى حديث الساكن عندهم والنوم يثقل عينيها ، فإذا أوى استلقت على سريرها ونامت نوماً عميقاً هادئاً حتى صباح اليوم التالى ، وهكذا كانت تمر بها الأيام يوماً فى إثر يوم ، ولم تكن الفتاة قد رأت لوكاشكا منذ اليوم الذى عقدت فيه خطبتها ، ولكنها كانت تنتظر يوم الزفاف فى هدوء وسكون . وألفت ماريانكا ساكن دارهم ، وكانت تشعر بنظراته المتطلعة فتفيض نفسها بالبشر .

الفصل الثلاثون

غطت ماريانكا رأسها بمنديلها ، وهمت بأن تخلد للنوم ، بالرغم من إلحاح الحر إلحاحاً لا مهرب منه واحتشاد الهوام فى ظل العربة الرطيب وتقلب أخيها الصغير بجوارها ودفعه إياها دفعاً لا ينقطع ، إلا أن جارتهم أوستنكا أقبلت فجأة تعدو نحوهم واندست بسرعة تحت العربة ، ثم استلقت بجوار ماريانكا .

وقالت أوستنكا وهى تتخذ مكاناً مريحاً تحت العربة : « أخلدن إلى النوم أيتها الفتيات . أخلدن إلى النوم » ، ثم هتفت : « انتظرن لحظة ، فإن ما تعلمتن لا يكفى » ، وانتصبت واقفة وقطعت بعض الأغصان الخضراء ورشقتها فى العجلات على جانبى العربة ، وعلقت صدارها عليها ، وصاحت بالغلام الصغير وهى تزحف تحت العربة مرة أخرى « دعنى أدخل ، أهذا مكان يليق بقوزاق أن يكون فيه مع الفتيات ؟ اغرب عنا ! » وما إن انفردت أوستنكا بصديقتها تحت العربة حتى طوقتها بذراعيها فجأة ، ثم راحت تقبل خديها وعنقها .

وظلت تردد بين الصرخات العالية والضحكات الصافية « حبيبتى حبيبتى »

وقالت ماريانكا وهي محاولة تخليص نفسها منها : « وى ! لقد تعلمت هذا من جدى ، حسن » .

وانفجرتا ضاحكتين ضحكاً مجلجلاً حتى صاحت بهما أم ماريانكا أن اسكتا وسألتها أوستنكا هامسة : « أتراك غيوراً ؟ »

– هراء دعينا نتام ، ما الذى حملك على المجىء ؟

ولكن أوستنكا استرسلت فى حديثها قائلة : « سأنبئك بالسبب فتذرعى بالصبر »

ورفعت ماريانكا نفسها على مرفقها ، وأصلحت من شأن منديلها

– حسن ، ما الخبر ؟

– إنى لأعلم شيئاً من أمر الساكن عندكم .

فقالت ماريانكا : « ليس ثمة ما يستحق المعرفة ! »

وأجابت أوستنكا وهى تلكزها بمرفقها وتضحك : « آه ! يا لك من فتاة ماكرة تأبى أن تقول شيئا ! أو يأتى لزيارتكم ؟ »

فقالت ماريانكا وقد احمر وجهها فجأة : « أجل ، إنه يزورنا ، وماذا فى ذلك ؟ »

وقالت أوستنكا : « يا لى من فتاة ساذجة ، لا أخفى عن أحد شيئاً ! وما الذى يحملنى على التصنع ؟ » ، وعلا التفكير والاهتمام وجهها المورد المشرق فجأة ثم أردفت : « إننى لا ألحق الأذى بأحد ، أليس كذلك ؟ فأنا أحبه وهذا كل ما فى الأمر » .

– أتعنين جدى ؟

– أجل .

– ولكن هذا إثم .

– آه يامار يانكا ، متى تنعم الفتاة بشيء من المتعة إذن ؟ إذا هي لم تنتهز الفرصة وهي بعد خالية ؟ ألا ترين أنني سوف أنجب الأطفال حين أتزوج رجلاً قوزاقيًّا ، وتستغرق همومي كل وقتي ، وي ! إن وقتك أيضاً حين يتم زواجك من لوكاشكا – لن يتسع حتى للتفكير في متعة من المتع ، ولن تفرغي إلا للأطفال والعمل .

وأجابت ماريانكا في هدوء : « حسن ! إن بعض من يتزوجن ترفرف عليهن السعادة . والأمر يستوي » .

–صارحيني هذه المرة فحسب بما وقع بينك وبين لوكاشكا .

– ما وقع بيننا ؟ تقدم لوكاشكا لطلب يدي فأرجأ أبي ذلك سنة إلا أن الأمر قد سوي الآن وسيزوجوننا في الخريف .

– ولكن ما الذي قاله لك ؟

وابتسمت ماريانكا

– وما عسى أن يقوله لي ؟ قال : إنه يحبني ، وظل يلح علي في الذهاب إلى الكروم معه .

– يا له من صفيق ملحاح ! لم تطاوعيه بطبيعة الحال ، أليس كذلك ؟ لقد أصبح الفتى جريئاً لا يهاب شيئاً . وإنه لفخر القرية وهو ينشر المرح حوله هناك أيضاً بين صفوف الجيش ، وقد عاد عزيزنا كبركا أول أمس ، وهو معجب أشد الإعجاب بالجواد الذي حصل عليه لوكاشكا ، وإني لأحسب أن عقله مشتغل بك لا يهدأ أو يقر له قرار ، وماذا قال أيضاً ؟

وقالت ماريانكا وهي تضحك : « أمن الضروري أن تعرفي كل شيء ؟ لقد جاء إلى نافذتي ذات ليلة ثملاً يمتطي صهوة جواده وسألني السماح له بالدخول » .

– ولم تسمحين له بالدخول ؟

فأجابت ماريانكا فى جد : « أسمح له بالدخول حقًّا ، إننى لا أقول قولا مرة إلا بدا عليه ثبات الصخرة » .

– ولكنه شاب ظريف ، وما من فتاة تتأبى عليه إذا رغب فيها .

فأجابت ماريانكا فى فخر : « حسن ، فليذهب إلى الفتيات الأخريات »

– ألا ترأفين لحاله ؟

– أجل ، ولكننى لا أسمح بالعبث ، فإنه إثم

ومالت أوستنكا برأسها فجأة على صدر صديقتها وأمسكت بها ، وانطلقت من فمها ضحكة مكبوتة هزت جسمها هزًّا ، ثم هتفت لاهثة : « أيتها الحمقاء الغبية ، ألا تحبين أن تكونى سعيدة » ، وراحت تدغدغ ماريانكا

وقالت ماريانكا ، وهى تصرخ وتضحك « ويحك ! دعينى »

وانطلق صوت المرأة العجوز من العربة يغالب النوم قائلاً : انظروا إلى هاتين الملعونتين الصغيرتين ، ما أشد مرحهما ! أو لم يحل بهما التعب بعد ؟ »

وكررت أوستنكا قولها هامسة وهى تهمهم قليلاً : « إنك لا تريدين السعادة ، ولكنك موفقة ولا شك ، فما أكثر حبهم لك ! وإنك لمنيعة كثيرة الأشواك ، ومع ذلك فهم يحبونك ، آه لو أننى كنت فى مكانك لأدرت رأس نزيلكم سريعاً ! فقد لاحظت عندما كنتم فى دارنا أنه يكاد يلتهمك بعينيه التهاماً ، يا للهدايا التى أغدقها على جدى ، أما نزيلكم فهـــو على ما يقولون أغنى الروس طرًّا ، ويقول مراسلته : إن لديهم عبيداً ملك أيديهم »

ورفعت ماريانكا نفسها وفكرت لحظة ثم ابتسمت

وقالت وهى تجز بأسنانها على نصل من العشب : « أتدرين ما قاله لى مرة ، أقصد ذلك الذى يسكن عندنا ، قال : « تمنيت أن أكون قوزاقيًّا مثل لوكاشكا

أو مثل أخيك لازوتكا ، فما الذى عناه بذلك فى رأيك ؟ »

فأجابت أوستنكا : « أوه ! أنبأك بأول خاطر طرأ على ذهنه ، وأى شيء لا يتحدث به نزيلنا ! لكأنما أصابته لوثة ! »

وألقت ماريانكا رأسها على صدارها المطوى ، ولفت ذراعها حول كتف أوستنكا ثم أغمضت عينيها ، ولزمت الصمت برهة قصيرة ، ثم قالت : «كان يريد الحضور والعمل فى الكرمة اليوم ، فقد طلب منه أبى ذلك » ، وما لبثت أن أسلمت عينيها للنعاس .

الفصل الحادى والثمانون

كانت الشمس قد بزغت من خلف شجرة الكمثرى التى كانت تظلل العربة ، وأخذت أشعتها تلفح وجهى الفتاتين النائمتين غير عابئة بجذوع الأشجار التى رشقتها أوستنكا فى العربة ، واستيقظت ماريانكا ، وبدأت تصلح من شأن المنديل على رأسها ، والتفتت خلفها فيما وراء شجرة الكمثرى ، فرأت نزيلهم واقفاً يتحدث مع أبيها وقد حمل بندقيته على كتفه ، عندئذ لكزت أوستنكا ودلتها عليه وهى تبتسم .

وكان أولينين يقول وهو يتلفت حوله قلقاً ولا يرى ماريانكا من خلال الغصون : « ذهبت البارحة ولم أجد شيئاً »

وقال الضابط حامل العلم مغيراً لهجة حديثه فى الحال : « آه ! يجب أن تذهب فى ذلك الاتجاه ، وتسير فى نصف دائرة ، فتجد كرمة مهجورة تشبه الأرض الفضاء تمرح فيها دائماً الأرانب البرية »

وقالت العجوز فى مرح : « جميل أن تمضى فى طلب الأرانب البرية فى هذا الوقت الذى يزدحم بالعمل ! وكان أولى بك أن تأتى لتساعدنا ، وتشارك الفتيات

فى بعض ما يعملن » ، ثم صاحت : « إيه ! أيتها الفتاتان هلمّا وانهضا ! »

وكانت ماريانكا وأوستنكا تتهامسان تحت العربة لا تكادان تستطيعان لضحكهما ردًّا .

وكان مضيفا أولينين قد ازدادا تقرباً إليه من يوم أن شاع الخبر بأنه منح لوكاشكا جواداً يساوى خمسين روبلاً ، وبدا أن حامل العلم كان يسر بصفة خاصة إذ يرى روابط الألفة تنمو بين ابنته وبين أولينين .

ورد أولينين قائلاً : « ولكننى لا أعرف كيف أشارك فى هذا العمل ؟ » ، وراح يتحاشى النظر من خلال الغصون الخضراء إلى ما تحت العربة حيث رأى لتوه قميص ماريانكا الأزرق ومنديلها الأحمر .

وقالت الزوجة العجوز : « تعال ، سأعطيك بعض الخوخ »

وقال حامل العلم يشرح كلمات زوجته كأنه يصححها : « إنه الكرم القوزاقى القديم على ما صوره لها غباؤها فى هذه السن العالية ، وإنى لأحسب أنك ألفت فى روسيا أن تأكل ما يحلو لك من مربى الأناناس أكثر من أكل الخوخ » .

وسأل أولينين : « وهكذا تقول : إن الأرانب البرية فى الكرمة المهجورة ، إذن فإنى ماض إليها » . وألقى نظرة سريعة من خلال الغصون الخضراء ، ورفع قبعته ثم اختفى بين صفوف الكروم الخضر المنتظمة .

وكانت الشمس قد غابت خلف سياج الكروم ، وأخذت أشعتها المتكسرة تتألق من خلال أوراق الأشجار الشفيفة عندما عاد أولينين إلى كرمة مضيفيه ، وخفت حدة الرياح وسرت فى الجو نسمات عذبة رطيبة ، وتبين أولينين بشىء أشبه بالغريزة قميص ماريانكا الأزرق عن بعد من خلال صفوف الكروم ، وأخذ يقترب منها ملتقطاً فى طريقة حبات العنب ، وسبقه كلبه المجهد ملتقطاً هو الآخر العنب

الدانى القطوف بفمه المبلل .

وكانت ماريانكا تقطع العناقيد المثقلة بالثمار مسرعة وقد توردوجهها بحمرة الخجل ، وشمرت عن ساعديها ، وتدلى منديلها إلى ما تحت ذقنها ، ثم تضعها فى سلة ، وتوقفت تبتسم له فى بشاشة ولطف دون أن تترك الكرمة التى كانت ممسكة بها ، ثم استأنفت عملها ، واقترب أولينين منها ولفع بندقيته على ظهره حتى تخلو يداه ، وهم بأن يقول : « أين الفتيات الأخريات ؟ كان الله فى عونك ! أو أنت وحدك ؟ » ولكنه أحجم ، واكتفى برفع قبعته ملتزماً الصمت ، كان يحس بالضيق إذا انفرد بماريانكا ، ولكنه اقترب منها كأنما تعمد أن يعذب نفسه .

وقالت ماريانكا : « لتصيبن النساء بطلقاتك وأنت تضع بندقيتك فى هذا الوضع » .

– كلا ، لن أصيبهن . وأخلد كل منهما إلى السكون ، ثم قالت ماريانكا بعد لحظة : « ينبغى أن تساعدنى » ، وأخرج مديته وشرع يقطع عناقيد العنب فى صمت وما إن دنا من الشجر ووقف تحت أوراقه حتى قطع عنقوداً غزير الحب ، يزن نحو ثلاثة أرطال ، وقد بلغ من تزاحم ثماره أن الحبات لم تجد فسحة تنمو فيها فاستطالت جميعاً ، ثم أطلع ماريانكا على العنقود .

– أوينبغى قطع العناقيد كلها ؟ ألا ترين أن هذا العنقود لا يزال بعد غضًّا لم ينضج ؟

– أعطنيه

وتلامست منهما اليدان ، وأمسك أولينين بيدها فنظرت إليه وهى تبتسم وسألها : « أوقد أعتزمت الزواج قريباً ؟ »

ولم تجب ، بل أشاحت عنه وتلاشى أثر الابتسام فى عينيها ،

– أوتحبين لوكاشكا ؟

– وما الذى يعنيك من هذا الأمر ؟

– إنى لأحسده

– هذا محتمل جداً

– أؤكد لك ما أقول ، ألا ما أروع حسنك !

وشعر فجأة بالخجل الشديد مما قال ، وبدت هذه الكلمات فى عينه تافهة مبتذلة ، واحمر وجهه وفقد السيطرة على نفسه ثم أمسك بيديها جميعاً .

وأجابته ماريانكا : « مهما يكن من أمرى فلست لك ! إذن ما بالك تسخر منى ؟ » ، ولكن نظراتها كان يتجلى فيها بأجلى بيان أنها تعلم علم اليقين أنه لا يسخر منها .

– أسخر منك ؟ آه ! لو تعلمين كم . . . !

ورنت الكلمات فى أذنيه فإذا بها لا تزال تافهة مبتذلة لا تتفق فى شىء كثير مع حقيقة مشاعره ، إلا أنه استرسل يقول : «لست أدرى : أثمة شىء لا أقدم عليه من أجلك » .

– دعنى وشأنى أيها اللجوج !

ولكن وجهها وعينيها المشرقتين وصدرها الناهد وساقيها الجميلتين كانت تقول شيئاً يخالف ذلك كل الاختلاف ، وخيل إليه أنها تدرك تفاهة كل ما قاله لها ، إلا أنها كانت أرفع من هذه الاعتبارات ، وخيل إليه أيضاً أنها كانت تعرف منذ زمن بعيد كل ما كان يصبو إليه ، وإن عجز عن أن يبوح بما يكنه قلبه ، ولكنها أرادت أن تسمع منه كيف يعبر عنه ؟

ثم قال بينه وبين نفسه : « وكيف لا تعلم وأنا إنما أريد أن أحدثها بكل ما فيها

من صفات ؟ ولكنها لا تود أن تفهم ولا تريد أن تجيب ! »

وانطلق صوت أوستنكا الحاد فجأة من خلف الكروم هاتفاً : « هالو ! » ، ثم ضحكت ضحكتها الحادة وهى تدس وجهها الصغير الساذج المستدير بين الكروم « تعال وساعدنى يا ديمترى أندرييفتش ، فليس هنا من أحد سواى »

ولم يجب أولينين أو يتحرك من مكانه .

وواصلت ماريانكا قطع عناقيد العنب ، ولكنها لم تكف عن النظر إلى أولينين ، وكان الفتى على وشك أن يقول شيئاً ، ولكنه أمسك ، ثم هز كتفيه ، وزحزح سير البندقية على كتفه ، وخرج من الكرمة فى خطوات سريعة .

الفصل الثانى والثلاثون

توقف أولينين مرة أو مرتين منصتاً إلى ضحكاتماريانكا وأوستنكا الرنانة ، وكانتا قد اجتمعتا وأخذتا تقولان شيئاً بصوت مرتفع ، وقضى المساء كله يصيد فى الغابة ، وعاد فى الغسق صفر اليدين ، ولمح — وهو يجتاز الفناء — بابَ ملحق الدار مفتوحاً ، وقد ظهر منه قميص أزرق ، ونادى فانيوشا بصوت بالغ الارتفاع حتى يعرف القوم أنه عاد ، ثم جلس فى مدخل مسكنه فى مكانه المعتاد ، وكان مضيفوه قد عادوا من الكرمة ، وخرجوا من ملحق الدار ودخلوا كوخهم ، ولكنهم لم يدعوه إليه ، وخرجت ماريانكا من الباب مرتين ، وقد لاح له ذات مرة فى الغسق أنها كانت تنظر إليه ، فتتبع كل حركة من حركاتها بعينين نهمتين ، ولكنه لم يستطع أن يحزم أمره على الدنو منها ، ثم اختفت فى الكوخ ، فغادر هو المدخل ، وشرع يذرع الفناء منصتاً إلى كل صوت فى كوخ مضيفيه ، وقد سمعهم يتحدثون فى المساء ، وسمعهم يتناولون عشاءهم ويخرجون فراشهم ثم يأوون إليه ، وسمع ماريانكا تضحك من شيء ، ثم سمع كل شيء يخيم عليه السكون رويداً رويداً .

وظل حامل العلم وزوجته يتهامسان برهة قصيرة ، وسمعت أنفاس شخص تتردد ، وعاد أولينين إلى كوخه فوجد فانيوشا نائماً بملابسه ، فحسده على ذلك ، ثم خرج يذرع الفناء مرة أخرى مترقباً فى كل لحظة أن يرى أحداً ، ولكن لم يأت أحد ولا تحرك أحد ، ولم يصل إلى سمعه إلا أنفاس ثلاثة أشخاص تتردد فى انتظام ، وكان يعرف تنفس ماريانكا ، وينصت إليه وإلى نبضات قلبه هو ، وكان كل شىء فى القرية هادئاً ساكناً ، وبزغ القمر المتضائل متأخراً ، وازداد تنفس الماشية العميق وضوحاً فى الفناء وهى ترقد أو تنهض مترينة مستأنية ، وراح أولينين يسائل نفسه غاضباً : « ترى ما الذى أريده ؟ » إلا أنه لم يستطع أن ينتزع نفسه من بحر الليل وفتنته ، وخيل إليه فجأة أنه سمع بوضوح قرقعة تنطلق من أديم كوخ مضيفيه ، ووقع أقدام تسير عليه ، فهرع إلى الباب ، ولكن السكون عاد وخيم على كل شىء ، وانقطعت الأصوات إلا صوت التنفس المنتظم ، ثم زفرت الجاموسة التى فى الفناء زفرة عميقة ، وتحركت مرة أخرى ، وانتصبت على قوائمها ولوحت بذيلها ، وانساب كل شىء على أديم الأرض الصلصالية الجافة يخرخر خرخرة متداركة ، ثم رقدت الجاموسة مرة أخرى فى ضوء القمر الباهت ، وتساءل أولينين : « ماذا عساى أن أفعل ؟ » ، وحزم أمره على أن يأوى إلى فراشه ولكنه عاد فسمع أصواتاً ، وتراءى له شبح ماريانكا خارجة فى هذه الليلة التى يغشاها الضباب ولا يضيئها إلا نور القمر ، فهرع ثانية قاصداً إلى نافذتها ، وعاد فسمع وقع أقدام ، فلم يذهب إلى النافذة إلا قبيل الفجر ، وأخذ يدفع مصراعها ثم جرى إلى الباب ، فسمع هذه المرة حقًّا تنهد ماريانكا ووقع أقدامها ، وأمسك بالمزلاج وقرع الباب ، فلم يكن يسمع لوقع أقدامها العاريتين الحذرتين صريراً على أديم الكوخ وهما تقتربان من الباب ، وأحدث رفع المزلاج صوتاً وصر الباب ، وشم رائحة واهنة

تنبعث من نبات المردقوش والقرع عندما ظهر شبح ماريانكا فى مدخل الباب ، ولم يرها إلا لحظة فى ضوء القمر ، ثم صفقت الباب وغمغمت بشىء ، ثم ارتدت بسرعة فى خفة وهرع أولينين يقرع الباب قرعاً رفيقاً إلا أنه لم يتلق جواباً ، فركض إلى النافذة وراح ينصت ، فأفزعه صوت رجل ينبعث عالياً حاد النبرات .

وهتف قوزاقى شاب أقرب إلى القصر منه إلى الطول ، وكان يلبس قبعة بيضاء ، ويجتاز الفناء بالقرب من أولينين : « شىء جميل ! لقد رأيت كل شىء . . . شىء جميل ! »

وعرف أولينين نازاركا ، فأخلد إلى الصمت ولم يدر ماذا يفعل أو يقول ؟

– شىء جميل ! سأمضى وأنبئهم فى الإدارة بالأمر ، وسأخبر أباها ! يا لها من ابنة عطرة السيرة جديرة بحامل علم ! ألم يكفها رجل واحد ؟

وقال أولينين : « ما الذى تريده منى ؟ وما الذى تسعى إليه ؟ »

– لا شىء ! وكل ما فى الأمر أننى سأقص عليهم الخبر فى الإدارة

وكان نازاركا يتحدث بصوت مرتفع جدًّا حتى لقد بدا جليًّا أنه يتعمد ذلك تعمداً ، ثم أردف : « ألا ما أبرعك يا طالب الحربية ! »

وارتعدت أوصال أولينين واصفر لونه ، وقال : « تعال هنا تعال ! »

وأمسك بذراع القوزاقى فى قوة ، وقاده إلى كوخه وقال له : « لم يقع منى شىء فإنها لم تسمح لى بالدخول وما كنت لأقصد بها شرًّا وإنها لفتاة شريفة . . . »

– ما لنا وهذا الأمر . . . ؟

– ومع كل فإنى سأنفحك بشىء الآن ، فانتظر لحظة !

ولم ينبس نازاركا ببنت شفة ، وهرع أولينين إلى كوخه وجاء بعشرة روبلات نفح بها القوزاقى .

– لم يقع منى شىء ، ولكننى ما زلت حقيقاً باللوم ، ولذلك أعطيك هذه ! سألتك الله ألا تكشف أمرى لأحد ، فإنه لم يقع منى شىء ! . .

وقال نازاركا وهو يضحك : « أرجو لك الهناء والسرور » ، ثم ولى ،

وكان نازاركا قد أتى إلى القرية فى تلك الليلة عملاً بأمر لوكاشكا ، ليبحث عن مكان يخفى فيه جواداً مسروقاً ، وسمع وقع أقدام فى الفناء فى طريقه إلى داره ، فلما عاد فى صبيحة اليوم التالى إلى سريته باح بالسر إلى صديقه ، وشرح له كيف اكتسب بمهارة عشرة روبلات ؟

ولقى أولينين مضيفيه فى صباح اليوم التالى ، وكانوا لا يعلمون شيئاً عن حوادث الليلة الماضية ، ولم يتحدث الفتى إلى ماريانكا ، وكل ما فى الأمر أنها ضحكت قليلاً عندما نظرت إليه ، وقضى الليلة التالية أيضاً مسهداً يضرب فى الفناء على غير هدى ، وتعمد أن يقضى نهار اليوم الذى يليه فى الصيد ، وذهب فى المساء للقاء بيليتسكى هرباً من أفكاره ، وكان يخشى ما يحس به من مشاعر ، فقطع على نفسه العهد بألا يذهب إلى كوخ مضيفيه مرة أخرى .

وفى الليلة التالية أيقظه الباشجاويش ، فقد صدر الأمر إلى سريته بالمضى لتوها فى غزوة من الغزوات .

وقد سر أولينين بذلك ، وظن أنه لن تكتب له عودة إلى القرية .

واستمرت الغزوة أربعة أيام ، ورغب القائد فى لقاء أولينين ، وكان من أقربائه ، وعرض عليه أن يستبقيه بين أركان حربه ، فأبى أولينين ، إذ تبين له أنه لا يستطيع الإقامة بعيداً عن القرية ، وطلب من القائد السماح له بالعودة إليها ، وأنعم عليه نظير اشتراكه فى الغزوة بوسام الصليب الذى كان يتلهف عليه من قبل ، وقد عاد الآن لا يهتم به ، وكان إلى ذلك أقل احتفالاً بترقيته التى لم يلك الأمر

الصادر بها قد وصل إلى السرية بعد .

وركب أولينين جواده ، وعاد إلى النطاق وفى صحبته فانيوشا دون أن يقع له حادث مستبقاً سائر جنود السرية ببضع ساعات ، وقضى المساء كله فى مدخل كوخه يرقب ماريانكا ، وراح يجول فى الفناء طول الليل لا يسعى إلى شىء ولا يخطر بباله فكرة .

الفصل الثالث والثلاثون

وكان الوقت متأخراً عندما استيقظ فى صباح اليوم التالى ، فلم يجد مضيفيه فى كوخهما ، ولم يخرج للصيد بل راح يتناول كتاباً حيناً ، ويخرج إلى مدخل الكوخ حيناً ، ثم يعود إلى الكوخ ويستلقى على فراشه حيناً ، حتى ظن فانيوشا أنه قد ألم به مرض .

ونهض أولينين قرب المساء وأخذ يكتب فى عزم وتصميم ، واستمر على ذلك حتى ساعة متأخرة من الليل ، وكتب خطاباً ولكنه لم يلقه فى البريد ، فقد أحس بأنه لاينتظر أن يفهم أحد ماكان يريد أن يقول ، زد على ذلك أنه لم تكن ثمة ضرورة تقتضى أن يفهم ذلك أحد سواه .

« أتلقى خطابات من روسيا ترثى لحالى ، ذلك أن القوم يخشون علىّ الضياع وأنا مدفون فى هذه الأرض الموحشة ، ويزعمون أننى بلا شك مصبح رجلاً فظاً خشن الطباع متخلفاً عن عصرى فى كل شىء وأننى سوف أدمن الشراب ، ومن يدرى ؟ فقد أتزوج فتاة قوزاقية وإن القائد ييرمولوف لم يكن عابثاً حين قال : « إن كل من

يخدم فى القوقاز عشر سنوات : إما أن يدمن الشراب حتى يموت ، وإما أن يتزوج فتاة خليعة فاسدة الخلق ! » ألا ما أفظع هذا ! الحق أنه ليس من الخير أن أورد نفسى مورد التهلكة فى حين أننى أستطيع أن أنعم بسعادة عظيمة فأتزوج الكونتس ب . . . نفسها أو أغدو أميناً فى القصر أو مشيراً من النبلاء فى ناحيتى ، واها لكم ! لشد ما تشمئز نفسى منكم جميعاً وما أكثر ما تثيرون فىّ الرثاء لحالكم ! إنكم لا تعرفون معنى السعادة ولا كنه الحياة ! ألا ما أجدر المرء بأن يذوق مرة حياةً ماثلة فى جمالها الطبيعى كله ! أجل يجب عليه أن يرى كل يوم ما أرى ويفهم ما أفهم : يرى تلك القمم المنيعة المكللة بالجليد التى لا سبيل إلى الوصول إليها إلى ما شاء الله ، ويرى امرأة يحف بها الجلال فى جمالها الفطرى الذى برأ الله عليه أول امرأة سوّاها ! وعندئذ تتجلى الحقيقة ويتبين من الذى يورد نفسه مورد التهلكة ؟ ومن الذى يحيا حياة صادقة لا زيف فيها : أنتم أم أنا ؟ آه ! لو علمتم كيف تبدون لى فى أوهامكم جديرين بالاحتقار حقيقين بالرثاء !

وإنى لأشعر بالثورة تجتاح نفسى إذا ما تصورت أننى استبدلت كوخى وغاباتى وحبى بهاتيك الأبهاء المعدة للاستقبال ، وأولئك النسوة بشعرهن المضمخ تطل منه الخصل المستعارة ، وتلك الشفاه المتجهمة على نحو عجيب لا يألفه الناس ! وتلك الأطراف المستوردة الواهنة الشائهة ، وتلك الثرثرة المفروضة تلازم أحاديث الصالونات التافهة ، ثم أرى أمامى تلك الوجوه الكليلة وأولئك الفتيات الثريات الصالحات للزواج اللائى ينظرن إليك كأنما يقلن : « لا عليك فإنك تستطيع أن تقبل على وإن كنت غنية » ، وتلك المقاعد ترتب ثم يعاد ترتيبها ، وتلك الوساطة المخجلة فى أمور الزواج ، وتلك الثرثرة وذلك الانتظار اللذين لا يعرفان حداً ولا نهاية ، وتلك القواعد والمراسيم التى تبين لك من الذى تصافحه ومن الذى

تكتفى فى تحيته بإيماءة من رأسك ، ومن الذى تتحدث اليه (وكل ذلك يقدم المرء عليه عامداً مؤمناً بأن لا مفر له منه) وذلك السأم المتصل الحلقات الذى يجرى مجرى الدم فى العروق وينتقل من جيل إلى جيل ، وإنى لأهيب بكم أن تحاولوا أن تفهموا أو تؤمنوا بهذا الشىء لا سواه : وهو أن الأمر لا يقتضيكم إلا أن تروا وتفهموا الحق والجمال ، فإن فعلتم انهار كل ما تقولونه الآن أو تفكرون فيه ، وانهارت كل تمنياتكم لى ولأنفسكم وضاعت فى الرغام .

« إن السعادة هى أن تعيش مع الطبيعة تراها وتتحدث إليها وإنى لأتخيلهم يقولون عنى فى رثاء صادق لا تصنع فيه ولا تكلف ومن يدرى لعله يتزوج (لا قدر الله) فتاة قوزاقية من السوقة ، فتضيع مكانته فى المجتمع أيما ضياع ! على أن الشىء الوحيد الذى أريده هو أن « تضيع مكانتى » بالمعنى الذى قصدوه من هذه العبارة ، أجل أريد أن أتزوج فتاة قوزاقية من السوقة ، ولكنى لا أجرؤ خشية أن يبلغ بى ذلك إلى ذروة من السعادة لا أستحقها .

« لقد انقضت ثلاثة أشهر مذ رأيت لأول مرة الفتاة القوزاقية ماريانكا ، وكانت آراء العالم الذى تركته وأهواؤه لاتزال حية فى نفسى ، ولم أك أعتقد وقتئذ أننى مستطيع أن أحب هذه المرأة ، لقد كنت أفرح بجمالها فرحى بالجبال والسماء ، ولم أك أملك إلا الفرح ؛ لأنها جميلة جمال الجبال والسماء ، وتبين لى أن مشاهدة جمالها أصبحت ضرورة من ضرورات حياتى ، وبدأت أتساءل : أترانى أحبها ؟ ولكنى لم أجد فى قرارة نفسى شيئاً شبيهاً بالحب كما تخيلته : ذلك أن حبى لم يكن هو القلق النابع من الوحدة أو الرغبة فى الزواج ولا هو بالحب العذرى ، بله الحب الشهوانى كما خبرته ، وإنما كان إحساسا بالحاجة إلى أن أراها ، وأن أسمعها وأن أعرف أنها قريبة منى ، فإذا غاب عنى الشعور بالسعادة كنت على الأقل مطمئن

النفس هادئ البال .

« وقد حدث أن ضمنا مجلس ذات ليلة ، فلقيتها ولمستها ، فأحسست بأن بيني وبين تلك المرأة رباطاً لا تنفصم عراه ، رباطاً لا يعترف الناس به ولا حيلة لى فى مقاومته ! ومع ذلك فقد قاومت ، وساءلت نفسى : « أمن الممكن أن أحب امرأة لا تدرى شيئاً أبداً عن أدق شئون حياتى ؟ أيجوز أن أحب امرأة لجمالها وحسب ، فأحب تمثالاً ؟ » ولكنى كنت قد وقعت فى شراك حبها فعلاً وإن كنت لم أستوثق بعد من حقيقة مشاعرى !

لقد تغيرت علاقاتنا بعد تلك الليلة التى حادثتها فيها لأول مرة ، فقد كانت من قبل تبدو لناظرى شيئاً نائياً جليلاً له وجود مستقل بذاته عنى . ولكنها أصبحت من بعد وكأنها بشر من لحم ودم ، ورحت ألقاها وأتحدث إليها ، وكنت أذهب أحياناً فأشتغل لأبيها وأقضى ليالى بطولها مع أسرتها ، وظلت صورتها فى عينى خلال هذه الاجتماعات العائلية الوثيقة ، كما كانت طاهرة بعيدة المنال تحف بها المهابة والجلال ، وكانت تجيب دائماً فى هدوء وإباء وحيدة ممزوجة بالبشاشة والمرح ، تظهر الود حيناً ، وتبدو فى كل نظرة من نظرتها وكل كلمة من كلماتها وكل حركة من حركاتها هذه الحيدة فى معظم الأحيان ، إلا أن حيدتها لم يكن يشوبها الاستخفاف والازدراء بل كانت حيدة تسيطر على النفوس وتفتن القلوب !

وقد كنت فى كل يوم أحاول متكلفاً الابتسام ، أن أمثل دوراً معها فأمازحها وأباسطها ، وقلبى يتمزق من الرغبة والهوى ، وكانت ترى أننى أتكلف ، بيد أنها كانت تنظر إلى نظرات مستقيمة فى غبطة وبساطة ، وأصبح هذا الموقف فوق ما أطيق ، ذلك أننى كنت لا أحب أن أخادعها بل أقول لها كل ما أشعر به وأفكر فيه ، كنت مضطرباً غاية الاضطراب وكنا فى الكرمة عندما أخذت أبوح لها بحبى فى

عبارات يخجلنى الآن أن أذكرها : أما الخجل فلأن الواجب كان يقتضينى ألا أتجاسر بالتحدث إليها فى ذلك ، كانت أرفع كثيراً من كلماتى ، وأسمى من الشعور الذى أردت أن أعبر عنه بهذه الكلمات فأمسكت من بعد عن الكلام ، إلا أن موقفى أصبح من يومها عسيراً لا يطاق ! ولم أشأ أن أذل نفسى بالمضى فى علاقتنا السابقة المستهجنة ، وشعرت فى الوقت نفسه بأننى لم أبلغ معها مستوى العلاقة المستقيمة البسيطة ، ورحت أسائل نفسى فى قنوط ويأس : « ماذا عساى أن أفعل ؟ » وتخيلت فى أحلامى العابثة أنها قد غدت محظيتى تارة وزوجتى تارة أخرى ، ولكننى أنكرت الصورتين فى نفور واشمئزاز : فإن جعلت منها امرأة مستهترة فاجرة كان ذلك شائناً شنيعاً ، بل هو القتل بعينه ، وإن جعلت منها سيدة مهذبة راقية ، وزوجة لديمترى أندرييفتش أولينين كما حدث لامرأة قوزاقية من أهل هذه القرية تزوجت أحد ضباطنا - كان ذلك أشنع ، ولكن أن أنقلب الآن قوزاقياً كلوكاشكا وأسرق الجياد ، وأشرب الجكير حتى أسكر ، وأنشد الأغانى المرحة وأقتل الناس ، فإذا سكرت تسورت عليها النافذة وقضيت ليلتى دون أن أفكر : من أكون ؟ وما شأنى ؟ فهذا شئ آخر ، وقد نستطيع أن نتفاهم وأن أكون سعيداً .

« لقد حاولت أن ألقى بنفسى فى غمار ذلك اللون من الحياة ، إلا أننى كنت ما أزال أكثر إدراكاً لضعفى وتكلفى ، فقد عجزت عن نسيان نفسى أو نسيان ماضى المعقد الشائه القبيح ! وبدا المستقبل فى عينى أشد ابتعاثاً لليأس والقنوط ، لقد كنت كل يوم أرى أمامى الجبال النائية يكللها الجليد وتلك المرأة المهيبة الجليلة السعيدة ، ولكن السعادة « الوحيدة » التى أتيحت لى فى هذا العالم لم تك من نصيبى ، فقد كنت عاجزاً عن أن أحظى بهذه المرأة ! وإن شر ما فى حالتى وأغرب ما فيها هو إحساسى بأننى أفهمها ، أما هى فلن تفهمنى أبداً لا لأنها دونى مرتبة ، بل لأنها على

العكس يجب ألا تفهمني فهي سعيدة وهي كالطبيعة نفسها منطلقة تجري على سجيتها هادئة مكتفية بذاتها ، أما أنا فمخلوق ضعيف ناقص ، أريد منها أن تفهم نقصي وتدرك عذابي ! ولم أنم ليلتي ، بل رحت أمر تحت نافذتها مشرد الفكر ، لا أحاسب نفسي عما يبدر مني في حق نفسي !

« وفي اليوم الثامن عشر من الشهر خرجت سريتي في غزوة ، وقضيت ثلاثة أيام بعيداً عن القرية ، كنت حزيناً ، فاقد الشعور جامد العاطفة ، وكانت الأغاني ، وألعاب الورق ، ومجالس الشراب ، والأحاديث تدور عن المكافآت في الكتيبة ، وما إلى ذلك من أمور مألوفة تثير في نفسي من الاشمئزاز أكثر مما كانت تثيره من قبل ، وبالأمس عدت ورأيتها ورأيت كوخي والعم يروشكا ، ونظرت من مدخل كوخي إلى الجبال التي يكللها الجليد ، وتملكني شعور من الفرح قوي جديد حتى أدركت كل شيء : أدركت أنني أحب هذه المرأة وأشعر بالحب الصادق للمرة الأولى بل (الوحيدة) في حياتي وإني لأعرف ما ألم بي ، ولا أخشى أن يحط هذا الشعور من قدري .

أجل لست خجلاً من حبي ، بل أنا فخور به ، وليس ذنبي أنني أحب فقد دهمني الحب على غير إرادتي ، وحاولت أن أهرب من حبي بإنكار ذاتي ، وحاولت أن ألتمس السرور والسعادة في ذلك الحب القوزاقي الذي ربط بين لوكاشكا وماريانكا فلم أفلح إلا في إثارة لواعج حبي وغيرتي !

إن هذا ليس هو الحب المثالي ، أو الحب السامي الذي عهدته في نفسي من قبل ، وليس هو بذلك النوع من العلاقة التي تعجب فيها بحبك ، وتشعر أن مصدر عاطفتك يكمن في أعماق نفسك وأنك حر التصرف في أمر نفسك ، فإن هذا الشعور ألم بي أيضاً وكابدته ، أما الحب الذي تملكني فهو حب رغبة الاستمتاع فيه أقل ،

إنه شيء يخالف ذلك ، ولعلني أحب الطبيعة فيها بل أحب كل ما هو جميل فى الطبيعة ممثلاً فيها ، على أنني لا أتحرك فى ذلك بمحض إرادتى بل إن فى أعماق قوة فطرية تتخذ منى وسيلة إلى هذا الحب ، وأن ملك الله جميعاً والطبيعة بأسرها ليلقيان فى نفسى هذا الحب ويهيبان بى هاتفين : « أحبها » وأنى لا أحبها بعقلى وبخيالى بل بكيانى كله ، وأنا فى حبى لها أشعر بنفسى جزءاً لا يتجزأ من ملك الله الفسيح السعيد .

« ولقد كتبت من قبل عن العقائد الجديدة التى أثارتها فى نفسى حياة الوحدة التى أحياها ولكن مامن أحد يدرى مدى الجهد الذى اقتضاه نمو هذه العقائد فى أعماق نفسى ، ومدى الفرح الذى غمرنى عندما تبينتها ورأيت سبيلاً جديداً من سبل الحياة يتفتح أمامى . ولم يكن أعز عندى من تلك المعتقدات . . والآن . . . جاء الحب ، فزالت هذه العقائد ولم يبق لها ولا للحسرة عليها أى وجود !

« وإنه لمن العسير على أنا نفسى أن أصدق أننى كنت فى وقت من الأوقات أقدر ذلك الاتجاه العقلى الضيق الجامد ، فقد جاء الجمال فبدد كل ذلك الجهد الباطنى الشاق ، ولم يبق فى نفسى أثر من الندم على ما تولى وذهب ! والحق أن إنكار الذات بجميع صوره هراء فى هراء بل هو اعتزاز بالنفس وملجأ نفزع إليه من شقاء نستحقه ، وسبيل إلى الخلاص من حسد يأكل قلوبنا لما نراه من سعادة الآخرين !

وقد جاء فى الأمثال « عش لغيرك وافعل الخير » – ولكن كيف يتأتى لى ذلك ؛ وأنا لا أشعر فى أعماق إلا بالحب لنفسى والرغبة فى أن أحبها وأحيا معها حياتها ؟ ولست أريد السعادة الآن للوكاشكا ولا لغيرى من الناس ، فقد أصبحت لا أحب هؤلاء الأغيار ، وقد كنت حقيقاً من قبل بأن أقول لنفسى : إن هذا خطأ ، وكان

ينبغى لى أن أعذب نفسى بهذه الأسئلة : ترى ما الذى ينتهى إليه أمرها ، وأمرى ، وأمر لوكاشكا ؟ أما الآن فلست أعبأ بذلك كله . فأنا لا أحيا حر الإرادة أفعل ما أشاء ؛ وإنما تسيرنى إرادة أقوى من إرادتى ، إنى لأتعذب ، ولكننى كنت ميتاً من قبل ، ولم أعرف الحياة إلا الآن ، ولأمضين اليوم إلى دارهم ، وأبوح لها بكل شىء » .

الفصل الرابع والثلاثون

وذهب أولينين إلى منزل مضيفيه فى ساعة متأخرة من ذلك المساء بعد أن فرغ من كتابة خطابه ، وكانت العجوز تجلس على أريكة خلف المدفأة تفك الشرانق فى حين جلست ماريانكا حاسرة الرأس تحوك شيئاً على ضوء شمعة ، وما إن رأت أولينين حتى نهضت مسرعة وأخذت منديلها ومضت إلى المدفأة .

وقالت أمها : « أى يا عزيزتى ماريانكا ، هلا جلست معنا برهة ! »

وأجابت الفتاة : « كلا ، فإنى حاسرة الرأس » ، وقفزت إلى المدفأة .

ولم يستطع أولينين أن يلمح إلا ركبتها وساقاً من ساقيها الجميلتين تتدلى من رف المدفأة وقدم الرجل الشاى إلى المرأة ، وقدمت هى إلى ضيفها قشدة مخثرة ، وكانت قد بعثت ماريانكا فى طلبها ، ووضعت ماريانكا ملء طبق من القشدة على المنضدة ، ثم قفزت مرة أخرى مستوية على رف المدفأة . ولم يشعر أولينين إلا بعينيها تحدقان فيه النظر ، وأخذ القوم يتحدثون فى شئون عائلية ، ونشطت السيدة أو لتيكا وتملكتها نوبة من الكرم ، فجاءت له بعنب محفوظ وبفطيرة صنعت من العنب ،

وشىء من خمرها المعتقة ، وألحت عليه أن يأكل ويشرب بطريقة أهل الريف الخشنة التى يعتزون بها فى ضيافتهم ، ولا تجدها إلا عند أولئك الذين يكسبون عيشهم بعرق جبينهم .

وقد تأثر أولينين هذه المرة بما أظهرته المرأة العجوز كثيراً من حنو فطرى نحو ابنتها ، وكانت قد أدهشته أول الأمر بقسوتها عليها .

– أجل ، يجب علينا ألا نغضب الخالق بالتبرم والسخط ؛ فإن عندنا والحمد لله ما يكفينا من كل شىء ، فقد عصرنا ما يكفينا من الجكير ، وأعددنا ما يكفينا من المربى ، وإذا بعنا ثلاثة أو أربعة براميل من العنب بقى لنا مع ذلك ما يكفى شرابنا ، فلا تتعجل الرحيل ؛ فإنا سنلهو ونمرح معاً فى حفلة الزفاف .

وسأل أولينين وقد أحس بالدم يتصاعد فجأة إلى رأسه وأخذ قلبه ينبض نبضاً أليماً غير منتظم : « ومتى الزفاف ؟ » وسمع عندئذ حركة على المدفأة وصوت لب يطقطق .

وأجابت العجوز ببساطة وهدوء كأنها لا تشعر بوجود لأولينين : « لعلك تعلم أن ذلك ينبغى أن يتم فى الأسبوع القادم ؛ فنحن مستعدون تمام الاستعداد ؛ فقد عزمنا أن نتم جهاز ماريانكا على الوجه الأكمل ، إن ثمة شيئاً واحداً لا يسير كما ينبغى ، فقد أخذ عزيزنا لوكاشكا فى الآونة الأخيرة يتنكب الطريق السوى ممعناً فى ذلك إمعاناً ، لقد عاد إلى ألاعيبه ، ذلك أن قوزاقياً من رجال سريته جاء إلينا وقال : إنه مضى إلى منازل النوغاى » .

فقال أولينين : « يجب أن يلزم الحذر وإلا وقع فى المكروه » .

– صدقت ، وإليك ما قلته له : « حذار يا لوكاشكا ، لا تزج بنفسك فيما يعود عليك بالضرر ، أجل فإن الشاب يحب بطبيعته أن يقدم على عمل جرىء ، ولكن

فسحة العمر تبلغ الأمل ، هب أنك استحوذت على شيء ، أو سرقت شيئاً وقتلت رجلاً من الأبركة ، صحيح أنك فتى ولا كل الفتيان ، ولكن لا مناص من أن تستقر الآن وتهدأ وإلا جلبت على نفسك الضرر » .

وقال أولينين : « أجل ، لقد رأيته فى الناحية مرة أو مرتين ، وكان ينعم دائماً بوقت سعيد ، وقد باع جواداً آخر » ، ثم نظر فى اتجاه المدفأة .

ورنت إليه عينان سوداوان كبيرتان فى قسوة بل فى عداء وشعر بالخجل مما قال ، وهتفت ماريانكا فجأة : « وماذا عليه ؟ إنه لا يؤذى أحداً وإنما يروح عن نفسه بنقوده » ، ثم أنزلت ساقيها ، وقفزت من فوق المدفأة وخرجت وهى تصفق الباب ، وراح أولينين يتابعها بنظراته وهى فى الدار ، ثم تعلق بصره بالباب ، ولبث ينتظر غير مدرك شيئاً مما كانت تحدثه به السيدة أولتيكا .

وبعد لحظات أقبل بعض الضيوف : شيخ هو أخو السيدة أولتيكا يصحبه العم يروشكا فى أثرهما ماريانكا وأوستنكا .

وقالت أوستنكا فى صوت كأنه الصرير : « طاب مساؤكم » وأردفت ملتفتة إلى أولينين : « أما زلت فى إجازة ؟ » .

فأجاب : « بلى ، ما أزال فى إجازة » وشعر بالخجل والاضطراب دون أن يدرى لذلك سبباً .

كان يريد الانصراف ، ولكنه لم يستطع ، وخيل إليه أيضاً أن من المستحيل أن يصمت ، وسبقه الشيخ بالسؤال يلتمس كأساً ، وكان للقوم ما شاءوا ، فقد شرب أولينين مع يروشكا ، ثم مع القوزاقى الآخر ، ثم مع يروشكا مرة ثالثة ، وكلما أمعن فى الشراب زاد همه ، إلا أن الشيخين شربا فطربا ، وتسلقت الفتاتان إلى المدفأة حيث جلستا تتهامسان وتنظران إلى الرجال وهم مقبلون على كئوسهم حتى

ساعة متأخرة ، وأحجم أولينين عن الكلام ، بل راح يشرب أكثر من الآخرين ، وكان القوزاقيان يتصايحان ؛ فقد أبت العجوز أن تزيدهما من الجكير ، وحاولت أن تتخلص منهما ، وضحكت الفتاتان من العم يروشكا ، ولم يخرج القوم جميعاً إلى مدخل الكوخ إلا بعد أن جاوزت الساعة العاشرة ، ودعا الشيخان نفسيهما ليتما اللهو والمرح فى مسكن أولينين ، وهرعت أوستنكا إلى دارها ، وقاد يروشكا القوزاق الآخر المسن إلى فانيوشا . خرجت العجوز لتنظيف الحظيرة ، وظلت ماريانكا وحدها فى الكوخ ، فأحس أولينين بالنشاط والانتعاش يدبان فى أوصاله فجأة كأنه قد نهض من النوم لتوه ، وكان الفتى قد لاحظ كل شىء ، فترك الشيخين يمران به ، ثم عاد أدراجه إلى الكوخ حيث وجد ماريانكا تتهيأ للمضى إلى فراشها ، فقصد إليها وأراد أن يقول شيئاً فخانه صوته ، وابتعدت هى عنه ، وجلست على فراشها فى ركن الغرفة واضعة ساقاً على ساق ، ونظرت إليه فى صمت بعينين زائغتين وجلتين ، وكان من الواضح أنها خائفة منه ، وشعر أولينين بهذا فأدركه الأسى ، وخجل من نفسه وتملكه فى الوقت نفسه الزهو والسرور ، لأنه استطاع على أقل تقدير أن يثير هذا الخوف فى صدر الفتاة .

ثم قال : « ماريانكا ، ألا ترحمينى أبداً ؟ إننى لا أستطيع أن أعبر لك عن مبلغ ما يكنه لك صدرى من حب » .

وابتعدت عنه أكثر وأكثر وقالت : « يالصوت بنت الحان يلهج به لسانك ! لن تنال منى شيئاً » .

– كلا ، ليس ما أقول هو حديث بنت الحان . لا تتزوجى لوكاشكا ؛ فقد عزمت أن أتزوجك . .

وراح يحدث نفسه بعد أن بدرت منه هذه الكلمات : « ماذا أقول ؟ وهل

أستطيع أن أقول هذا القول غداً ؟ » ، وأجابه صوت ينبعث من أعماق نفسه : « أجل أستطيع ، ولا يساورنى الشك فى أنى أستطيع ، بل إنى لمردد هذا القول الآن » .

أفلا تتزوجينى ؟

ونظرت إليه فى جد واهتمام ، وقد بدا أن خوفها ولى ، وانقضى .

— ماريانكا ، لقد كدت أجن ولم أعد أملك زمام نفسى ، ولأفعلن كل ما تطلبينه منى » . وخرجت الكلمات الرقيقة المجنونة من شفتيه طائعة مختارة .

وقاطعته الفتاة وقد أمسكت فجأة بذراعه التى مدها إليها وقالت :

« ولكن ما هذا الهذيان ؟ » ولم تدفع ذراعه بل ضغطت عليها فى شدة بأصابعها القوية الخشنة .

— أو يتزوج السادة الفتيات القوزاقيات ؟ اغرب عنى !

— ولكن أفلا تتزوجينى ؟ إن كل شىء . . .

وقالت وهى تضحك : « وماذا نفعل بلوكاشكا ؟

وجذب الذراع التى كانت ممسكة بها ، واحتضن جسمها الفتى بقوة ،ولكن ماريانكا أفلتت منه كالظبى الشارد ، وجرت عارية القدمين إلى مدخل الكوخ ، وثاب أولينين إلى رشده وهاله ما فعل ، وأحس مرة أخرى بأنه بالقياس إليها قد بلغ الغاية فى الخسة والدناءة ولكنه لم يندم لحظة على ما قال ، بل عاد إلى كوخه ، ولم يلق نظرة واحدة على الشيخين اللذين كانا يشربان فى غرفته ، بل استلقى فى سريره ونام نوماً عميقاً لم يعهده منذ أمد طويل .

الفصل الخامس والثلاثون

كان اليوم التالى يوم عيد ، وقد خرج أهل القرية إلى الطريق مساء مرتدين ملابس العيد تزهو فى ضوء الشمس الغاربة ، وكانوا فى هذا الموسم قد استخرجوا من الخمر أكثر مما ألفوا ، وقد خلا القوم الآن من أعمالهم ، وكان على القوزاق أن يقوموا بحملة بعد شهر ، وكانت الاستعدادات تجرى فى كثير من العائلات لإقامة حفلات الزواج .

واجتمع الناس فى الميدان أمام مركز القرية القوزاقية وقرب الحانوتين اللذين كان يبيع أحدهما الحلوى وبذور القرع ، ويبيع الآخر المناديل والمنسوجات القطنية المطبوعة ، وجلس الشيوخ على مصاطب دار المركز أو حولها مرتدين السترات الرمادية أو السوداء الوقور فى غير ما وشى من ذهب أو أى نوع آخر من أنواع الزينة ، وكانوا يتحدثون فى هدوء واتزان عن المحصول وعن الشباب وعن شئون القرية وعن الأيام الخالية ، وينظرون فى رصانة ووقار إلى الشباب ، وكانت تمر بهم النساء والفتيات فيقفن ويحنين رءوسهن وكان فتيان القوزاق يتمهلون فى سيرهم احتراماً

ويرفعون قبعاتهم ، ويمسكون بها لحظة فوق رءوسهم ، فيتوقفون عن الحديث ، ويرقب بعضهم المارة فى صرامة وعنف ، وبعضهم فى عطف وحنان ، وكان هؤلاء المارة أيضاً يرفعون قبعاتهم فى بطء ، ثم يعودون فيضعونها على رءوسهم .

ولم تكن الفتيات القوزاقيات قد بدأن فى رقصتهن المعروفة باسم « خوروفود »[1] ذلك أنهن كن جالسات فى جماعات ، وقد ارتدين صداراتهن الزاهية الألوان ، وعصبن رءوسهن بمناديلهن ؛ وأنزلنها على عيونهن ، واستوين على الأرض أو على المصاطب حول المنازل يحتمين من أشعة الشمس المائلة ، ورحن يضحكن ويتحدثن فى أصواتهن الرنانة .

وكان صغار الصبيان والبنات يلعبون فى الميدان ، ويرسلون كرتهم عالية فى السماء الصافية وقد أخذوا يركضون هنا وهناك وهم يتصايحون ويصرخون .

أما البنات الناضجات فكن قد بدأن فى الرقص ورحن ينشدن فى حياء وخجل بأصواتهن الرفيعة الحادة .

وشرع الكتبة والشبان الذين لم يلتحقوا بالخدمة العاملة أو الذين كانوا قد عادوا لقضاء العيد يسيرون وقد تشابكت أذرعهم اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة مشرق الوجوه يرتدون سترات جركسية أنيقة بيضاء أو حمراء وشيت بالذهب ، وينتقلون من جماعة من النساء أو الفتيات إلى جماعة أخرى ، ويقفون عندها يمزحون معهن ويغازلونهن ، وكان صاحب الحانوت الأرمنى يقف بباب حانوته المفتوح الذى بدت منه للأنظار أكداس من المناديل المطوية الزاهية اللون ، وقد ارتدى سترة موشاة بالذهب صنعت من نسيج ازرق جميل ينتظر « الزبائن » فى اعتزاز التاجر

---

(١) الخوروفود : حلقة تقيمها الفتيات ثم يدرن مغنيات .

الشرق وأقبل رجلان ملتحيان حافيا القدمين من الحجن هابطين من وراء نهر ترك لمشاهدة العيد ، وجلسا القرفصاء خارج منزل صديق لهما ، وراحا يدخنان غليونيهما الصغيرين فى غير ما اكتراث ، يبصقان من حين إلى حين وهما يراقبان القرويين ، ثم يتبادلان الحديث فى لهجتهما السريعة الخارجة من الحلق .

وكان يحدث بين الفينة والفينة أن يمر بالجماعات التى ترتدى ملابسها الزاهية جندى يلبس معطفاً قديماً يبدو فيه كعمال المياومة ، وتنبعث هنا وهناك أغانى القوزاق السكارى تنطق بها حناجرهم لاهين مرحين ، وكانت المنازل كلها مغلقة ، وقد حكت مداخلها ، وصقلت فى اليوم السابق ، فبدت نظيفة ، ولم يبق فيها أحد حتى العجائز من النساء خرجن إلى الشارع الذى كان قد تناثر فى جميع أرجائه قشر القرع ولب البطيخ ، وكان الهواء حاراً ساكناً والسماء صافية شديدة الزرقة ، وكنت ترى فيما وراء الأسطح سلسلة الجبال البيضاء الكابية وقد بدت الآن قريبة كل القرب وأخذ وهج الشمس يصبغها باللون الوردى ، وتسمع من حين إلى حين ينطلق من الناحية الأخرى للنهر دوى مدفع بعيد ، إلا أن أصوات القوم يمرحون ويلهون فى العيد كانت تسود القرية ، ويختلط بعضها وبعض .

وقضى أولينين ذلك الصباح بطوله يذرع الفناء معللاً النفس بأن يرى ماريانكا ، ولكن الفتاة كانت قد ارتدت أفخر ثيابها ومضت لحضور القداس فى الكنيسة ، ثم جلست مع ربيباتها على الأرضية تقضقض اللب حيناً وتهرع إلى الدار مع رفيقاتها حيناً آخر ، وكانت فى كل مرة ترمق الساكن فى دارهم بنظرة عطوف مشرقة .

وكان أولينين يخشى أن يوجه إليها الحديث مداعباً ، وخاصة فى حضرة صويحباتها ، لقد كان يود أن يتم الحديث الذى بدأه معها ليلة أمس ، وأن يحملها

على أن تجيبه جواباً قاطعاً ، وراح يتحين لحظة أخرى كتلك التى واتته فى مساء الأمس إلا أنها لم تواته ، فأحس بأنه لم يعد يستطيع احتمال تلك الحيرة التى عانى منها ما عانى .

وخرجت الفتاة إلى الشارع مرة أخرى ، فانتظر برهة قصيرة وانطلق هو أيضاً مقتفياً أثرها لا يدرى أين تقوده خطاه ؟ ومر بناصية من الشارع كانت تجلس الفتاة فيها مرتدية صدارتها الزرقاء اللامعة المصنوعة من الأطلس ، وحز فى نفسه أن يسمع الفتيات يتضاحكن وراء ظهره .

وكان كوخ بيليتسكى يطل على الميدان ، وسمع أولينين وهو يمر به صوت بيليتسكى يناديه أن تفضل فدخل .

وتبادل الضيفان بضع كلمات وجلسا بجوار النافذة وسرعان ما لحق بهما يروشكا وقد جاء مرتدياً صدارة جديدة ، واستوى على الأرض بجانبهما .

وقال بيليتسكى مبتسماً وهو يشير بسيجارته إلى جماعة زاهية الألوان فى ناصية الشارع :

– هاك الفتاة الأرستقراطية . وهناك حبيبتى أيضاً ، أتراها ؟ إنها ترتدى رداءً أحمر ، بل صدارة جديدة . ثم صاح وهو يطل من النافذة : « ما بالكن لا تشرعن فى رقصة الخوروفود ؟ » ثم أردف : « انتظر لحظة حتى إذا أسدل الظلام ستاره خرجنا نحن أيضاً ، ثم دعوناهن إلى منزل أوستنكا ، يجب أن نعد لهن حفلة راقصة » .

وقال أولينين فى لهجة حازمة : « ولأذهبن إلى منزل أوستنكا ، ولكن هل تكون ماريانكا هناك ؟ »

وقال بيليتسكى دون أن يبدو عليه شىء من الدهشة : « أجل ، ستكون

هناك ، فتعال » وأردف وهو يشير إلى الجماهير التى اختلط منها الحابل بالنابل : « ولكن أليس هذا المنظر جميلاً ؟ »

وأمن أولينين على كلامه محاولاً أن يظهر بمظهر من لا يعنيه الأمر : « أجل ، غاية فى الجمال » ، ثم أردف : إن الأعياد التى من هذا القبيل تحملنى دائماً على التساؤل : ما بال هؤلاء القوم يهبط عليهم فجأة كل هذا الرضا والسرور ؟ فاليوم مثلاً يكتسى كل شىء بحلة العيد لا لشىء إلا أنه اليوم الخامس عشر من الشهر ، فترى العيون والوجوه والأصوات والحركات والثياب ، بل الشمس والهواء تزهو جميعاً احتفالاً بالعيد ، أما نحن فى روسيا فلم نعد نحتفل بأى عيد ! »

وأجاب بيليتسكى الذى كانت نفسه تعاف مثل هذه الأفكار : « أجل » ثم تحول إلى يروشكا قائلاً : « لم لا تشرب يا صديقى ؟ »

وغمز يروشكا أولينين بعينه مشيراً إلى بيليتسكى ، ثم قال : « آه ! إن صديقك العزيز هذا معتز بنفسه »

ورفع بيليتسكى كأسه ، وقال وهو يأتى عليها : « الله بيردى »و « الله بيردى » معناها « الله أعطى » (وهو النخب الذى ألفه القوقازيون إذا شربوا جماعة) .

وأجاب يروشكا مبتسماً وهو يفرغ كأسه : ساوبول : (أى « فى صحتك ») .

وقال ملتفتاً إلى أولينين وهو ينهض ويطل من النافذة : « أتسمى هذا احتفالاً بالعيد ؟ ترى أى نوع من الأعياد هذا ؟ وددت أن ترى القوم يحتفلون بالعيد فى الأيام الخالية ، لقد جرت عادة النساء فى تلك الأيام أن يخرجن فى ثيابهن المثلثة الموشاة بالذهب يرتدينها فوق صداراتهن ، ويتقلدن فى أعناقهن صفين من النقود الذهبية ، ويضعن على رءوسهن أغطية من قماش ذهبى ، فإذا سرن حفحفت ثيابهن ، وهفهفت هفيفاً يشرح القلب ويسر النفس .

« وكانت كل امرأة منهن تبدو كالأميرة ، وكن يخرجن أحياناً زرافات زرافات . وتنطلق أصواتهن صادحات بالأغانى حتى تتجاوب أجواز الفضاء جميعاً ورنينُ أنغامهن . ويمضين فى اللهو والمرح طول الليل ، ويدحرج القوزاق برميلاً فإذا بلغ الفناء واصلوا الشراب حتى مطلع الفجر ، وكانوا أحياناً يسيرون متشابكى الأذرع ويجولون فى القرية ، ويأخذون معهم كل من صادفهم فى الطريق ، ويتنقلون من منزل إلى منزل ، وفى بعض الأحيان يواصلون مرحهم ولهوهم ثلاثة أيام سويًّا ، ومازلت أذكر أن أبى كان يعود من العيد وقد علا الإحمرار أوصاله جميعاً وانتفخت أوداجه وذهبت القبعة عن رأسه وفقد كل شىء ، فإذا جاوز الباب ودخل الدار ارتمى على فراشه ، وكانت أمى تدرك ما ينبغى عليها أن تفعله : كانت تأتيه بشىء من البطارخ الفاخرة (الكافيار) الطازجة وتسعفه بقليل من الجكير حتى يفيق ، ثم تهرع إلى القرية منقبة فى أرجائها عن قبعته ، ثم ينام بعد ذلك يومين ! لقد كان هذا شأن القوم فى الأيام الخالية فأين هذا من حالهم اليوم ؟

وسأل بيليتسكى : « جميل ، ولكن هل كانت الفتيات اللائى يرتدين الثياب المثلثة يمرحن وحدهن ؟ »

– أين هن من ذلك ؟ لقد كان بعض القوزاق يقبلون راجلين أو ممتطين صهوات جيادهم ويقولون : فلنقطع حلبة الرقص ثم يهموا بأن يفعلوا ولكن الفتيات كن يمسكن لهم الهراوات ، وكان يحدث أن يقبل فى أيام المرافع فتى يسرع إليهن ركضاً فوق صهوة جواده ، فيهوين بهراواتهن على الجواد بل على الفتى نفسه ! ولكنه كان ينجح فى اختراق الحلبة ويأخذ الفتاة التى يحبها ثم يهرب بها ، ولا عليه . . . فقد شغفته حباً ، أجل ، لقد كانت الفتيات فى تلك الأيام كالملكات لا ينقصهن شىء !

الفصل السادس والثلاثون

وفى هذه اللحظة عينها برز شابان يمتطيان صهوة جواديهما إلى الميدان من طريق جانبى ، وكان أحدهما نازاركا والآخر لوكاشكا ، وكان لوكاشكا يستوى مجانباً ظهر جواده « الكاباردى » المربب يخطو بخفة على أديم الطريق الصلد مطوحاً متخطراً برأسه الجميل وعرفه المليح الأملس وقد تبين من البندقية التى أحكم وضعها فى غمدها والغدارة التى علت ظهره والعباءة التى طويت خلف السرج أن لوكاشكا لم يأت من مكان رضى يسوده السلام أو من موضع قريب ، وكان النهج الرشيق الذى استوى به على ظهر الجواد مجانباً والحركة التى يأتيها فى غير ما احتفال ولا مبالاة وهو يلمس الجواد تحت بطنه بسوطه ، وعيناه ، أجل عيناه السوداوان نصف المغمضتين تتألقان بنظرات الزهو والفخار وهو يتلفت من حوله — كل أولئك كان ينم عن إحساسه بقوة الشباب وعزته ، وكأنما كانت هاتان العينان فى تلفتهما تقولان : « أرأيتم قط فتى مثلى ؟ » وكان الجواد الرشيق بزينته وحليته الفضية وسلاحه وذلك القوزاقى الوسيم المليح نفسه يسترعيان الانتباه فى جميع أرجاء الميدان ، وكان نازاركا

نحيلاً قصير القامة أبعد ما يكون عن حسن البزة وجمال اللباس ، ومر لوكاشكا بالشيوخ ، فتوقف ورفع قبعته البيضاء المتلبدة المصنوعة من جلد الغنم عن رأسه الأسود الحليق .

وسألهما رجل نحيل وقد عبس فى وجهيهما : « جميل ! أقد سرقتما من جياد النوغاى كثيراً ؟ »

وأجاب لوكاشكا وهو يوليه ظهره : «أقد أحصيتها يا جدى حتى تسأل ؟» .

وغمغم الشيخ وقد ازداد وجهه تجهماً وعبوساً : « ما أجمل هذا منك ! على أن الأمر لم يكن يقتضيك أن تأخذ هذا الغلام معك » .

ودمدم لوكاشكا بينه وبين نفسه : « استمعوا إلى هذا الشيطان العجوز ! إنه يعرف كل شىء » ، وعلت وجهه مسحة من القلق ، ولكنه لم يلبث أن رأى ناصية وقفت عندها بعض الفتيات القوزاقيات ، فلوى عنان جواده ميمماً نحوهن .

وصاح بصوته المجلجل وهو يكبح جماح جواده فجأة : «طاب مساؤكن يأيتها الفتيات ، لقد تقدمتن فى السن من دونى يأيتها الشمطاوات ! » ، وانفجر ضاحكاً .

وأجابته الأصوات المرحة : « طاب مساؤك يا لوكاشكا ، طاب مساؤك أيها الفتى البشوش » .

– هل جئت معك بالمال الكثير ؟ إذن فاشتر شيئاً من الحلوى للفتيات . . . أو جئت عازمًا أن تطيل بيننا المكوث ؟ لقد انقضى حقًّا وقت طويل مذ رأيناك . . .

وأجاب لوكاشكا وهو يرفع سوطه ويمضى إلى الفتيات لا يلوى على شىء : « لقد جئت أنا ونازاركا لتونا مسرعين لنحتفل بهذه الليلة » .

وقالت أوستنكا وهى تلكز ماريانكا بمرفقها ، وتنطلق فى ضحكة معلعلة : « ويحك ! لقد نسيتك ماريانكا تمام النسيان » .

ونأت ماريانكا عن الجواد ، وألقت برأسها إلى الوراء ، ثم راحت تنظر بهدوء إلى القوازق بعينيها النجلاوين المتألقتين .

ثم قالت فى جفاء : « لقد صدقت حقًّا . فإنا لم نرك منذ وقت طويل ، ما بالك تطؤنا تحت أقدام جوادك ؟ » ، وأشاحت بوجهها عنه .

وبدا لوكاشكا مرحاً عظيم المرح ، وكان وجهه يطفح بالجرأة والسرور ، إلا أنه ما لبث أن قطب حاجبيه فجأة وقد أدهشه ما تجلى فى رد ماريانكا من برود .

ثم هتف على حين غرة وكأنما أراد أن يبدد ما انتابه من أفكار سود : « ضعى قدمك فى ركاب سرجى فألوذ بك إلى الجبال يا صبية » وراح يجوس بين الفتيات ثم انحنى تجاه ماريانكا وهمس : « لأقبلنك ! آه ! لأقبلنك قبلة تروى فؤادى !

وتقابلت نظراتهما ، واحمر وجهها فجأة ونكصت على عقبيها .

وقالت : « ويحك ! لتسحقن قدمى » ونكست رأسها ناظرة إلى قدميها الجميلتين فى جوربها المحكم بلونه الأزرق الباهت المطرز من جانبيه وخفها الأحمر الجديد الموشى بشريط رفيع فى لون الفضة .

والتفت لوكاشكا ناحية أوستنكا ، وجلست ماريانكا بجوار امرأة تحمل طفلاً رضيعاً ، ومد الطفل ذراعيه الصغيرتين الربلتين نحو الفتاة ، وأمسك بعقد النقود الذى تدلى على صدارتها الزرقاء ، وانحنت ماريانكا على الطفل ونظرت إلى لوكاشكا بطرف عينيها ، وكان يخرج من جيب من جيوب صدارته السوداء تحت سترته حزمة من الحلوى واللب .

وقال وهو يناول أوستنكا الحزمة ويبتسم فى وجهماريانكا « هاك فهى لكن جميعاً » .

وظهرت على وجه الفتاة مرة أخرى أمارات الحيرة والارتباك وكأنما قد غشيت عينيها الجميلتين غشاوة ، وأرخت المنديل عن شفتيها ، ثم حنت رأسها على وجه الرضيع الأشقر ، وكان لا يزال متشبثاً بقلادتها المصنوعة من النقود وأخذت تمطره فجأة بوابل من قبلاتها ، ودفع الرضيع بيديه الصغيرتين صدرها الناهد ، وفتح فمه الخالى من الأسنان ، وانطلق يصرخ صرخات عالية .

وقالت أم الرضيع وهى تبعده عنها : « إنك لتخنقينه ! » وفكت صدارتها لتعطيه ثديها ، ثم أردفت : « أولى بك أن تمضى وترحبى بالفتى » .

وقال لوكاشكا وهو يلمس جواده بسوطه ويبتعد به عن الفتيات : « لأذهبن وأضع جوادى فى الحظيرة ، ثم أعود أنا ونازاركا ، فنمرح ونلهو الليل بطوله » وانعطفا فى طريق جانبى ، وقصدا بيتين متجاورين .

وقال لوكاشكا لزميله وهو يترجل أمام بيت منهما : « ها نحن أولاء قد وصلنا بخير يا صديقى العزيز ، فهلم وعجل بالحضور » ، ثم قاد جواده بعناية إلى باب منزله .

وقال لأخته البكماء ، « مرحى يا ستبكا ! » وأقبلت أخته من الشارع لتأخذ جواده ، وكانت متأنقة كالفتيات الأخريات ، وأفهمها بالإشارات أن تأخذ الجواد فتعلفه دون أن تخلع عنه سرجه .

وراحت الفتاة البكماء تهضب وترطن رطانتها المعهودة ، وهمهمت بشفتيها مشيرة إلى الجواد ، ثم طبعت قبلة على أنفه ، وكان معنى هذا فى لغتها أنها تحبه وأنه جواد أصيل .

وصاح لوكاشكا وهو يرقى درج المدخل ، ويضع يده على بندقيته يثبتها فى مكانها : « كيف حالك يا أماه ؟ وما بالك لم تخرجى بعد ؟ » .

وفتحت أمه العجوز الباب وقالت : « يا إلهى ! لم أتوقع قط ، بل لم يدر ببالى أنك سوف تأتى ! عجباً لقد زعم كبركا أنك لن تحضر » .

– اذهبى وأتينا بشىء من الجكير يا أماه ، فإن نازاركا قادم إلينا ، وسنحتفل بيوم العيد .

وقالت العجوز : « حالاً يالوكاشكا ، حالاً . إن نساءنا يمرحن ويلهون ، وإنى لأحسب أن ابنتنا البكماء قد خرجت هى أيضاً تلهو وتمرح » .

وتناولت مفاتيحها ، وهرعت إلى الكوخ الخارجى . وربط نازاركا جواده فى الحظيرة وخلع بندقيته عن كتفه ، ثم عاد إلى منزل لوكاشكا ودخله .

الفصل السابع والثلاثون

وأخذ من يد أمه كأساً امتلأت بالجكير ، ثم رفعها بعناية حتى بلغت رأسه الحانى هاتفاً : « فى صحتك »

وقال نازاركا : « إن الأمر لخطير ، ألم تسمع ما قاله العم بورلاك ؟ هل سرقنا من الجياد الكثير؟ . والظاهر أنه يعرف الحقيقة »

وأجاب لوكاشكا فى اقتضاب : « ياله من دجال عجوز ! » ثم أردف وهو يطوح رأسه : « وماذا علينا إذا كنا قد فعلنا هذا ؟ لا شك أن الجياد قد اجتازت النهر الآن فاذهب وابحث عنها » .

– ومع ذلك فهى علامة تنذر بشر .

– أىّ علامة هذه ؟ اذهب وقدم له شيئاً من الجكير غداً فلا ينالك أى شر ، والآن إلى اللهو والمرح » ثم صاح به لوكاشكا : « اشرب » مصطنعاً اللهجة التى كان ينطق بها يروشكا العجوز هذه الكلمة ، ثم مضى يقول : « لنخرجن إلى الشارع ولْنَلْهُ مع الفتيات ، اذهب وأتنا بشىء من الشهد ، بل خل عنك .

سأبعث بأخي البكاء ولنأخذ في اللهو حتى الصباح »

وكان نازاركا يبتسم ثم سأله : « أونبقى هنا طويلا ؟ »

– حتى نصيب من اللهو والمرح ما نصيب ، أسرع وائتنا بقليل من الفودكا وإليك النقود .

وأطاع نازاركا الأمر ، وهرول ساعياً في طلب الفودكا من بيت يامكا .

واشتم العم يروشكا وبرجوشوف رائحة القصف والمرح ، كأنهما الطير الجوارح وسقطا على البيوت بيتاً بيتاً وقد استخفها الشراب .

وأجاب لوكاشكا على تحيتهما بأن صاح بأمه قائلاً : « ائتينا بنصف سطل آخر » .

وهتف يروشكا : « هلا أنبأتني : كيف سرقت الجياد أيها الشيطان ؟ إنك لفتى ولا كالفتيان وأنا مشغوف بك » .

وأجاب لوكاشكا وهو يضحك : « مشغوف حقاً . . . وآية ذلك أنك تحمل الحلوى من طلبة الحربية إلى الفتيات ، فما قولك أيها العجوز . . . ؟ »

– ليس هذا صحيحاً ، ليس صحيحاً . . . آه يا ماركا » وانفجر الشيخ ضاحكاً وهو يقول : « لشد ما توسل إلى ذلك الشيطان وقال : اذهب ودبر الأمر لي معها ! ثم عرض على بندقية ولكن كلا ، لقد كنت خليقاً أن أدبر الأمر لو لم يكن شعوري معك فهلا أنبأتني أين كنت ؟ » وانطلق الشيخ متحدثاً بالتترية .

وكان لوكاشكا يجيبه بسرعة .

وكان برجوشوف الذي لا يعرف من التترية إلا القليل يقاطعهما من حين إلى حين بعبارة روسية .

وأمن على كلام لوكاشكا مرة بقوله : « إن ما أود أن أقوله هو أنه ساق الجياد بعيداً ، وهذا هو القول الصحيح » .

« ومضيت أنا وكراى معاً (وكان ذكره اسم كراى خان مجرداً عن لقبه دليلاً على جرأته فى نظر القوزاق) ، ولبث الرجل وراء النهر تماماً يفاخر بأنه يعرف السهب كله ، وأنه سيرشدنى إلى مقصدى مباشرة ، ولكننا واصلنا السير ممتطين صهوة جوادينا وكانت الليلة مظلمة ، فضل صديقى كراى الطريق ، وراح يهيم على وجهه فى دائرة دون أن يهتدى إلى المكان ، أجل لم يستطع أن يبلغ القرية وسقط فى أيدينا ، ولاشك أننا قد انحرفنا إلى اليمين كثيراً وظللنا نجوس هنا وهناك حتى كاد الليل ينتصف ، ثم حمدنا الله إذ سمعنا نباح الكلاب .

واندفع العم يروشكا قائلاً : « يالكم من حمقى ! لقد كنا نحن أيضاً نضل الطريق فى السهب ، ومن ذا الذى لا يضل فيه ؟ ولكننى كنت أدفع جوادى إلى قمة أكمة وأروح أعوى وأعوى عواء الذئب المنفرد ، هكذا » ووضع يديه على فمه وعوى عواء قطيع من الذئاب تنطلق فى صوت واحد ، « فتجيب الكلاب فى الحال « . . . لا بأس عليك امض فى حديثك ، إذن فقد وجدتموها » ؟

– وسرعان ما استولينا عليها وأوشك نازاركا أن يقع فى يد بعض النساء من النوغاى .

وقال نازاركا وكان قد عاد لتوه ، فى لهجة تنم عن الألم : « أحقاً ما تقول . . ؟ »

وعدنا أدراجنا ولكن كراى ضل الطريق مرة أخرى وكاد يطوح بنا بين الكثبان الرملية فقد ظننا أننا نسير صوب نهر ترك فإذا بنا ننأى عنه طول الوقت .

وقال العم يروشكا : « كان ينبغى لكم أن تهتدوا بالكواكب »

وتدخل يرجوشوف فى الحديث قائلاً : « لقد كان هذا هو رأيى »

– أجل نهتدى بالكواكب والظلام حالك ، لقد حاولت ثم حاولت أن ألتمس

الطريق ووضعت آخر الأمر الشكيمة على فرس من الأفراس ، وتركت جوادى يسير طليقاً ظنًّا منى أنه سيسير بنا فى الطريق الصحيح ، فماذا ترى ؟ لقد نخر الجواد مرة أو مرتين وأنفه إلى الأرض ، ثم مضى قدماً ، وقادنا إلى قريتنا مباشرة ، وكان ذلك من حسن التوفيق ، ذلك أن ضوء النهار كان قد أخذ ينبلج ، وأوشك الوقت ألا يتسع أمامنا لإخفائها فى الغابة ، ثم أقبل نجيم مجتازاً النهر وساق الجياد » .

وهز يرجوشوف رأسه قائلاً : « وهذا هو ما قلته بلا خوف ، يا لك من فتى بارع ! وهل بعتها بثمن باهظ ؟ » .

وقال لوكاشكا وهو يضرب على جيبه : « الثمن كله هنا » .

ودخلت أمه الغرفة فى هذه اللحظة فأمسك ، ولم يتم قصته .

وصاح قائلاً : اشربوا . .

وأنشأ يروشكا يقول : « أجل ، لقد خرجت أنا وجيرشيك على ظهر جوادينا فى ليلة من الليالى فى ساعة متأخرة . . . »

وقال لوكاشكا : « ويحك ! إننا لن نفرغ من حكاياتك ! إنى لذاهب » ، وأتى على كأسه ثم شد حزامه وخرج .

الفصل الثامن والثلاثون

كان الظلام قد حل عندما خرج لوكاشكا إلى الشارع وكانت تلك الليلة من ليالى الخريف هادئة ساكنة طلقة الهواء عذبة الأنفاس ، وكان البدر الذهبى فى كماله يعتلى قبة السماء من خلف شجر الحور الطويل القائم النامى على جانب من جوانب الميدان ، وارتفع الدخان من مداخن الأكواخ الصغيرة الملحقة بالدور ، وانتشر مختلطاً بالضباب ، وانبعثت الأنوار هنا وهناك لتضىء من خلال النوافذ ، وسرت فى الجو رائحة الكرياك ولب العنب والضباب ، واختلطت الأصوات بالضحكات والأغانى وقضقضة اللب كما كانت تختلط الظلمة ببياض النهار سواء بسواء ، إلا أنها كانت هذه المرة أكثر جلاء وأشد وضوحاً ، وكانت المناديل والقبعات البيضاء تلمع كعناقيد النجوم فى الظلام المخيم حول المنازل .

وكنت تلمح فى الميدان أمام باب الحانوت المضىء المفتوح أشباح الرجال والفتيات من القوزاق تتجلى فى سوادها وبياضها من خلال الظلمة ، وتسمع عن بعد أصواتهم العالية ترتفع بالأغانى والضحك والحديث ، وكانت الفتيات يدرن

ويدرن متشابكات الأيدى فى دائرة يتخطرن بخفة فى الميدان الحافل بالغبار ، وكانت تضبط لهن اللحن فتاة نحيلة هى أقلهن جميعا حظًّا من الجمال :

من وراء الغابة ومن ظلامها الساجى ،
ومن خضرة الحديقة اليانعة والمرج الظليل .
أقبل شابان فتيان يملأ أعطافهما المرح ،
شابان باسلان رشيقان خليان ،
وراحا يسيران ويسيران ، ثم وقفا ساكنين لا يريمان ،
وظلا على هذه الحال لحظة ، وسرعان ماشجر بينهما الخلاف ،
ثم برزت إليهما غادة وهتفت
وهى مقبلة عليهما « لن ألبث حتى أكون مِلكاً لأحدكما » ،
وفاز بالغادة الجميلة الشاب المليح ،
أجل فاز بها الشاب المليح الذهبى الشعر ،
وأخذ يدها الناصعة البياض فى يده ،
ومضى معجباً إلى خلانه .
وقال : « من منكم صادف فى حياته
غادة فى جمال زوجتى الصغيرة ؟ »

وكانت النساء العجائز واقفات حول الفتيات ينصتن إلى الأغانى وأخذ صغار الصبية والبنات يركضون هنا وهناك ، يطارد بعضهم بعضاً فى الظلام ، ووقف الرجال يمسكون بالفتيات فى دورانهن ، وكانوا فى بعض الأحيان يقتحمون عليهن الحلقة ، ووقف بيليتسكى وأولينين فى الجانب المظلم من مدخل الباب ، يرتديان سترتيهما الجركسيتين وقبعتيهما المصنوعتين من وبر الغنم ، ويتحدثان فى صوت

خفيض واضح النبرات على نحو يخالف طريقة القوزاق فى الحديث ، وقد أحسا بأنهما كانا فى وقفتهما هذه يسترعيان إليهما الأنظار .

وكانت أوستنكا الصغيرة المسربلة فى صدارتها الحمراء تدور فى الحلقة وقد وضعت يدها فى يد ماريانكا التى كانت ترتدى صدارة وقيصاً جديدين يحف بها الجلال والبهاء ، وكان أولينين وبيليتسكى يلتمسان الوسيلة إلى خطف أوستنكا وماريانكا من الحلقة ، وظن بيليتسكى أن أولينين لم يكن يروم إلى اللهو والمرح فى حين أنه كان ينتظر البت فى مصيره ، أجل كان يريد أن يلقى ماريانكا على انفراد فى ذلك اليوم نفسه مهما كلفه الأمر ، ليسألها : هل تستطيع أن تكون له زوجة وترضى نفسها بذلك ؟ وعلى الرغم من أن الفتاة كانت قد أجابت على هذا السؤال بالنفى منذ وقت طويل فإنه كان لا يزال يأمل أن تتاح له فرصة الإفصاح لها عما يكنه لها قلبه من حب لعلها تفهمه .

وقال بيليتسكى : « ولم لم تخبرنى بذلك من قبل ؟ لو كنت فعلت لأغريت أوستنكا بأن تدبر لك الأمر ، يالك من فتى غريب الأطوار . . . !

– وماذا عساها أن تفعل ؟ لسوف أنبئك بذلك كله فى يوم قريب ، أما الآن فإنى أستحلفك بالله أن تدبر الأمر بحيث تأتى ماريانكا إلى منزل أوستنكا .

– لا بأس ، فإن هذا مما يسهل تدبيره . ورأى بيليتسكى أن واجب اللياقة يقتضيه أن يتحدث إلى ماريانكا أولاً ، فقال لها : « إيه يا ماريانكا ! أو تكونين من نصيب « الفتى المليح » وتصدفين عن لوكاشكا ؟ ولم يتلق من الفتاة جواباً ، فتوجه الى أوستنكا وتوسل إليها أن تأتى إلى دارها بماريانكا ، وما كاد يتم حديثه حتى شرعت الفتاة المرشدة فى إنشاد أغنية أخرى ، وانطلقت الفتيات يدرن فى الدائرة وكل منهن تجذب الأخرى ، ورحن ينشدن الأنشودة التالية :

مر بالحديقة .
شاب من الفتيان
وراح يضرب فى الشارع مخترقاً المدينة .
وفى المرة الأولى لوح بيده اليمنى القوية .
وفى المرة الثانية لوح بقبعته الموشاة بشريط من الحرير
وفى المرة الثالثة وقف ساكناً لايريم ،
ولايبرح ، ولكنه أبدى من ملاحته ما أبدى .
« تمنيت أن آتى إليك
وليس ما بى إلا رغبة فى التحدث معك لحظة
ما بالك لا تأتين يا عزيزتى ؛
للنزهة فى الحديقة ؟
هلمى أجيبينى يا عزيزتى .
أو تحتقرينى ؟
لسوف تعلمين من بعد يا عزيزتى
وتذكرين ثم تندمين
وسآتى فى القريب لأطلب يدك
حتى إذا تزوجنا
بكيت بسببى »
وقد كنت أعرف بماذا أجيبه ؟
إلا أننى لم أجرؤ على رفض طلبه
أجل ، لم أجرؤ على رفض طلبه

ومضيت إلى الحديقة أتنزه
وألقى حبيبى فيها
وهناك حييت حبيبى
وما إن انحنيت أحييه
حتى سقط منديلى على الأرض
فالتقطه حيث سقط
« أرجوك أن تأخذيه فى يدك البيضاء
أرجوك أن تقبليه يا عزيزتى منى
قولى إنك تحبيننى ،
عجبى ، ماذا أهدى إليك يا حبيبتى ؟
أخشى أن أضل فلا أعرف هدية أهديها إليك !
وإنى لأحسب أننى سأهدى
إلى حبيبتى وشاحاً
فتجزينى عليه بخمس قبلات »

واقتحم لوكاشكا ونازاركا الحلقة ، وشرعا يجولان بين الفتيات ، واشترك لوكاشكا فى الغناء يردد قرار النغم فى صوته الجلى الواضح وهو يسير وسط الحلقة مطوحاً ذراعيه

وقال : « لتدخل إحداكن فى الحلقة » ، ودفعت الفتيات الأخريات ماريانكا ولكنها أبت أن تدخل الحلقة واختلطت بالغناء أصوات ضحكات مجلجلة وصفعات وقبلات وهمسات ، ومر لوكاشكا بأولينين فأومأ له إيماءة تنم عن المودة والصداقة .

وقال : « ديمترى أندريفتش : هل جئت لمشاهدة الرقص ؟ »

فأجاب أولينين فى جفاء : « أجل »

وانحنى بيليتسكى وأسر بشىء إلى أوستنكا ، ولم يتسع وقتها للإجابة حتى دارت الدائرة فقالت : « لا بأس لنأتين » .

وماريانكا أيضاً .

وانحنى أولينين تجاه ماريانكا وقال : « أوتأتين ؟ أرجوك أن تأتى ولو لحظة واحدة ، إذ لا مناص لى من التحدث إليك » .

– سآتى إذا أتت الفتيات الأخريات .

وقال وهو يميل ناحيتها : « هل لك أن تجيبى عن سؤالى وأنت فى مرحك الآن ؟ »

فنأت عنه فتبعها وكرر قوله : « هل لك أن تجيبى عن سؤالى ؟ »

– أى سؤال ؟

وقال أولينين وهو ينحنى ليسر إليها بما يريد : « السؤال الذى وجهته إليك منذ أيام ، هلا تزوجتنى ! »

وفكرت ماريانكا لحظة ثم قالت : « سأنبئك بالجواب الليلة »

ورنت إلى الشاب بنظرات مشرقة حانية تألقت فى الظلام

وظل أولينين يتبعها ، فقد كان يسعده قربها ، إلا أن لوكاشكا أمسك يدها بقوة فجأة مواصلاً الغناء ، وجذبها من مكانها فى حلقة الفتيات إلى الوسط ، فلم يسع أولينين إلا أن يقول لها : « تعالى إلى منزل أوستنكا » ، ثم عاد إلى صاحبه ، وانتهت الأغنية ، ومسح لوكاشكا شفتيه ، وحذت ماريانكا حذوه ، وقبل كل منهما الآخر .

وقال لوكاشكا : « كلا ، كلا ؛ فلا يرضينى أقل من خمس قبلات ! » وغاب

وقع الأنغام والرقص وحل محله الحديث والضحك والجرى هنا وهناك ، وأخذ لوكاشكا الذى بدا ثملاً من كثرة الشراب يوزع الحلوى على الفتيات ، وقال فى لهجة تنم عن الزهو والإعجاب بالنفس إعجاباً يفيض بالتأثر إلى حد يثير الضحك : « هذه الحلوى لكل واحدة منكن » ، إلا أنه أردف فجأة وهو ينظر إلى أولينين نظرة الغضب : «ولتخرج من الحلقة كل من تتهالك على الجنود !» .

واختطفت الفتيات الحلوى من يده ، وأخذن يتقاتلن عليها متضاحكات ، وتنحى بيليتسكى وأولينين .

وخلع لوكاشكا قبعته كأنما خجل لما أبداه من كرم ، وجفف جبينه بكمه ، ثم قصد إلى ماريانكا وأوستنكا وقال مردداً كلمات الأغنية التى كانت الفتيات قد فرغن منها لتوهن : « أجيبينى يا حبيبتى أو تحتقريننى ؟ » ، ثم التفت إلى ماريانكا وأعاد على مسامعها غاضباً : «أو تحتقريننى؟ ثم أردف» : فإذا تزوجنا بكيت بسببى . وطوق بذراعيه أوستنكا وماريانكا جميعاً ، ولكن أوستنكا تخلصت منه وطوحت ذراعها ، ثم ضربته على ظهره ضربة قوية تألمت منها يدها .

ثم سألها : « لا بأس عليك هلا رقصت مرة أخرى ! »

فأجابت أوستنكا : « فلترقص الفتيات الأخريات إن شئن ، أما أنا فسأعود إلى المنزل ، وكان فى نية ماريانكا أن تعود معى أيضاً »

وابتعد لوكاشكا بماريانكا عن زحمة الناس ، وهو لا يزال يطوقها بذراعه ، ثم قادها إلى ركن منزل أشد ظلمة من سائر أركانه .

وقال : « لاتذهبى معها يا ماريانكا ، ولنأخذ أنفسنا بشىء من المرح للمرة الأخيرة ، إلى منزلك ، سألحق بك ! »

وأجابت ماريانكا : « وماذا عساى أن أفعل فى المنزل ؟ لقد خلقت الأعياد للهو وأنا ذاهبة إلى منزل أوستنكا » .

– لأتزوجنك مهما يكن الأمر ، ألا تعلمين هذا ؟

فقالت ماريانكا : « حسن ، وسنرى عندما يأتى الأوان »

وقال لها لوكاشكا فى جد وصرامة : « إذن فأنت ذاهبة » ، وضمها إلى صدره ثم طبع قبلة على خدها

– ويحك دعنى وشأنى ! وكف عن مضايقتى » ، وأفلتت ماريانكا من ذراعيه وابتعدت عنه .

وقال لها لوكاشكا يلومها : « أواه يا فتاتى ! لسوف ينتهى ذلك بشر » ، ووقف ساكناً يهز رأسه ، ويقول : « ستبكين بسببى » وأولاها ظهره ، ونادى الفتيات الأخريات «والآن ! فلننشد أنشودة أخرى ! »

ويبدو أن ما قاله قد روع ماريانكا وأثار غضبها ، فوقفت ساكنة .

« وماذلك الذى سينتهى بشر؟ »

– ذلك ؟

– أى شىء ذلك !

– صحبتك لجندى ينزل عندكم وانصرافك عن الاهتمام بأمرى !

– سأهتم بقدر ما أحب ! فإنك لست بأبى ولا بأمى ، ماذا تريد منى ؟ سأهتم بأمر من أشاء !

وقال لوكاشكا : « لا بأس . . ! ولكن اذكرى ! » ، ثم يمم صوب الحانوت ، وصاح : « أيتها الفتيات ماذا دهاكن ؟ واصلن الرقص وزدنا من الجكير ياناززاركا »

وسأل أولينين موجهاً الحديث إلى بيليتسكى « ترى أتأتيان ؟ »

فأجاب بيليتسكى : « ستأتيان لاتلويان على شيء ، تعال معى فقد وجب أن نعد العدة لحفلة الرقص » .

الفصل التاسع والثلاثون

وكان قد مضى الهزيع الأكبر من الليل عندما خرج أولينين فى أثر ماريكانا وأوستنكا ، ورأى فى الشارع المظلم من أمامه منديل الفتاة الأبيض يومض فى الليل البهيم ، وأخذ قرص القمر الذهبي يغيب فى اتجاه السهب ، وخيم على القرية ضباب فى لون الفضة وخمد الضوء فى كل مكان ، وخيم الهدوء إلا من وقع أقدام الفتيات وهن عائدات إلى منازلهن ، وأخذ قلب أولينين ينبض سريعاً ، ولطف هواء الليل الرطيب من حرارة وجهه المتقد ، وتطلع الفتى إلى السماء ثم تحول ببصره إلى المنزل الذى غادره وشيكاً ، وكانت الشموع قد أطفئت ثم عاد يخترق حجب الظلام باحثاً عن طيفى الفتاتين العائدتين إلى دارهما ، واحتجب المنديل الأبيض فى غمرة الضباب ، وخشى أولينين أن يظل وحيداً ، وأحس بقلبه يفيض بالسعادة ، فهبط درج المدخل قفزاً وأسرع الخطا خلف الفتاتين .

وقالت أوستنكا « ويحك ! قد يرانا أحد . . . »

— لا عليك !

وهرع أولينين إلى ماريانكا وقبلها ، ولم تقاومه الفتاة .

وقالت أوستنكا : « ألم تشبع من تقبيلها ؟ تزوجها ثم قبلها ، أما الآن فيجمل بك الانتظار »

– طابت ليلتك ياماريانكا ، سآتى غداً لألقى أباك وأنبئه بالأمر فلا تبوحى لأحد بشىء .

وأجابت ماريانكا : « ولماذا أبوح ؟ »

وأخذت الفتاتان تركضان ، وسار أولينين وحده يفكر فى كل ما حدث ، وكان قد قضى المساء كله معها فى ركن بجانب الموقد ، ولم تترك أوستنكا الكوخ لحظة واحدة . ولكنها كانت تلهو مع الفتيات الأخريات ومع بيليتسكى طول الوقت ، وكان أولينين يحدث ماريانكا همساً

وسألها : « هلا تزوجتنى ! »

فأجابت فى مرح وهدوء : « لتخدعنى ثم لا تتزوجنى ! »

– ولكن أو تحبيننى ؟ بالله عليك أفصحى !

– وأجابت ماريانكا وهى تضحك وتعصر يديه بيديها الصلبتين : ولم لا أحبك ؟ إنك لست بأحول ! ألا ما أجمل يديك الناعمتين الناصعتى البياض !

ثم أردفت : إنهما كالقشدة !

– إنى لجاد فى قولى فخبرينى أو تقبلين أن تتزوجينى ؟

– وما الذى يمنعنى إذا رضى أبى أن يزوجنى إياك .

– جميل إذن ، اذكرى أنك إذا خدعتنى جن جنونى ، سأنبئ غداً أباك وأمك وآتى لأخطبك .

وانفجرت ماريانكا بالضحك فجأة .

– ما بالك ؟

– يبدو لى الأمر مضحكاً جداً !

– صدقت ! وسأشترى كرمة ومنزلاً وأسجل اسمى فى زمرة القوزاق

– حذار إذن من أن تلاحق النساء الأخريات . فإنى صارمة لا أتهاون فى ذلك !

وردد أولينين هذه الكلمات بينه وبين نفسه وهو يشعر بوقعها العذب فى قلبه ، وكانت ذكرى هذه الكلمات تؤلمه حيناً وتغمره بالفرح حيناً آخر حتى تضيق بها أنفاسه :

أما الألم فبعثه أنها ظلت على هدوئها المعهود وهى تتحدث إليه ولم يتملكها شىء من الاضطراب لهذه الظروف الجديدة التى طرأت عليها حتى لكأنها لا تثق فيه ولا تفكر فى المستقبل ، وبدا له أن حبها كان وليد اللحظة التى هى فيها وأنها تهيئ عقلها لمستقبل تعيش فيه معه .

وأما الفرح فرجعه أنه لمس فى كلماتها الصدق وتجلت موافقتها على الزواج منه .

وحدث نفسه قائلاً : « أجل ، لن يفهم كل منا الآخر إلا إذا أصبحت لى قلباً وقالباً ، أما الكلمات فإنها تعجز عن وصف هذا الحب ، فهو يقتضى من المرء حياته ، بل حياته بأسرها ، وسيتكشف لى كل شىء غداً ، فما عدت أستطيع العيش على هذا النحو بعد ، وسأقول كل شىء فى الغد لأبيها ولبيليتسكى ولأهل القرية جميعاً .

وكان لوكاشكا قد أفرط فى الشراب فى العيد ، بعد أن قضى ليلتين أرقاً مسهد الجفون ، حتى إن ساقيه عجزتا عن حمله للمرة الأولى فى حياته فنام فى منزل يامكا .

الفصل الأربعون

وفى صبيحة اليوم التالى استيقظ أولينين من نومه مبكراً عن المعهود ، وتذكر لتوه ما ينبغى أن يقوم به من أمور ، وطرب أيما طرب إذ استعاد ما مر به من قبلاتها وكلماتها : ألا ما أجمل يديك الناصعتى البياض ! »

ونهض من فراشه وتمنى لو ذهب فى الحال إلى كوخ مضيفيه يسألها الموافقة على زواجه بماريانكا ، ولم تكن الشمس قد بزغت بعد إلا أن الشارع كان قد حفل بالهرج والمرج على غير العادة ، وكان الناس يروحون ويجيئون راجلين أو ممتطين صهوة جيادهم ولا يكفون عن الحديث ، وألقى أولينين على كتفيه سترته الجركسية ، وهرع إلى مدخل البيت ، ولم يكن مضيفوه قد استيقظوا بعد ، ومر به خمسة من القوزاق على ظهور جيادهم يتحدثون بأصوات عالية ، وكان لوكاشكا فى طليعتهم يمتطى جواده الكاباردى العريض الظهر ، وكان القوزاق يتحدثون ويصيحون فى نفس واحد ، حتى كان من المتعذر أن يتبين المرء ما يقولون فى وضوح وجلاء .

وصاح أحدهم : «اتجهوا إلى نقطة الحراسة العليا» .

وقال ثان : «أسرجوا جيادكم والحقوا بنا بسرعة !»

وصاح لوكاشكا : «ما هذا الذى تقولون ؟ يجب أن نمر من الباب الأوسط بطبيعة الحال».

وقال رجل من القوزاق وقد علاه الغبار وتصبب جواده عرقاً «أجل إنه أقرب إذا سرنا فى هذا الاتجاه».

وكان وجه لوكاشكا أحمر متضخاً لإفراطه فى الشراب ليلة الأمس وقد دفع بقبعته إلى مؤخر رأسه ، وطفق يتكلم بلهجة الآمر الناهى كأنما كان ضابطاً.

وسأل أولينين وقد وجد صعوبة فى استرعاء أنظار القوزاق إليه : «ما بالكم ؟ وإلى أين أنتم ذاهبون ؟»

- إننا فى طريقنا للقبض على بعض الأبركة ، وهم يختفون بين الكثبان الرملية ، لقد خرجنا لتونا ، ولكن عددنا لم يبلغ بعد الكفاية . ومضى القوزاق فى صياحهم وأخذ عددهم يزداد ثم يزداد وهم يجتازون الشارع ، وخيل إلى أولينين أن التخلف عنهم لا يليق به ، ثم دار فى خلده أنه يستطيع العودة بعد فترة وجيزة ، فارتدى ملابسه وحشا بندقيته وقفز على ظهر جواده ، وكان فانيوشا قد أسرجه على نحو لا بأس به ، ولحق بالقوزاق عند أبواب القرية وكانوا قد ترجلوا عن جيادهم وملئوا طاساً خشبية بالجكير من برميل صغير كانوا قد جاءوا به معهم ، ووراحوا يديرون الطاس فيما بينهم وشربوا نخب حملتهم ، وكان بينهم حامل علم متحذلق شاب تصادف وجوده بالقرية ، فتولى قيادة هذه السرية من القوزاق التى يبلغ عددها تسعة أشخاص ، وكانوا جميعاً سواسية أنفاراً لا يحمل واحد منهم أية رتبة ، واتخذ حامل العلم صفة القائد ، إلا أن القوزاق لم يطيعوا إلا لوكاشكا .

ولم يلق الجنود بالاً إلى أولينين أو يحفلوا به قط ، بل ركبوا جيادهم وبدءوا فى

المسير ، وامتطى أولينين صهوة جواده ، واتجه إلى حامل العلم وأخذ يسأله جلية الأمر ، وكان حامل العلم رجلاً ودوداً بطبعه ، فأخذ يعامل أولينين فى تلطف ظاهر ، ووقف أولينين منه على جلية الخبر بعد أن عانى فى سبيل ذلك مشقة عظيمة ، فقد كان الكشافة قد أوفدوا للبحث عن الأبركة ، فوقعوا على بعض أهل الجبال على مسيرة ستة أميال أو نحوها من القرية ، وعمد الأبركة إلى الاختفاء فى حفرة ، وأخذوا يطلقون النار على الكشافة معلنين أنهم لن يستسلموا ، وكان الأومباشى الذى خرج مكتشفاً صحبة رجلين من القوزاق — قد بقى لمراقبة الأبركة ، وبعث برجل من القوزاق ليأتى بنجدة .

وكانت الشمس تؤذن بالشروق فى تلك اللحظة وامتد السهب ثلاثة فيرستات فى كل اتجاه وراء القرية ، فلا ترى إلا سهلاً ممحلاً تمله الأنظار قد غطته آثار أقدام الماشية ، وانتشرت فيه لمم من الكلأ الذاوى ، وأعواد من القصب القصير فى بسائطه ، ودروب غير مطروقة إلا قليلاً ، ومضارب قبيلة النوغاى تبدو فى الأفق باهتة المعالم ، وكان هذا المكان يمتاز بعدم الظل فيه ومظهره الكالح ، وكانت الشمس تشرق وتغرب دائماً متوهجة فى السهب ، فإذا هدأت — كما كان حالها فى ذلك الصباح — بدا السكـــون لا يقطعه حركة ولا صوت شاملاً يسترعى النظر بوجه خاص ، وقد طلع ذلك الصباح على السهب هادئاً كئيباً ، وإن كانت الشمس قد اعتلت السماء ، وكان يغشى النفوس شعور عجيب بصفاء الجو ولطفه .

أجل كان كل شىء ساكناً لا يتحرك ، وإنما كان وقع حوافر الجياد ونخيرها هى الأصوات (الوحيدة) التى تطرق الأذن ، وكانت هذه الأصوات أيضاً لا تلبث أن تخفت ، ومضى الرجال فى صمت لا يتحدثون إلا لماماً ، والقوزاق يحمل أسلحته

دائماً فلا تصدر منها جلجلة ولا قعقعة ، ذلك أن جلجلة السلاح عار عظيم عند القوزاق ، ولحق قوزاقيان آخران بالسرية ، وبادلا رجالها بضع كلمات ، وكان جواد لوكاشكا يتعثر أو تعلق ساقه ببعض العشب فيحرن ، وذلك نذير شؤم عند القوزاق له شأن خاص فى مثل هذا الوقت ، وكان الآخرون يلتفتون إليه ثم يشيحون عنه ، وهم يحاولون ألا يلقوا بالاً إلى ما حدث ، وكان لوكاشكا يجذب عنان جواده بقوة ، ويقطب حاجبيه تقطيباً شديداً ، ويجز على أسنانه ويلوح بسوطه فوق رأسه ، وكان جواده الكاباردى الأصيل يتوثب ويقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، لا يدرى بأيهما يبدأ وقد بدا كأنه يهم بأن ينشر جناحيه ويطير ، ولكن لوكاشكا كان يضربه على خاصرتيه الناعمتين بسوطه مرة ، ثم ثانية ، ثم ثالثة ، فيكشر الجواد عن أنيابه . وينشر ذيله وينخر ، ثم ينكص على قائمتيه الخلفيتين مبتعداً عن سائر الجياد بضع خطوات ، وقال حامل العلم : « ياله من كميت ! » وكان نعته الجواد بالكميت من قبيل التنويه بأصالته وعراقة أصله .

وأمن شيخ من القوزاق على كلامه بقوله : « إنه كالأسد فى ثياب جواد ! »

ومضى القوزاق قدماً وجيادهم تتخطر حيناً وتسير حيناً آخر ، وكان ذلك التقلب منهم هو الحادث الوحيد الذى يقطع لحظة سكونهم الشامل وجلال حركاتهم .

وقطع القوزاق فى السهب ثمانية فيرستات أو نحوها ، ولم يمروا إلا بخيمة واحدة من خيام النوغاى أقاموها على عربة ، وراحوا يسيرون ببطء على مسافة فيرست منهم تقريباً : ذلك أن أسرة من النوغاى كانت تنتقل من مكان فى السهب إلى مكان آخر ، وصادف القوزاق من بعد امرأتين من النوغاى رثتى الثياب برزت عظام

وجناتهما ، وكانتا تحملان على ظهريهما سلتين تجمعان فيهما الروث المتخلف من الماشية الهائمة فى السهب ، ولم يك حامل العلم يعرف لغتهما جيداً ، وحاول أن يسألها ، ولكنهما لم تفهما ما يقول ، وكان من الواضح أن الرعب قد دب فى قلبيهما ، فأخذت كل منهما تنظر إلى الأخرى فى قلق واضطراب .

ومضى لوكاشكا إليهما وأوقف جواده ، ثم بادر فأقرأهما السلام ، وبدا للعيان أنه قد سرى عنهما فأخذتا تتحدثان إليه فى حرية واطمئنان حديث الأخت لأخيها .

وقالت المرأتان فى حزن : «آى–آى كوب أبرك ؟» ، مشيرتين إلى «الجهة التى كان القوزاق يقصدون إليها» ، وأدرك أولينين أنهما تقولان «جمع كبير من الأبركة» .

ولم يك أولينين قد رأى من قبل اشتباكاً من هذا القبيل ، وإنما كان يلم به إلماماً بفضل الحكايات التى كان يقصها عليه العم يروشكا ، وأراد ألا يسبقه القوزاق فى هذا الشأن ، وحرص على أن يشاهد كل شىء بنفسه ، وكان ينظر إلى القوزاق نظرة ملؤها الإعجاب ويرقب الأمور فى يقظة ويرهف سمعه حتى يخرج من ذلك بملاحظاته الخاصة ، وكان الفتى قد حمل سيفه وجاء ببندقيته بعد أن حشاها بالبارود ، فلما أدرك أن القوزاق يتجنبونه صح عزمه على ألا يشترك فى القتال ، وذلك أن شجاعته كانت امتحنت امتحاناً كافياً عندما كان مع فصيلته ، ثم إن قلبه كان إلى ذلك يفيض بالبشر والسعادة ، وطرق الآذان فجأة صوتُ طلقة انبعثت من بعيد ، وتملك الاضطراب حامل العلم ، فأخذ يصدر الأوامر إلى القوزاق بما يجب عليهم من تقسيم أنفسهم ، ويبين لهم الجهة التى يهاجمون منها العدو ، فلم يبد على القوزاق أنهم يأبهون بأوامره ، وإنما كانوا ينصتون للوكاشكا وحده ، ولا ينظرون إلا إليه ، وكان وجه لوكاشكا بل مظهره كله يفصحان عن رباطة جأشه

ورزانته ، وقد حمل جواده على أن يغذ السير غذًا عجز الآخرون عن ملاحقته ، وظل ينظر أمامه وهو يزر عينيه .

وقال لوكاشكا وهو يشد عنان جواده ، ويقف فى صف واحد مع رفاقه : « هاكم رجلاً يمتطى جواداً »

وأنعم أولينين النظر فلم ير شيئاً .

وسرعان ما تبين القوزاق راكبينِ ، فمضوا إليهما فى هدوء لا يلوون على شىء .

وسأل أولينين : «أهذان الراكبان من الأبركة ؟» .

ولم يجب القوزاق عن سؤاله فقد بدا سخيفاً لا معنى له ، ذلك أن الأبركة ليسوا من الغباء بحيث يغامرون باجتياز النهر ممتطين صهوة جيادهم .

وقال لوكاشكا مشيراً إلى راكبين تجليا للعيان : « لاشك أن هذا هو صديقنا رودكا يلوح لنا بيده ، انظروا ! ها هو ذا مقبلاً علينا »

واتضح للقوم بعد لحظات أن الفارسين هما الكشافان القوزاقيان ، ومضى الأومباشى ميمماً صوب لوكاشكا .

الفصل الحادى والأربعون

وكان كل ما قاله لوكاشكا هو : « أتراهما بعيدين عنا ؟ »

وسمع الجنود فى هذه اللحظة عينها طلقة حادة على مسيرة ثلاثين خطوة أو نحوها ، وابتسم الأومباشى ابتسامة خفيفة وقال وهو يومئ فى اتجاه الطلقة : « إنه صاحبنا جوركا يرميهم بطلقة » .

وسار الجند بضع خطوات أخرى فرأوا جوركا جالساً خلف تل رملى صغير يحشو بندقيته ، ويقطع الوقت بتبادل الطلقات مع الأبركة الذين كانوا يختبئون خلف كثيب رملى آخر ، وانطلقت رصاصة تصفر من ذلك الاتجاه ، فعلا وجه حامل العلم الشحوبُ وتملكه الاضطراب ، وترجل لوكاشكا وألقى بعنان جواده إلى رجل من القوزاق الآخرين ، واتجه إلى جوركا ، وترجل أولينين أيضاً وحنى قامته ثم تبع لوكاشكا . وما إن بلغا جوركا حتى صفرت رصاصتان فوق رأسيهما ، والتفت لوكاشكا إلى أولينين ضاحكاً وانحنى قليلاً وأنشأ يقول : « حذار وإلا قتلوك يا ديمترى أندرييفتش ، وخير لك أن ترحل ؛ فإن هذا ليس بمكانك » .

ولكن أولينين كان قد صح منه العزم على مشاهدة الأبركة ، ورأى على بعد مائتى خطوة أو نحوها الخوذات والبنادق تطل من خلف الربوة ، ولاحت فجأة نفخة من الدخان ومرت به رصاصة أخرى تصفر صفيراً ، وكان الأبركة يختبئون فى مستنقع أسفل تل ، وتركز اهتمام أولينين كله فى الموقع الذى لاذوا به ، وكان هذا الموضع شديد الشبه بسائر مواقع السهب ، ولكنه كان يبدو لوجود الأبركة فيه منفصلاً عن سائر مواقع السهب يتميز بطابع خاص به ، ولا جرم أن تبين لأولينين أنه أصلح موقع يمكن أن يتخذه الأبركة ، وعاد لوكاشكا إلى جواده ، وتبعه أولينين .

وقال لوكاشكا : « يجب أن نحصل على عربة دريس وإلا قتلونا جميعاً » ، « وهناك خلف الربوة عربة للنوغاى عليها حمل من الدريس » ، وأنصت حامل العلم إليه ، وأمن الأومباشى على قوله ، وجاءوا بعربة الدريس واحتمى بها القوزاق ودفعوها إلى الأمام ، وارتقى أولينين تلاً صغيراً يستطيع منه أن يكشف عن كل شىء ، ومضت عربة الدريس والقوزاق يتزاحمون من خلفها ، ثم تقدم القوزاق ولكن الجِجن – وكانوا تسعة – جلسوا حيناً وقد تلامست ركبهم وأحجموا عن إطلاق النار .

وكان السكون قد خيم على كل شىء ، ثم ارتفع من صفوف الجِجن فجأة صوت أنشودة نائحة تشبه أنشودة العم يروشكا « أى داى ، دالالاى » ، وكان الجِجن يعلمون أنْ لا مناص لهم من القتال ، فربطوا ركبهم بعضها إلى بعض حتى لا يغريهم الأمر بالهرب ، وأعدوا بنادقهم للإطلاق ، وأخذوا ينشدون نشيد الموت الخاص بهم ،

وشرع القوزاق يقتربون شيئاً فشيئاً محتمين بعربة الدريس ، وتوقع أولينين أن

يبدأ إطلاق النار فى أية لحظة ، على أن السكون ظل مخيماً على المكان لا يقطعه إلا صوت أنشودة الأبركة النائحة ، وانقطع صوت الغناء فجأة ، ثم انبعثت طلقة حادة أصابت مقدم العربة ، وقطعت حبل السكون لعنات الججن وصرخاتهم ، وتعاقبت الطلقات فأصاب الرصاص العربة ، رصاصة فى أثر رصاصة ، ولم يطلق القوزاق نيرانهم ، وكانوا وقتئذ على بعد خمس خطوات فقط من الججن .

ومرت لحظة أخرى ، ثم انطلق القوزاق من جانبى العربة يصرخون صرخات مدوية وفى مقدمتهم لوكاشكا ، ولم يسمع أولينين إلا بضع طلقات أعقبها صياح وأنات ، وخيل إليه أنه رأى دخاناً ودماء ، فترجل عن جواده وهرع إلى القوزاق لا يكاد يدرى ما يفعل ، وقد بدا أن الرعب أفقده البصر ، وعجز الفتى عن أن يتبين شيئاً وإن كان قد أدرك أن كل شىء قد انتهى ، وكان لوكاشكا قد شحب وجهه شحوب الأموات ، وأمسك بذراعى جريح من الججن صائحاً : « لا تقتلوه ، سآخذه حيًّا ! » وكان الججنى هو الرجل الأحمر الشعر الذى نقل جثة أخيه بعد أن قتله لوكاشكا ، وكان لوكاشكا يقيد ذراعيه ، وتخلص من يدى لوكاشكا وأطلق عليه مسدسه ، فسقط لوكاشكا وأخذ الدم يتدفق من معدته ، ثم انتصب واقفاً ، ولكنه هوى مرة أخرى وهو يسب بالروسية والتترية ، وأخذ الدم يزداد ظهوراً على ملابسه ومن تحته ، وهرع إليه بعض القوزاق وبدءوا يفكون حزامه ، وأخذ أحدهم ، وهو نازاركا ، يلتمس شيئاً . وظل على هذه الحال لحظة قبل أن يهم بإسعاف صاحبه ، كأنما عجز عن أن يغمد سيفه فى قرابه ، فقد أبى السيف أن يسلك الطريق القويم إلى القراب ، ذلك أن نصله كان قد تخضب بالدماء .

وكان الججن – بشعرهم الأحمر وشواربهم المحفوفة – قد أصابتهم طلقات

البنادق فتمزقوا إرباً إرباً ولم ينج منهم إلا الرجل الذى أطلق النار على لوكاشكا وإن كان قد أثخن بالجراح فى أجزاء كثيرة من جسمه ، وكان الرجل يتلفت حوله فى نظرات وحشية وقد تشابكت أسنانه وربض ممسكاً خنجره فى يده متهيئاً للدفاع عن نفسه كأنه الصقر الجريح وقد تسربل بالدم (وكان الدم يتدفق من جرح تحت عينه اليمنى) ، وشحب لونه وعلت الكآبة وجهه ، ومضى حامل العلم إليه كأنما قد نوى أن يمر به مر الكرام ، وأطلق النار على أذنه بحركة سريعة ، ونهض الججنى ، ولكن منيته كانت قد دنت فهوى إلى الأرض .

وأخذ القوزاق يجذبون الجثث ، ويحملون الأسلحة مبهورى الأنفاس ، لقد كان كل واحد من هؤلاء الججن الحمر الشعور رجلاً يتميز بملامحه الخاصة ، وحمل لوكاشكا إلى العربة وهو لا يكف عن صب اللعنات بالروسية والتترية .

وصاح مناضلاً : «كلا ، فلتكفوا ، وإلا خنقته بيدى ! » ، على أن قواه خارت وعجز عن المضى فى الصياح .

وعاد أولينين إلى داره . وقيل له فى المساء : إن لوكاشكا يحتضر ولكن تترياً من الضفة الأخرى للنهر أخذ على نفسه أن يشفيه بأعشاب من عنده .

وحملت الجثث إلى مركز القرية ، وتزاحمت النساء وصغار الصبيان من حولها يلقون عليها نظرة .

وكان الظلام قد بدأ فى الحلول عندما عاد أولينين ، ولم يستطع الفتى أن يجمع شتات نفسه بعد أن شاهد ما شاهد ، إلا أن ذكريات تلك الليلة أخذت تتدافع فى مخيلته عندما أقبل الليل يلف القرية بأستاره ، فأطل من النافذة وكانت ماريانكا تروح وتغدو بين المنزل وحظيرة البقر تصلح من شأنها ، ومضت أمها إلى الكرمة وأبوها إلى المكتب ، ولم يستطع أولينين الانتظار حتى تفرغ مما فى يدها من عمل ،

بل خرج للقائها وكانت تقف فى الكوخ وظهرها إليه ، وظن أولينين أنها بلا شك تشعر بالخجل .

فقال : « ماريانكا ! ماريانكا ! أتسمحين لى بالدخول ؟ »

والتفتت فجأة وقد اختفت أو كادت آثار الدموع فى عينيها ، وكان وجهها جميلاً فى حزنه ، ورنت إليه فى صمت مهيب .

وعاد أولينين يقول : « ماريانكا ، لقد جئت . . . »

فأجابت : « دعنى وشأنى ! » . . . وظل وجهها على حاله ، ولكن الدموع كانت قد أخذت تنهمر على خديها .

– فيم بكاؤك ؟ ما خطبك ؟

وردت على قوله فى صوت أجش : « ما خطبى ؟ لقد قتل رجالنا القوزاق ، وهذا هو الخطب ! »

وقال أولينين : « لوكاشكا ؟ »

– اغرب عنى ! ماذا تريد ؟

وقال أولينين وهو يدنو منها : « ماريانكا ! »

– لن تنال منى شيئاً !

وتوسل إليها أولينين قائلاً : « ماريانكا لا تقولى ذلك »

وصاحت الفتاة وهى تضرب الأرض بقدمها وتتقدم نحوه مهددة : « اغرب عنى ، فقد سئمتك » ، وبدا على وجهها من آيات البغض والاحتقار والغضب ما جعل أولينين يدرك فجأة أنْ لا أمل له فيها ، وأن ما انطبع فى نفسه أول مرة من أنه لا سبيل إلى هذه المرأة كان صحيحاً كل الصحة .

ولم يزد أولينين ، بل خرج من الكوخ لا يلوى على شىء .

الفصل الثاني والأربعون

وعاد أولينين إلى داره وظل ساعتين راقداً فى فراشه لا يتقلب ولا يتحرك ، ثم مضى إلى قائد سريته وطلب منه الإذن بأن يلحق بأركان الحرب ، وأخذ يستعد للرحيل إلى الحصن حيث كانت تعسكر كتيبته دون أن يودع أحداً مكتفياً بإرسال فانيوشا لتسوية حسابه مع رب الدار ، ولم يأت لوداعه إلا العم يروشكا . وقد شرب الرجلان كأساً ، ثم ثانية ، ثم ثالثة ، ووقفت بالباب تنتظره عربة سفر شدت إليها ثلاثة جياد ، كتلك التى كانت تنتظره ليلة رحيله عن موسكو ، ولكن أولينين لم يفعل ما فعله آنئذ : ذلك أنه لم يقبل على نفسه يناجيها ويقلب معها الأمور أو يحدثها زاعماً أن كل ما فكر فيه أو فعله هنا كان مجافياً للحق والصواب ، ولم يُمنِّ نفسه بحياة جديدة ، لقد كان يحب ماريانكا أكثر مما أحبها فى أى وقت مضى ، ويعلم أنه لن يفوز بحبها أبداً .

وقال العم يروشكا : « وداعاً يا بنى ! وإذا خرجت فى حملة فكن حكيماً واذكر كلماتى ، كلمات شيخ محنك ، وإذا خرجت فى غزوة أو ما أشبه — وأنت تعلم

أنى ذئب عجوز عركته الأيام – وبدءوا فى إطلاق النار فلا تندس فى زحمة تجمع من الرجال الكثير ، فإنكم معشر الشباب إذا دب الرعب فى قلوبكم سعيتم دائماً إلى التكأكؤ فى لمة مع غيركم ظانين أنكم كلما ازددتم عدداً ازددتم أنساً . ولكن فى ذلك الطامة الكبرى ! فإنهم لا يختارون لهدفهم إلا الزحمة وقد ألفت أن أبتعد عن الآخرين وأسير وحدى ، فلم يصبنى جرح واحد فى حياتى ، ومع ذلك فما أكثر الأشياء التى لم أرها فى حياتى ! »

وقال فانيوشا الذى كان يرتب الغرفة : « ولكن ثمة رصاصة تستقر فى ظهرك »

فأجابه يروشكا : « إنها أثر من مزاح القوزاق »

وسأله أولينين : « القوزاق ؟ وكيف كان ذلك ؟ »

– إليك ما حدث بالضبط : لقد كنا نشرب ، فاستخفت النشوة فانكا سيتكين . . . ففرقع ! وأصابنى برصاصة من غدارته هنا تماماً ! »

وسأله أولينين « وهل آذتك ؟ » ثم أردف : « فانيوشا أو تنتهى من التجهز للسفر سريعاً ؟ »

– وفيم العجلة ؟ دعنى أقص عليك القصة . . عندما أطلق علىّ النار لم تكسر الرصاصة العظم ، بل استقرت فى موضعها ، فقلت : لقد قتلتنى أيها الأخ ، ترى ماذا فعلت بى ؟ ولكنى لن أقتلك . لقد حق عليك أن تقدم لى ملء سطل من الخمر ! »

وسأله أولينين مرة أخرى وهو لا يكاد ينصت إلى القصة «ولكن أو آذتك الرصاصة ؟» ،

– دعنى أتم قصتى : وقدم لى الرجل سطلاً من الخمر وشربناه ، ولكن الدم ظل يتدفق حتى خضب الغرفة جميعاً ، فقال الجد بولاك « إن الفتى سيلقى حتفه ،

أسعفه بزجاجة من النبيذ الحلو وإلا قدمناك للمحاكمة ! فجاءونى بمزيد من الخمر فشربنا وشربنا . . . »

وسأله أولينين للمرة الثالثة : « لا عليك ! قل لى أو آذتك كثيراً ؟ »

– لقد آذتنى حقًّا ! لا تقاطعنى فإنى لا أحب المقاطعة ، ودعنى أتم قصتى : شربنا حتى الصباح التالى ، ونمت فوق الموقد وأنا سكران سكراً بيناً ، واستيقظت فى صباح اليوم التالى فعجزت عن أن أنصب قامتى . . . »

وردد أولينين قوله : « أكانت مؤلمة جدًّا ؟ » ، ظنًّا منه أنه يستطيع أخيراً أن يفوز من العجوز بجواب .

– أوقد قلت لك : إنها كانت مؤلمة ؟ لم أقل : إنها كانت مؤلمة ولكنى لم أكن أستطيع أن أنصب قامتى ولا أستطيع أن أسير .

وسأله أولينين وقد غلبه الحزن حتى استعصى عليه الضحك « ثم التأم الجرح ؟ »

– أجل التأم الجرح ، ولكن الرصاصة لا تزال مستقرة فى جسمى ، هلا تحسست موضعها ! ، ورفع العجوز قميصه وكشف عن ظهره القوى حيث كان موضع الرصاصة ملحوظاً قرب العظم تماماً .

وأنشأ يقول وقد بدا أنه يلهو بالرصاصة كأنه يلهو بلعبة : « تحسس كيف تدور ؟ تحسس ، إنها الآن مقلوبة »

وسأله أولينين : « أو يشفى لوكاشكا ؟ »

– علم ذلك عند الله وحده ! فليس فى القرية طبيب وقد مضوا يلتمسون طبيباً .

وسأله أولينين : « وأين يلتمسونه ؟ فى جروزنايا ؟ »

– كلا يا بنى ! ولو كنت أنا القيصر لشنقت كل أطبائكم الروس منذ أمد

بعيد ، فهم لا يعرفون إلا البتر ! انظر إلى باكلاشيف مواطننا القوزاق ، فإنه لم يعد رجلاً بمعنى الكلمة مذ بتروا ساقه ! ، وفى هذا الدليل على غبائهم ! ترى أى شىء يصلح له الآن ؟ لا يابنى ، إن فى الجبال أطباء بحق ، وإليك صديق جيرشيك ، فقد كان فى حملة مرة وأصيب بجرح هنا فى الصدر. وقال أطباؤكم : إن شفاءه ميئوس منه ، وجاء طبيب من مواطنيه أهل الجبال وشفاه ! إنهم خبيرون بالأعشاب يا بنى ! »

وقال أولينين : « هلا كففت عن هذا الهراء ! خير لى أن أبعث إليه الطبيب من مقر القيادة » .

وقال الشيخ فى سخرية : « هراء ! حمق ! هراء ! تبعث إليه بطبيب ! — لو أن أطباءكم يستطيعون شفاء المرضى لالتمس القوزاق والجن عندكم الدواء ! ولكن الحق أن ضباطكم وأميرالاياتكم التمسوا الأطباء من الجبال ، إن أطباءكم غشاشون ! أجل كلهم غشاشون ! »

ولم يجب أولينين ، ولكنه آمن حق الإيمان بأن كل ما فى العالم الذى عاش فيه والعالم الذى كان وشيك العودة إليه غش فى غش وخداع فى خداع !

وسأله «كيف حال لوكاشكا ؟ أومضيت لعيادته ؟ »

— إنه يستلقى فى فراشه كالميت المسجى ! لا يأكل ولا يشرب ، ولا يتناول شيئاً إلا الفودكا ، وما دام يشرب الفودكا فلا خوف عليه ، إنه ليحزننى أن أفقد هذا الشاب ، يا له من فتى شجاع مثلى ! لقد كنت أحتضر على هذا النحو مرة ، وراحت النسوة العجائز يولولن ويندبن ، وكان رأسى يحترق كأنما اشتعلت فيه النار ، وبلغ بهم الأمر أن مددونى تحت الأيقونات المقدسة ، ورقدت على هذه الحال ووقف فوق رأسى على الموقد طبالون صغار لا تزيد قامتهم على هذا يدقون نوبة

« التمام » ، وصحت فيهم فما ازداد قرع الطبول إلا شدة وعنفاً » (وضحك الشيخ) ، وجاءت النسوة بقسيسنا وكن يتهيأن لدفنى ، وقلن ، لقد دنس نفسه بمخالطة الكفار من أهل الدنيا ! وكان يمرح مع النساء ويقتل الناس ، وترك الصوم ، وراح يعزف القيثارة (البلاليكا) ، ثم قلن : اعترف بذنوبك ، فبدأت أعترف ، وقلت : « لقد أذنبت ، وكلما قال القس شيئاً أجبته بقولى : لقد أذنبت ، وبدأ يسألنى عن القيثارة قال : أين ذلك الشىء الملعون ؟ أرنيها وحطِّمْها ، فقلت : ولكنها لم تعد فى حوزتى ، وكنت قد أخفيتها بنفسى فى شبكة بالكوخ الصغير ، وأيقنت أنهم لن يستطيعوا العثور عليها ، فتركونى وشأنى ، ولكننى شفيت على الرغم من ذلك ، وعدت إلى قيثارتى . . . ! » ومضى يقول : « حسن ، ماذا كنت أقول ؟ استمع إلى وابتعد عن الرجال الآخرين وإلا عملت على قتل نفسك دون مبرر ، إن عواطفى معك وهذه هى الحقيقة فأنت سكير وأنا أحبك ! والشباب على شاكلتك يحبون أن يرقوا الربا ، لقد كان يقيم هنا شاب أقبل من روسيا وكان يحب دائماً أن يرقى الربا بجواده ، وقد جرى على أن يسميها « التلال الصغيرة » أو ما شابه ذلك من أسماء غريبة أخرى ، وكان كلما رأى رابية ارتقاها ، وحدث أن ركض مرة بجواده ومضى فى ذلك الطريق وارتقى قمة الرابية وقد ملأ عطفيه الزهو والفخار ، ولكن رجلاً من الجحجن أطلق عليه النار فأرداه قتيلا ، ما أبرع أولئك الجحجن فى التصويب من مساند بنادقهم ! وبعضهم يتقن إطلاق النار أكثر منى ، وإنى لا أحب أن يُقتل الشبان على هذا النحو فى غير ما جريرة ، ولقد كنت أحياناً أنظر إلى جنودكم وأعجب لأمرهم ، وهذا بلا شك غباء منكم ، ذلك أن المساكين يسيرون جمعاً واحداً ، بل يخيطون البنيقات الحمر فى ستراتهم ، فكيف لا يصيبهم الرصاص ؟ وما إن يقتل الواحد منهم حتى يجروه بعيداً ويحل آخر

محله ! . . وردد الشيخ وهو يهز رأسه « يا للغباء ! ولم لا يتفرقون ويسيرون فرادى ، أجل سر على هذا النحو لئلا يصيبوك بأذى ، وهذا ما يجب عليك أن تفعله ! »

وقال أولينين وهو ينهض متجهاً صوب الدهليز : «شكراً لك ، إلى اللقاء أيها العم ! ولسوف نلتقى مرة أخرى بإذن الله ، وكان الشيخ مفترشاً الأرض فلم ينهض .

وشرع يقول : «أهكذا تودع الناس ؟ غبى ، غبى يا إلهى ما الذى دهى الناس ؟ لقد تصاحبنا . تصاحبنا سنة أو ما يقرب من السنة ، ثم يقول «وداعاً» ثم يرحل ! ويحك ! إننى أحبك ولشد ما أرثى لك ! إنك لشقى محزون ، تخلو إلى نفسك دائماً ، ولا يؤنس وحشتك أحد ، ويبدو لى أنه ليس لك من محب ، إن النوم يعز على أحياناً من التفكير فيك ، وإنى لأرثى لك ، وما أشبه حالك بقول الأغنية :

هيهات أيها الأخ العزيز
أن تعيش فى بلد غريب !

وقال أولينين مرة أخرى « وداعاً »

ونهض الشيخ ومد إليه يده ، فضغط عليها أولينين ثم استدار متأهباً للرحيل .

« أين وجهك ؟ ، وأخذ الشيخ رأس أولينين بكلتا يديه وقبله ثلاث مرات مبلل الشارب والشفتين وراح يبكى .

– إننى أحبك ، وداعاً !

وركب أولينين العربة .

وقال الشيخ وهو ينتحب فى إخلاص وصدق : « إيه ! أهكذا ترحل ؟ يجمل بك أن تعطينى شيئاً أذكرك به ، أعطنى بندقية ! فما حاجتك إلى اثنتين ؟ »

فأخرج أولينين بندقية وأعطاها إياه .

وغمغم فانيوشا قائلاً : « لقد أعطيت الشيخ الكثير ، وهو لا يقنع أبداً ! يا له من متسول عجوز ! » ، ثم أردف وهو يلتف بمعطفه ويتخذ مقعده على صندوق العربة ! « إنهم جميعاً قوم من الشذاذ لا يعرفون نظاماً ! »

فصاح به الشيخ وهو يضحك : « اعقل لسانك أيها الخنزير ! يالك من فتى شحيح ! »

وخرجت ماريانكا من حظيرة البقر ونظرت إلى العربة فى غير ما اكتراث وحنت رأسها ثم اتجهت إلى الكوخ ، وقال فانيوشا بالفرنسية وهو يغمز بعينه ويضحك ضحكة بلهاء : « الفتاة ! »

فصاح به أولينين غاضباً : « سر ! »

وصاح يروشكا : « وداعاً يا بنى ، وداعاً ، لن أنساك : »

والتفت أولينين خلفه ، فرأى العم يروشكا يتحدث مع ماريانكا فى شئونه الخاصة على ما يظهر ، ولم ينظر الشيخ أو الفتاة إلى أولينين !

رقم الإيداع	١٩٨٠/٣٥١٥
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧-٢٤٧-٧٣٣٠-٩٦-٠

١/٧٩/٢٩٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

هذه الرواية

خير روايات تولستوى الغنائية ، وأنشودة شبابه . والقصيدة التى نظمها فى بلاد القوقاز . فقد حفلت هذه الرواية كلها بالجمال المترفع الذى اتسمت به هذه الجبال يكلِّل هاماتها الجليد ، وتزهو فى سماء مشرقة تبهر الأبصار ، وهى أثر يفوق كل الآثار ، بل هى ثمرة تفتقت عنها أكمام عبقرية تولستوى .

وقد أقبل بطل الرواية على القوقاز يبحث عن انطباعات نضيرة فى خضم ما تأتى به الأقدار من خطوب ، ووقع فى حب امرأة قوقازية ، وأسلم نفسه لأتون من الرغبات المتصارعة ، وظن يوماً أن السعادة تكمن فى حب الغير وإنكار الذات ! ؟ وإذا بأفكار جديدة تطرأ عليه :

« إن كل ما أفكر فيه هباء فى هباء : الحب وإنكار الذات . . . . . . ما الذى يدعونى إلى التفكير؟ حسبى أن أعيش ، أجل أعيش ، وهذا حسبى . . » .



ص
١٨٠